سلسلة النقد الأسلوبي

(السيرة الذاتية)

نحو شعر عربي أصيل وهادف وبناء وجاد ومحترم

(زبيدُ) حُـزتِ الـذرى فـي الأصـل والنسَـبِ ... يـا دُرة سـطعتْ فـي أمَّـةِ العَـرَبِ

ولا أزكّـي - علـى الـرحمن - دُرّتنـا ... بـل أكْبِـر الـدُّرة العصـماءَ عـن رغـب

حسـيبُها اللهُ مـن مَـدح يُجَملهـا ... فتلـك أسـمى مـن الأمـداح والخطـب

والشـعرُ يَفخـرُ إذ يُطـري مُوَفقـة ... لله يمـدحُ ، لا للصـيتِ والقُـرَب

وللقـوافي صـدىً فـي ذِكـر سِـيرتها ... لأنهـا جمّـة الأخـلاق والأدب

الطبعة الأولى

قراءة في السيرة الذاتية
(من زاوية تاريخية)

سيرة زبيدة بنت جعفر
نقد وتحليلُ

الفقير إلى عفو ربـه تعالى أبي عبد الله
أحمد علي سليمان عبد الرحيم
الشاعر السلفي المصري الصعيدي

راجعه الدكتور عدنان النحوي والأستاذ سالم النوبي

الطبعة الأولى
مُجمّعة من المجلات والصحف والدَوريات والجرائد
ومُراجعة ومُصحّحة ومُحَققة ومُنقحة ومَزيدة

السِّيرَةُ والمَسِيرَة

ترجمة
لحياة الأميرة
زبيدة بنت جعفر بن المنصور

كتبها نثراً وشعراً ، واعتنى بها ، وترجمها إلى اللغة الإنجليزية

الشاعر السلفي المصري الصعيدي: أحمد علي سليمان عبد الرحيم

بإشراف وتدقيق ومتابعة اللجنة الفنية

المنظمة للكتاب الخيري السنوي

(الإهداء)

إلى كل الباحثين عن الخير ، والداعين إليه بإخلاص.
إلى كل من يسعون إلى إزالة الفقر والجوع والمرض والجهل.
إلى الأماجد الكرام الذين لا يخافون في الله لومة لائم.
إلى المحسنين إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين.
إلى كل من يَكْفلون الأيتام في كل مكان من هذه الأرض.
إلى كل من يريدون النجاة من النار والفوز بالجنة.
إلى كل من ينشدون حرية المرأة الحقيقية وفق منهاج الله.
إلى كل من يبذلون الغالي والنفيس لإسعاد الناس.
إلى كل من يحبون الله ورسوله والدار الآخرة.
إلى كل من ينفقون أموالهم في أوجه الخير والبر.
إلى كل من يحفرون الآبار ليشرب الناس والأنعام.
الى كل من يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً.
إلى كل من يدعمون العمل التطوعي في الداخل والخارج.
إلى كل من يكسون الفقراء والمساكين والمحتاجين.
إلى كل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.
إلى كل من يغرسون الأشجار لمنفعة الخلق.
إلى كل من يقومون على مراكز تحفيظ القرآن الكريم.
إلى كل من يدعمون دور الأسرة في التربية والتوجيه.
إلى كل الطموحين إلى سعادة البشرية وفق منهج الله.
إلى كل من يطبعون المصاحف لنشر رسالة القرآن.
إلى كل من يبحثون عن القدوات في زمان عقيم!
إلى كل من يتحسسون النماذج والأسوات فلا يجدون!
إلى كل من يصدقون من الروايات التاريخية صادقها!
إلى كل من يطمحون إلى سجل الخلود في البذل والعطاء!
إلى كل من يمخرون عُباب الجاهلية للاستمرار على الحق!
إلى الصامدين في وجوه الطواغيت لا يعبأون بهم!
إلى كل المخبتين المؤمنين الموحدين المجتهدين في الدين!
إلى كل هؤلاء ومن كان على شاكلتهم من أهل الخير.
إلى كل شاعر مسلم مؤمن موحد ينشد أشعاراً محترمة.
إلى كل كاتب محترم يرقى بعقلية قرائه ويحترمهم.
إلى كل أديب جانب الإسفاف والركاكة والإباحية والمجون.
إلى كل مثقف يحب الوصول للحقيقة بقطع النظر عن قائلها.
إلى كل قصاص ابتعد في قصصه عن الرذيلة والسخافة والفاحشة.

إلى كل روائي كان هدفه من رواياته مرضاة الله ورسوله.
إلى كل ناقد محترم لم يعمد إلى بيان العيوب فقط بل أظهر الإيجابيات.
إلى كل لغوي حافظ على لغة العرب فسهلها على الناس بلا إخلال لها.
إلى كل مدير محترم كانت الإدارة عنده تكليفاً لا تشريفاً فأراح من يعمل معه.
إلى كل داعية دعا إلى التوحيد والعقيدة أولاً ، ثم المناسك وليس العكس.
إلى كل قارئ للقرآن لم يطوعه للمآتم ولا للطواغيت ولا للمناسبات.
إلى كل محفظٍ للقرآن كان يفسره للناشئة على قدر عقولهم لئلا يكون عليهم عمى!
إلى كل جار محترم حافظ على حقوق جاره وفق الشرع المطهر الحنيف الشريف.
إلى كل صديق حافظ على حدود الصداقة وفق كتاب الله وسُنة رسوله.
إلى القابضين على دينهم - في زماننا العجيب - كالقابض على الجمر.
إلى الأخوات المحتشمات المحترمات اللائي سترن الوجوه والكفوف امتثالاً للشرع.
إلى الأخوات الداعيات إلى الله على بصيرةٍ في كل صعيدٍ وفي أي نساء.
إلى أسرتي وزوجي وأبنائي وأحفادي جميعاً.
إلى أصدقائي على قلتهم ، ومعارفي وأقربائي وأرحامي على كثرتهم.

أهدي هذا العمل المتواضع

آملاً أن يحوز الرضا ويلقى القبول!

(المقدمة)

الحمد لله عز وجل وكفى ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد ، فنقدم لهذا العمل بحديث من جوامع كلمه ـ عليه السلام ـ وما أكثرها. اتفق الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما على حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). وإنني لمُشفق على نفسي من المَدح والإطراء ، فلربما أسيء الفهم وأتت ظنون تصفني بالمتملق أو الذي يريد ممن يمتدحه أو يُطريه شيئاً ما! فاللهم إني أعوذ بك أن تحْسّن في مرأى العيون علانيتي ، وتُقبّح في خفيات القلوب سريرتي. اللهم كما أسأتُ فأحسنتَ إليَّ ، فإذا عدتُ فعد علي وارزقني مواساة من قترت عليه بما وسعت عليّ. اللهم إني أعوذ بك أن تحسُن في لامعة العيون علانيتي ، وتقبُح لك فيما أخلو سريرتي ، محافظاً على رياء الناس في نفسي ، ومضيعاً ما أنت مطلع عليه مني ، أبدي للناس أحسن أمري ، وأفضي إليك بأسوء عملي تقرباً إلى الناس بحسناتي ، وفراراً منهم إليك بسيئاتي ، فيحل بي مقتك ، ويجب علي غضبك. أعوذ بك من ذلك كله يا رب العالمين. ومن هنا كان ابتهالي وتضرعي لله رب العالمين بأن يُصلح سري وعلانيتي على حد سواء! وأن يجعل هذه السيرة الذاتية عن مسيرة حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية القرشية الهاشمية في ميزان حسناتي وحسناتها يوم نلقاه سبحانه وتعالى! بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله ، وفي سبيل الله ، وعلى مِلة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وتابعيه أجمعين. اللهم إني إليك أسلمت قلمي ، وإليك وجهت وجهي وعزيمتي في الكتابة ، وإليك وحدك توجهتُ بكلماتي هذه ، وإليك فوضت أمري في أن تُعينني على هذه الفكرة ، وأقدّم للتاريخ وللناس أنموذجاً حياً لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة المؤمنة الموحّدة. اللهم احفظني بحفظ الإيمان والإسلام من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، ومن تحتي ، ومن قِبلي ، وادفع عني كل سوء ومكر بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك. بسم الله ، آمنت بالله ، توكلت على الله ، حسبي الله. اللهم إني أسألك خير أموري كلها ، وأعوذ بك من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة. ولتكن الكتابة في هذه السيرة الذاتية خالصة لوجه الله الكريم! ما أبالي إذا قلت هذه الكلمات لو اجتمع علي الإنس والجن: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله ، وعلى مِلة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه. اللهم ومتى وقفنا بين نقصين في دين أو دنيا فأوقع النقص بأسرعهما فناء ، واجعل التوبة في أطولهما بقاء. وإذا هممنا بهمين يرضيك ربنا أحدهما عنا ، ويسخطك الآخر علينا ، فمل بنا إلى ما يُرضيك عنا ، وأوهن قوتنا عما يُسخطك علينا ، ولا تحُل في ذلك بين نفوسنا واختيارها ، فإنها مختارة للباطل إلا ما وُفقت ، أمارة بالسوء إلا ما رُحمت. اللهم وإنك من الضعف خلقتنا ، وعلى الوهن بنيتنا ، ومن ماءٍ مهين ابتدأتنا ، فلا حول لنا إلا بقوتك ، ولا قوة لنا إلا بعونك فأيّدنا بتوفيقك ، وسدّدنا بتسديدك ، واعم أبصار قلوبنا عما خالف محبتك ، ولا تجعل لشيءٍ من جوارحنا نفوذاً في معصيتك. اللهم وصل على محمد وآله وصحبه ، واجعل همسات قلوبنا ، وحركات أعضائنا ، ولمحات أعيننا ، ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك ، حتى لا تفوتنا حسنة نستحق بها جزاءك ، ولا تبقى لنا سيئة نستوجب بها عقابك. اللهم لا تُخيّب رجاءً هو مَنوط بك ولا تصفر كفاً هي ممدودة إليك ، ولا تذلّ نفساً هي عزيزة عليك بمعرفتك ولا تسلب عقلاً هو مستضئ بنور هدايتك ، ولا تُقْذِ عيناً فتحتها بنعمتك ، ولا تُخرس لساناً عوّدته الثناء عليك ، وكما كنت أولاً بالتفضل ، فكن آخراً بالإحسان. الناصية بيدك ، والوجه عان لك ، والخير متوقعٌ منك ، والمصير

على كل حال إليك ، ألبسني في هذه الحياة البائرة ثوب العصمة ، وحَلني في تلك الباقية بزينة الأمن والسعادة ، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائلة ، وأجرني على العادة الفاضلة ، ولا تجعلني ممن تكِله إلى نفسه. فالشقي من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمنه من غده ، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، إنك على ما تشاء قدير ، ومُيسر كل عسير ، وكل عسير عليك سهل يسير. اللهم إن تشأ تعف عنا فبفضلك ، وإن تشأ تُعذبنا فبعدلك ، فسهل لنا عفوك بمنك ، وأجرنا من عذابك بتجاوزك ، فإنه لا طاقة لنا بعدلك ولا نجاة لأحد منا دون عفوك. يا غني الأغنياء ، ها نحن عبادك بين يديك ، وأنا أفقر الفقراء إليك ، فاجبر فاقتنا بوسعك ، ولا تقطع رجاءنا بمنعك ، فتكون قد أشقيت من استسعد بك ، وحرمت من استرفد فضلك ، فإلى من حينئذ منقلبنا عنك؟ وإلى أين مذهبنا عن بابك؟ سبحانك نحن المضطرون الذين أوجبت إجابتهم ، وأهل السوء الذين وعدت الكشف عنهم وأشبه الأشياء بمشيتك ، وأولى الأمور بك في عظمتك ، رحمة من استرحمك ، وغوث من استغاث بك ، فارحم تضرعنا إليك ، وأغننا إذ طرحنا أنفسنا بين يديك. اللهم إن الشيطان قد شمت بنا إذ شايعناه على معصيتك ، فصل على محمد وآله وصحبه ، ولا تشمته بنا بعد تركنا إياه لك ، ورغبتنا عنه إليك. إلهي أبرأ إليك من أن أستكبر ، وأعوذ بك من أن أصِر على معصيتك ، وأستغفرك لما قصرت فيه من طاعتك ، وأستعين بك على ما عجزت عنه من اجتناب معاصيك ولزوم طاعاتك. اللهم صل على محمد وآله وصحبه ، وهب لي ما يجب علي لك ، وعافني مما أستوجبه منك ، وأجرني مما يخافه أهل الاساءة ، فإنك أهل العفو ، مرجو للمغفرة ، معروف بالتجاوز ، ليس لحاجتي مطلب سواك ، ولا لذنبي غافر غيرك ، حاشاك ولا أخاف على نفسي إلا إياك ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة. صل على محمد وآل محمد وأصحاب محمد ، واقض حاجتي ، وأنجح طلبتي ، واغفر ذنبي ، وآمن خوف نفسي ، إنك على كل شيء قدير ، وذلك عليك يسير ، آمين رب العالمين. رب إنك قد حسّنت خلقي ، وعظمت عافيتي ، ووسّعت عليّ في رزقك ، ولم تزل تنقلني من نعمةٍ إلى كرامة ، ومن كرامةٍ إلى رضىً تُجدد لي ذلك في ليلي ونهاري ، لا أعرفُ غير ما أنا فيه من عافيتك يا مولاي ، حتى ظننتُ أن ذلك واجب عليك لي ، وأنه لا ينبغي لي أن أكون في غير مرتبتي ، لأني لم أذق طعم البلاء فأجد طعم الرضا ، ولم يذللني الفقر فأعرف لذة الغنى ، ولم يلهني الخوف فأعرف فضل الأمن. يا من ذِكره شرفٌ للذاكرين ، ويا من شُكره فوز للشاكرين ، ويا من طاعته نجاة للمطيعين ، صل على محمد وآله وصحبه ، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر ، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة ، فإن قدرت لنا فراغاً من شغل فاجعله فراغ سلامة لا تدركنا فيه تبعة ولا تلحقنا فيه سآمة ، حتى ينصرف عنا كتاب السيئات بصحيفة خالية تماماً من ذكر سيئاتنا ، ويتولى كتاب الحسنات عنا مسرورين بما كتبوا من ثوابنا وحسناتنا. وإذا انقضت أيام حياتنا ، وتصرمت مُدد أعمارنا ، واستحضرتنا دعوتك التي لا بد منها ومن إجابتها ، فصل على محمد وآله وصحبه ، واجعل ختام ما تُحصي علينا كتبة أعمالنا توبة مقبولة ، لا توقفنا بعدها على ذنب اجترحناه ولا معصية اقترفناها ، ولا تكشف عنا ستراً سترته على رؤوس الأشهاد ، يوم تبلو أخبار عبادك ، إنك رحيم بمن دعاك ومستجيب لمن ناداك. اللهم إنه يحجبني عن مسألتك خِلالٌ ثلاث ، وتحدوني عليها خلة واحدة ، يحجبني أمرٌ قد أمرتني به فأبطأتُ عنه ، ونهيٌ قد نهيتني عنه فأسرعتُ إليه ، ونعمة قد أنعمت بها علي فقصرت في شكرها. ويحدوني على مسألتك تفضلك على من أقبل بوجهه إليك ، ووفد بحسن ظنه إليك ، إذ جميع إحسانك تفضل ، وإذ كل نعمك ابتداء. فها أنا ذا يا إلهي واقف بباب عزك وقوف المستسلم الذليل ، وسائلك على الحياء مني سؤال البائس المعيل ، مُقِر لك بأني لم أستسلم وقت إحسانك إلا بالأقلاع عن عصيانك ، ولم أخل في الحالات كلها من امتنانك. فهل ينفعني يا إلهي

إقراري عندك بسوء ما اكتسبت؟ وهل يُنجيني منك اعترافي لك بقبيح ما ارتكبت؟ أم أوجبت لي في مقامي هذا سخطك؟ أم لزمني في وقت دعائي مقتك؟ سبحانك لا أيأس من رَوْحك وقد فتحت لي باب التوبة إليك ، بل أقول مقال العبد الذليل الظالم لنفسه ، المستخف بحُرمة ربه ، الذي عظمت ذنوبه فجلت ، وأدبرت أيامه فولت. حتى إذا رأى مدة العمل قد انقضت ، وغاية العمر قد انتهت ، وأيقن أنه لا محيص له منك ، ولا مهرب له عنك. تلقاك بالإنابة وأخلص لك التوبة ، فقام إليك بقلب طاهر نقي ، ثم دعاك بصوت حائل خفي ، قد تطأطا لك فانحنى ، ونكس رأسه فانثنى ، قد أرعشت خشيته رجليه ، وغرقت دموعه خديه. يدعوك مستغيثاً بيا أرحم الراحمين ، ويا أرحم من انتابه المسترحمون ويا أعطف من أطاف به المستغفرون ، ويا من عفوه أكثر من نقمته ويا من رضاه أوفر من سخطه ، ويا من تحمد إلى خلقه بحسن التجاوز ، ويا من عوّد عباده قبول الإنابة ، ويا من استصلح فاسدهم بالتوبة ويا من رضي مِن فعلهم باليسير ، ويا من كافأ قليلهم بالكثير ، ويا من ضمن لهم إجابة الدعاء ، ويا من وعدهم على نفسه بتفضله حسن الجزاء. ما أنا بأعصى من عصاك فغفرت له وما أنا بألوم من اعتذر إليك فقبلت منه ، وما أنا بأظلم من تاب إليك فعدت عليه. أتوب إليك في مقامي هذا توبة نادم على ما فرط منه ، مشفق مما اجتمع عليه ، خالص الحياء مما وقع فيه ، عالم بأن العفو عن الذنب العظيم لا يتعاظمك ، وأن التجاوز عن الإثم الجليل لا يستصعبك ، وأن احتمال الجنايات الفاحشة لا يتكأدك ، وأن أحب عبادك إليك من ترك الاستكبار عليك ، وجانب الإصرار ولزم الاستغفار. وأنا أبرأ إليك من أن أستكبر ، وأعوذ بك من أن أصر ، وأستغفرك لما قصرت فيه ، وأستعين بك على ما عجزت عنه. اللهم صل على محمد وآله وصحبه ، وهب لي ما يجب علي لك ، وعافني مما أستوجبه منك ، وأجرني مما يخافه أهل الاساءة ، فإن العفو صفتك ، وأنت مرجو للمغفرة ، معروف بالتجاوز ، ليس لحاجتي مطلب سواك ، ولا لذنبي غافر غيرك ، حاشاك ولا أخاف على نفسي إلا إياك ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة. صل على محمد وآل محمد وأصحاب محمد ، واقض حاجتي ، وأنجح طلبتي ، واغفر ذنبي ، وآمن خوف نفسي إنك على كل شيء قدير ، وذلك عليك يسير ، آمين رب العالمين. رب إنك قد حسنت خلقي ، وعظمت عافيتي ، ووسعت علي في رزقك ، ولم تزل تنقلني من نعمة إلى كرامة ، ومن كرامة إلى رضى تجدد لي ذلك في ليلي ونهاري ، لا أعرف غير ما أنا فيه من عافيتك يا مولاي ، حتى ظننت أن ذلك واجب عليك لي ، وأنه لا ينبغي لي أن أكون في غير مرتبتي ، لأني لم أذق طعم البلاء فأجد طعم الرضا ، ولم يذللني الفقر فأعرف لذة الغنى ، ولم يلهني الخوف فأعرف فضل الأمن. يا إلهي ، فأصبحت وأمسيت في غفلة مما فيه غيري ممن هو دوني نكرت آلاءك ولم أشكر نعماءك ، ولم أشك في أن الذي أنا فيه دائم غير زائل عني ، ولا أحدث نفسي بانتقال عافية ، ولا حلول فقر ولا خوف ولا حزن في عاجل دنياي وفي آجل آخرتي. فحال ذلك بيني وبين التضرع إليك في دوام ذلك لي مع ما أمرتني به من شكرك ، ووعدتني عليه من المزيد من لدنك ، فسهوت ولهوت وغفلت وأشرت وبطرت وتهاونت ، حتى جاء التغير مكان العافية بحلول البلاء ، ونزل الضر منزل الصحة بأنواع الأذى وأقبل الفقر بإزالة الغنى ، فعرفت ما كنت فيه للذي صرت إليه فسألتك مسألة من لا يستوجب أن تسمع له دعوة لعظيم ما كنت فيه من الغفلة ، وطلبت طلبة من لا يستحق نجاح الطلبة للذي كنت فيه من اللهو والغرة وتضرعت تضرع من لا يستوجب الرحمة للذي كنت فيه من الزهو والاستطالة ، فركبت إلى ما إليه صيرتني ، وإن كان الضر قد مسني ، والفقر قد أذلني ، والبلاء قد جاءني. فإن يك ذلك يا إلهي من سخطك علي ، فأعوذ بحِلمك من سخطك يا مولاي ، وإن كنت أردت أن تبلوني فقد عرفت ضعفي وقِلة حيلتي ، إذ قلت: إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً. وقلت: (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه

فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن). وقلت: (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى). وقلت: (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً)! اللهم ربنا واجعل همساتِ قلوبنا وحركاتِ أعضائنا ، ولمحاتِ أعيننا ، ولهجاتِ ألسنتنا في مُوجبات ثوابك حتى لا تفوتنا حسنة نستحق بها جزاءك ، ولا تبقى لنا سيئة نستوجب بها عقابك. أيها الإنسان المذنب المقصر المَعيب ، يا من يُدعى إلى نجاته فلا يجيب ، يا من قد رضي أن يخسر ويخيب ، إن أمرك طريف وحالك عجيب ، اذكر في زمان راحتك ساعة الوجيب ، (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! ويحك إن الحق حاضر ما يغيب ، تحصى عليك أعمالُ الطلوع وأفعال المغيب ، ضاعت الرياضة في غير نجيب ، سيماك تدل وما يخفى المريب ، اسمع لا بد لغربان الفراق من نعيب ، أنساكن الغفلة ولغيرنا نعيب ، يا من سِلعُه كلها معيب ، اذكر يوم الفزع والتأنيب ، (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! لا بد والله من فراق العيش الرطيب ، والتحاف البلى مكان الطيب ، واعجبًا للذات بعد هذا كيف تطيب ، ويحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب ، (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! تذكر من قد أصيب كيف نزل بهم يوم عصيب ، وانتبه لأحظ الحظ والنصيب ، واحترز فعليك شهيد ورقيب ، إذا حل الموت حل التركيب ، وتقلب مقل القلوب في قلب التقليب ، فتنزعج الروح انزعاج الصرمة إذا أحست بذيب ، فالتفت يا محب الهوى عن هذا الحبيب ، (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! ستخرج والله من هذا الوادي الرحيب ، ولا ينفعك البكاء والنحيب ، لا بد من يوم يتحير فيه الشبان والشيب ، ويذهل فيه الطفل للهول ويشيب ، يا من عمله كله رديء فليته قد شيب! (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! كيف بك إذا أحضرت في حال كئيب ، وعليك ذنوب أكثر من رمل كثيب ، والمهيمن الطالب والعظيم الحسيب؟ فحينئذ يبعد عنك الأهل والنسيب ، النوح أولى بك يا مغرور من التشبيب ، أتؤمن أم عندك تكذيب؟ أم تراك تصبر على التعذيب؟ كأنك بدمع العين ومائها قد أذيب! اقبل نصحي وأقبل على التهذيب ، (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! يا مطالبًا بأعماله ، يا مسؤولاً عن أفعاله ، يا مكتوبًا عليه جميع أقواله ، يا مناقشًا على كل أحواله ، نسيانك لهذا أمر عجيب! أتسكن إلى العافية ، وتساكن العيشة الصافية ، وتظن أيمان الغرور واقية؟ لا بد من سهم مصيب! (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! لو أحسنت الخلاص أحسنت ، لو آمنت بالعرض لتجملت وتزينت ، يا من قد انعجمت عليه الأمور لو سألت لتبينت ، ويحك أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب! (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)! يا غافلين عما نالوا ، مِلتم عن التقوى وما مالوا ، ما أطيب ليلهم في المناجاة ، وما أقربهم من طريق النجاة ، كان بشر الحافي طويل السهر يقول: أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم! كم منع نفسه من شهوة ، فما أنالها حتى سمع: كُلْ يا من لم يأكل! لما أتى لها كم حمل عليها حملاً ، وما رثى لها! كم همت بنيل غرض بدا لها ، لما خافت عقبى مرض ينالها أصبح زاهدًا. وأمسى عفيفًا ما أخذ من الدنيا إلا طفيفًا ، وما خرج عنها إلا نظيفًا! هذا وكم وجد من الدنيا سعة وريفًا! تقلب في ثياب الصبر نحيفًا ، وتوغل في طريق التقوى لطيفًا ، تالله لقد كان رأيه حصيفًا ، وما قدر حتى أعانه الرحمن ، (وخلق الإنسان ضعيفًا)! سبحان من كشف لأحبابه ما غطى عن الغير ، وأعطاهم من جوده كل خير ومير ، فقطعوا مفاوز الدنيا بالصبر ولا ضير ، وكابدوا المجاعة حتى استحيا راهب الدير ، أفي أحوال هذه الدنيا تمارى؟ أما ترى زيها مستردًا مستعارًا وسلب القرين يكفي وعظًا واعتباراً؟ أما اللذات فقد فنيت وأبقت عارًا ، وأما العمر فمنتهب جهارًا ، إياك وإيا الدنيا فرارًا فرارًا ، لقد قرت عيون الزاهدين وماتوا أحرارًا ، قتلت أقرانهم فانتهضوا يأخذون ثارًا ، وباعوها بما يبقى لا كرها بل اختيارًا ، قطعوا بالقيام ليلاً وبالصيام نهارًا ، واتخذوا الجد لحافًا والصبر شعارًا ، وركبوا من العزم أمضى من العربان المهارى ،

واهتدوا إلى نجاتهم والناس في الجهل حيارى! ربح القوم وخسرت ، وساروا إلى المحبوب وما سرت ، وأجيروا من اللوم وما أجرت ، واستزيدوا إلى القرب وما استزدت ، ذنوبك طردتك عنهم ، وخطاياك أبعدتك منهم ، قم في الليل ترى تلك الرفقة ، واسلك طريقتهم وإن بعدت الشقة ، وابك على تأخرك واحذر الفرقة! وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد ، فإن الهدف من تدوين السيرة الذاتية (السيرة والمسيرة) عن الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، ليس ملء الأوراق وكيل الأمداح والإطراءات ، كما قد يتبادر إلى أذهان البعض. حيث إن الأمداح والإطراءات لن تُفيد الناس كثيراً. ونراها جزءاً كبيراً من أجر الممدوحين وإزهاقاً لمعالم شخصياتهم. بل الهدف منها إبراز معالم هذه الشخصية المباركة وتقديمها كما هي بدون رتوش وبدون مبالغات وبدون إطراءات ، بل كما هي بطبيعتها وبما عُرفت به وعُرف عنها. ودراسة جوانب حياتها ومسيرتها العطائية مع العمل الخيري والتطوعي ودراسة قصة الطموح العظيمة التي تتحدى الواقع. حيث إن طموحات الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله – كما سيرى القارئ كانت أكبر من الواقع الذي تعيشه. كما سنقوم بتقديم الكثير من جوانب حياتها المضيئة مع التصورات الجميلة التي كانت تؤمن بها ، وكم هي جليلة وبديعة. فمنها ما يتعلق بالماضي التليد ، ومنها ما يتعلق بالحاضر المُعاش ومنها ما يتعلق بالمستقبل المشرق. ونتناول رحلتها مع العلم والتعليم وطلبة العلم ومعاقله. ونتناول عطفها على الفقراء وحنانها على المساكين وحبها لذوي الحاجات! وبذلها لكل هؤلاء بكل ما تستطيع. ونتناول موقفها من الآفات الثلاث: (الفقر والجوع والجهل) ، كيف تنظر إليها وما تسببه في الناس من عقبات؟ وما طرق العلاج والوقاية منها؟ ونتناول فلسفة الأميرة زبيدة التي تقوم على الواقعية وتعتمد على الشريعة في آن واحد. الأمر الذي يفتقده أناس كثيرون اليوم إذ يُغلبون أحدهما على الآخر. إنها ترى تكاملية أدوار الرجال والنساء وفق المنهج الرباني والهدي النبوي ، وتركز على دور الأسرة في التربية والتوجيه. ونبين دورها في دعم قضايا المرأة المسلمة وإخراجها من ضيق التصورات إلى سعة الآفاق وفق الشرع وتقاليد الأعراب الموافقة للشرع! ولها في نهج رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في بناء الإنسان المسلم المؤمن الموحد نظرة واقعية حقة. نتناول رؤيتها القائمة على أن بناء الإنسان مقدم حتماً على بناء البنيان. إنها قصة الطموح التي تُصارع الواقع وتتحداه وتُحاول جاهدة الثبات. ونهديها في نهاية (السيرة والمسيرة) قصيدتين عربيتين أصيلتين عروبة الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر وأصالتها. فأما القصيدة الأولى فعن سيرة الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر. من البحر البسيط وقافية الباء ، وأما القصيدة الثانية فعن مسيرة الأميرة ورحلتها في الحياة. من البحر الخفيف وقافية الدال. ثم نلخص ما أبدأنا فيه القول وأعدناه ، ونجعله مسك الختام تيمناً بالآية الكريمة: (ختامه مسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). والله نسأل أن يرحمها رحمة واسعة وأن يوفق أخواتنا المؤمنات لأن يكن مثلها في العطاء والسخاء. وأن يعملن لكل ما فيه خيرهن وخير أمتهن وخير البشرية. وأن يبارك في سعيهن والتزامهن بالإسلام. وأن يثيب الأميرة على بذلها الجنة والنظر إلى وجهه الكريم. وعلى وجه العموم فإن هذه السيرة مختصرة إلى حدٍ بعيد. وتوخينا فيها الدقة نسبياً حتى تؤدي الغرض منها والهدف المنوط بها من حمل القارئين والقارئات لها على العمل بمقتضاها واستيعاب الدروس من طيّات صفحاتها ومن بين سطورها. بارك الله في سعي الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر ، وكلل جهودها بالنجاح ورزقها الفلاح والفوز بالجنة يوم تلقاه. المرأة هي نصف المجتمع بل هي ركنه وعماده الذي تقوم عليه الأمجاد والحضارات! فكما يُقال: وراء كل رجل عظيم امرأة ، وجاء الإسلام ليعطي للمرأة حقوقها وكرامتها ، فانخرطت في ميادين الحياة ، لتُقدم الخير الكثير ، والإنجازات العظيمة التي تنفع بها المجتمع ، وتصلح من

شأنه ، وفي هذا المقال نقدم نموذجاً رائعاً وواقعاً حياً لامرأة عاشت لأجل غيرها ، تقدم الكثير والكثير ، لتحقيق الخير والنفع على الإسلام والمسلمين. حديثنا عن ابنة عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد من هي؟ وابنة من تكون؟ وماذا قدمت للإسلام؟ إنّها السيدة أم الأمين أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور أول خلفاء الدولة العباسية ، و"زبيدة" لقب لها ، أطلقه عليها جدها أبو جعفر المنصور ، لأنها كانت بيضاء ونقية كالزبدة ، فنادها لتدليلها بهذا اللقب. تزوجها الخليفة هارون الرشيد في شهر ذي الحجة ، من سنة مئة وخمس وستين ، وأسكنها قصره الواسع الفسيح ، حتى كان لها من الجواري مائة جارية ، جميعهن كن يحفظن القرآن ، فيُسمع من قصرها صوت كدويّ النحل من تلك القراءة. ويرجع نسب زبيدة إلى بني هاشم ، ولقد حظيت بميزةٍ لم تكن لأحد غيرها وهي أنها الهاشمية الوحيدة التي أنجبت خليفة ، وهو الأمين محمد بن هارون الرشيد. كانت السيدة زبيدة ذكية لمّاحة ، حتى إن هارون الرشيد كان كثيراً ما يختبر ذكاءها! ففي يوم من الأيام ، جاءها وقال لها: يا زبيدة أنت طالق إن بت في ملكي هذه الليلة! ففكرت زبيدة بحزن أين ستذهب ، وكل البلاد ملكاً لأمير المؤمنين هارون الرشيد ، ثم في صبيحة اليوم التالي ، سأل الخليفة هارون عنها ، فقيل له: أنها باتت في المسجد ، ولمّا ناداها قالت له: بأنّ المسجد بيت الله وملك لله ، وليس لك منه شيء ، فأعجب بذكائها وفطنتها ، وازداد حبه لها وقد كان يحبها كثيراً ، ويلبي لها كل ما تريد! وحينما قصدت بيت الله الحرام لتؤدي فريضة الحج ؛ مرّت بطرق كثيرة ، وكلما مرّت بمكان في مكة ؛ أقامت فيه بناءً أو منبع ماءً وبرك ، أو غيرها من وجوه الخير الكثيرة التي لا زالت تنسب لها إلى يومنا هذا ، ومن المعروف أن السيدة زبيدة عملت على توسعة عيون زمزم في الحرم المكي ما نسبته عشرات الأميال ، فسقت أهل مكة كلهم دون مقابل ، بعدما كانوا يدفعون الدنانير للشرب من المياه. ومن النوادر التي حدثت بين السيدة زبيدة والخليفة هارون الرشيد ، أنهما اختلفا في يوم من الأيام على نوع من أنواع الحلوى ، أيها أشهي ، فقد اعتبرت زبيدة أن الفالوذج أطيب من اللوزينج ، وبالمقابل قال هارون الرشيد أن اللوزينج أشهى بعكس ما قالت زبيدة ، فتخاصما ، وبعثا إلى حكم بينهما ، فجاءهما أحد قضاة البلاد ، وقد كان يعرف أن أحدهما سيغضب لو نصر الآخر ، فطلب قطع حلوى من النوعين ، وظل يأكل ، فلما سئل عن أطيبهما ، قال بذكاء: كلما قررت أن أحكم لأحدكما جاء الآخر بحُجته ، وهكذا ، فكلاهما لذيذ! وهنا أعجبت زبيذة بذكائه وصرفت له مبلغاً عظيماً. ولما توفي الخليفة هارون الرشيد ، طلبت السيدة زبيدة من الخليفة المأمون ، وهو ابن زوجها ، أن يرعاها ، ويهتم بأمرها فهي تحبه من قبل أن تراه ، لما عرفت عنه من خصال طيبة. تُوفيت رحمها الله في بغداد سنة مائتين وعشرة للهجرة. زبيدة بنت جعفر يقول عنها الإمام الذهبي في سير أعلامه: (زبيدة بنت جعفر الست المحجبة: "ما كانت متبرجة ولا تظهر للرجال" مطلقاً ، وكانت عظيمة الجاه والمال ، لها آثار حميدة في طريق الحج وكان في قصرها من الجواري 100 جارية يحفظن كتاب الله رب العالمين). ويقول عنها الخطيب البغدادي: "كانت معروفة بالخير والإفضال على أهل العلم وكانت صاحبة بر على الفقراء والمساكين". يقولون: لم تحظ امرأة بما حظيت به زبيدة! فهي امرأة تعد تسعة من الخلفاء. "ابنها محمد الأمين ، زوجها هارون الرشيد ، ابن زوجها المأمون ، ابنا ابن زوجها الواثق والمتوكل ، عمها المهدي ، جدها المنصور ، عم أبيها أبو العباس السفاح ، وابن عمها الهادي". زبيدة عربية في دولة بني العباس ، تولى الخلافة 37 خليفة لم يكن منهم ابن عربية إلا ثلاث: "كلهم أبناء نساء أعاجم إلا هؤلاء الثلاثة" أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ومحمد الأمين ابنها)! فكان العرب يتفاخرون بها لأن ابنها ابن قرشية وابن قرشي. وكانت فريدة بني العباس في الفضل والعلم والتقوى

والعفاف والثقافة ، وكانت قد تمتعت بعلوم القرآن والسنة والمعارف والأدب ، وكانت شاعرة تصف رقائق الكلام. خطبها هارون الرشيد وتزوجها! وكان زواجاً عجيباً فيه إسراف وبذخ! فلقد وصلت نفقات ذلك الزواج 55مليون درهم! لكن جزء منها عمل الولائم لكل الناس في بغداد ولكن كان إسراف وزينة "لقد كانت زبيدة صاحبة موضة شرعية وهي التي غيرت الملابس في زمانها. يصف الإمام الذهبي زوجها هارون الرشيد: "أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ، وكان ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي ، وكان يحب العلماء وكان كثير الإنفاق والصدقة يعظم حرمات الدين ويبغض الجدال في الكلام". هي زبيدة بنت جعفر ابن المنصور ، فجدها أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي ، ويقولون عنها: "عباسية هاشمية قرشية"! ولدت في الموصل ، وقذف الله سبحانه وتعالى محبتها في قلب جدها أبي جعفر المنصور ، فلقد كان يحبها حباً شديداً ، وهو الذي أطلق عليها اسم زبيدة ، وسماها زبيدة لبياضها ونضارتها ، تنقلت من شرف حسيب إلى كرم مجيد إلى سؤدد وفضل إلى عز وعشيرة ونسب عظيم ومجد تليد. ومن دعائها: "لا إله إلا الله ، أفنِي بها عمري! لا إله إلا الله ، أدخل بها قبري! لا إله إلا الله ، أخلو بها وحدي! لا إله إلا الله ، ألقي بها ربي! لا إله إلا الله ، يُغفر بها ذنبي!" كتب الكثير من الشعراء قصائد مدح لتلك السيدة العظيمة ، وكان لها مواقف كثيرة منها ما يعرف بموقف (النخوة) يوم سرقها أحد من كان يتاجرون في أموالها في200 ألف! قالوا عنها أنها بلغت من المفاخر كل فخر ، وجاوزت الكلام فلا كلام! إذا نزلت منازلها قريش ، نزلت الأنف منها والسنام! تقى وسماحة وخلوص مجد ، إذا الأنساب أخلصت الكرام! وإذا مر إنسانٌ بقصرها قال: ما هذا الصوت الغريب القادم من قصر أمير المؤمنين هارون الرشيد؟ إنه صوتٌ يشبه دَوِيَّ النحل ، تعالَ نقترب من القصر ، ها قد اتضح الصوت: إنهن جوارى زبيدة زوجة الخليفة ، يحفظْنَ ويرتلْنَ القرآن الكريم. كانت زبيدة تتمنى بينها وبين نفسها أن تتزوج من ذلك الشاب اليافع ، وها قد تحقق حلمها الذي كانت تحلم به ، فأنصتْ. استمعْ جيدًا. تُرَى ما هذا قد عاد ابن عمها هارون الرشيد مع أبيه الخليفة "المهدى" من ميدان المعركة بعد أن حققا النصر على الروم ، وستكون الفرحة فرحتين ، فرحة النصر ، وفرحة الزواج من هارون ، نصبت الزينات وأقيمت الولائم التي لم يشهدها أحد من قبل فى بلاد العرب ، وازينت زبيدة بالحُلي والجواهر ، والمسك والعنبر ، والروائح الطيبة تنتشر فى مكان العرس ، والناس مسرورون بهذا الزواج المبارك. وتزوجت زبيدة من هارون الرشيد ، فملأ الحب قلبيهما ، واستطاعت بذكائها ولباقتها أن تزيد من حُبه لها حتى أصبح لا يطيق فراقها ولا يملُّ صحبتها ، ولا يرفض لها طلبًا. ومرت الأيام ، وأنجبت زبيدة من هارون الرشيد ابنها "محمدًا" الأمين وقد أحبته كثيرًا ، وكانت شديدة العطف عليه والرفق به ، لدرجة أنها بعثت ذات يوم جاريتها إلى الكسائي مؤدبه ومعلمه ، وكان شديدًا عليه ، تقول له: "ترفق بالأمين فهو ثمرة فؤادي وقرة عيني". وتولى هارون الرشيد الخلافة ، فازداد الخير في البلاد ، واتسع ملكه ، لدرجة جعلته يقول للغمامة حين تمر فوقه: "اذهبي فأمطري أَنَّى شئت ، فإن خراجك سوف يأتى إلىَّ". ورأت "زبيدة" زوجة خليفة المسلمين أن تساهم في الخير ، وفي إعمار بلاد الإسلام ، فحين حجت إلى بيت الله الحرام سنة 186هـ ، وأدركت ما يتحمله أهل مكة من المشاق والصعوبات في الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها ، وأمرته أن يجمع المهندسين والعمال من أنحاء البلاد ، وقالت له: اعمل ولو تكلَّفتْ ضَرْبةُ الفأس دينارًا. وحُفر البئر ليشرب منه أهل مكة والحجاج ، وعرف بعد ذلك ببئر زبيدة. ولم تكتفِ زبيدة بذلك ، بل بَنَتْ العديد من المساجد والمباني المفيدة للمسلمين ، وأقامتْ الكثير من الآبار والمنازل على طريق بغداد ، حتى يستريح المسافرون ، وأرادت زبيدة أن تولى ابنها الأمين الخلافة بعد أبيه ، لكن هارون الرشيد كان يرى أن المأمون وهو ابنه من زوجةٍ أخرى أحق

بالخلافة لذكائه وحلمه ، رغم أنه أصغر من الأمين ؛ فدخلت زبيدة على الرشيد تُعاتبه وتُؤاخذه ، فقال لها الرشيد: ويحك ، إنما هي أمة محمد ، ابنك ليس أهلاً للخلافة ؛ فقد زينه في عينيك ما يزين الولد في عين الأبوين ، فاتَّقى الله ؛ فوالله إن ابنك لأحب إليّ ، إلا أنها الخلافة لا تصلح إلا لمن كان أهلاً لها ، وعلى الرغم من ذلك فقد عهد بولاية العهد لابنه "محمد الأمين" ، ثم للمأمون من بعده. وحين دخل المأمون بغداد بعد مقتل الأمين ، وكان صراع قد شب بينهما حول منصب الخلافة استقبلتْهُ ، وقالت له: أهنيكَ بخلافةٍ قد هنأتُ نفسى بها عنكَ ، قبل أن أراكَ ، ولئن كنتُ قد فقدتُ ابنًا خليفةً ؛ لقد عُوِّضْتُ ابنًا خليفة لم أَلِدْه ، ولا ثكلتْ أم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ ، وإمتاعًا بما عَوّض. فقال المأمون: ما تلد النساء مثل هذه. وماذا أبقت فى هذا الكلام لبلغاء الرجال. ورأت "زبيدة" زوجة خليفة المسلمين أن تُساهم في الخير ، وفي إعمار بلاد الإسلام! والحقيقة أن الرشيد قد خص بهذه المرأة الصالحة لسر بينه وبين الله تعالى! قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: (الدُّنيا متاعٌ ، وخيرُ متاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ) ، فإنّ الزوجة هي العنصر المهم والفاعل في كيان الزوجية الناجحة ، ولا بدّ من تحقّق صفات تضمن صلاحها! فبتحقّقه يصلح بيتها ، ويعمّ فيه الخير والبركة ، ومن هذه الصفات: زوجةٌ مطيعةٌ ، فالزوج هو رُبّان سفينة الحياة الزوجية ، ولا بدّ لسير السفينة بأمان أن يُبذل السمع والطاعة لهذا الرُبّان ، قال الله تعالى: (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ) زوجةٌ مؤمنةٌ مستقيمةٌ ، تعرف حدود الله ، وتحكُمها شريعته ، وتُعين زوجها على التزام أوامر الله ، واجتناب نواهيه. زوجةٌ ترعى بيت زوجها ، وتقوم بحقّه وحقوق بيته ، حيث قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: (والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ ، وهي مسؤولةٌ عنهم). زوجةٌ مثقفةٌ واعيةٌ ، مطّلعةٌ على ما يحدث من أحداثٍ ومستجدات. زوجةٌ تتودّد لزوجها ، وتحبّه ، وتشاركه في اتخاذ القرارات ، وتساهم في تحمّل المسؤولية معه. زوجةٌ تتمتع بخلقٍ طيبٍ ، وروحٍ مرحةٍ ، وتتعامل مع زوجها وأولادها بصبرٍ وحِلمٍ وأناةٍ. زوجةٌ تهتم بنظافتها ، ونظافة بيتها وأولادها ، لتسُرّ زوجها إذا نظر إليهم. زوجةٌ تُوازن بين جميع شؤون حياتها الزوجية ، وتقوم بواجباتها على أكمل وجهٍ ، دون تقصيرٍ أو تفريطٍ. ولقد كانت زبيدة الأميرة العباسية الهاشمية القرشية هكذا فيما يبدو للعيون ، والله تعالى حسيبها ووكيلها! فلقد كانت عوناً لهارون على أمر دينه ودنياه! غفر الله لها ورحمها رحمة واسعة وتقبل عنها صالح أعمالها وأسكنها فسيح جناته! وأنا اليوم إذ أقوم بهذا العمل الأدبي المحض ، فلست أرجو من الأميرة زبيدة مالاً على ذلك وقد رحلت عن الدنيا! إن هو إلا تقديم امرأة وعرض سيرتها لتكون قدوة لبناتنا ونسائنا في زمان انعدمت فيه القدوات! في زمان حلت الممثلاتُ والراقصاتُ والمطربات واللاعباتُ محل العقائل المؤمنات الموحدات من ربات العلم والدين والأدب! لقد شغلنا عن أمثال زبيدة بنساء لا خلاق لأغلبهن ولا علم أثِر عن أغلبهن ولا دين ولا تقوى ولا أدب! إنني إذ أقدم هذه السيرة الذاتية للأميرة زبيدة بنت جعفر فمن باب: (هاؤم اقرأوا كتابيه!) إن لي الفخر أن أقدم هذه السيرة والمسيرة نثراً وشعراً وأدباً لتكون نبراساً يُضيء حنادس الظلم ودياجير الجاهلية! ويقدم الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة لبناتنا ولنسائنا ، ليأتسين بها في تدينها وأخلاقها وأدبها وحجابها وتصدقها وحزمها وحكمتها ونجدتها ومروءتها. رحمك الله يا (زبيدة) وطيب ثراك ونور قبرك وآنس وحدتك ، ولا حرمنا أجرك ولا فتننا بعدك ، وغفر لك ذنبك ، وجعل مثواك الجنة! والله ـ سبحانه وتعالى وعز وجل ـ يقول الحق وهو سبحانه يهدي السبيل!

الافتتاحية

الحمد لله سبحانه وتعالى المنزه عن الأشباه في الأسماء والأوصاف ، المقدّس عن الجوارح والآلات والأطراف ، خضعت لعزته الأكوانُ وأقرتْ عن اعتراف ، وانقادت له القلوب وهي في انقيادها منه تخاف ، أنزل القطر فمنه الدر تحويه الأصداف ، ومنه قوت البذور يربي الضعاف ، كشف للمتقين اليقين فشهدوا ، وأقامهم في الليل فسهروا وشهدوا ، وأراهم عيب الدنيا فرفضوا وزهدوا ، وقالوا: نحن أضياف ، وقضى على المخالفين بالبعاد فأفاتهم التوفيق والإسعاد ، فكلهم هام في الضلال وما عاد (واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف)! أحمده على ستر الخطايا والاقتراف ، وأصلي على رسوله محمد الذي أنزل عليه قاف ، وعلى صاحبه أبي بكر الذي أمن ببيعته الخلاف ، وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف ، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النظاف ، وعلى علي بن أبي طالب محبوب أهل السنة الظراف ، وعلى عمه العباس مقدم أهل البيت والأشراف ، أبو سيدنا ومولانا عبد الله حبر الأمة وترجمانها ، بلغه الله ما رجا في الدنيا وأمنه ما يخاف! وأصلي علي جميع التابعين والأسلاف! يا من يبارز مولاه بما يكره ، ويخالفه في أمره آمنًا مكره ، وينعم عليه وهو ينسى شكره ، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة ، يا من قبائحه ترفع عشيًا وبكرة ، يا قليل الزاد ما أطول السفرة ، والنقلة قد دنت والمصير الحفرة ، متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ ؟ أما تحذر من أوعد وهدد؟ أما تخاف من أنذر وشدد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلود تشهد؟ يا سكران الهوى وإلى الآن ما صحا ، يا مفنياً زمانه الشريف لهواً ومرحاً ، يا معرضاً عن لوم من لام وعتب من لحا ، متى يعود هذا الفاسد مُصلحا؟ متى يرجع هذا الهالك مُفلحا؟ لقد أتعبت النصحاء الفصحاء! أما وُعظمت بما يكفي؟ أما رأيت من العبرة ما يشفي؟ فانظر لنفسك قبل أن يعمى الناظر ، وتفكر في أمرك بالقلب الحاضر! ولا تساكن الفتور فإنك إلى مسكن القبور صائر ، فالحي للممات والجمع للشتات والأمر ظاهر! والديوانُ في عمومه زادُ كلِّ منافح عن العقيدة ، وإن أبى له الحاقدون أنْ يكونَ كذلك. إنني وبعد أن أهديت هذه السيرة والمسيرة لأبي الذي تعلمتُ منه الجدَّ والاجتهادَ والكفاحَ وعدمَ اليأس ، أبي سببُ الوجود في الحياة فداه نفسي ومالي: أنت ومالك لأبيك ، وأسألُ اللهَ أنْ يُصلحني وإياه ، وأنْ يرده وإياي للحق المبين ، وبعد أن أهديته لأبي الأندلس الذي حرصت على إيصال الحق له فأبى إلا البعد والانزواء ، ولا تزال قضية تَميُزه قضيةً غامضة ، والله غالبُ على أمره ، وبعد أن أهديته لكل متسرع متهور في حُكمِه على الأشياء والناسِ بغير هُدىً من الله ولا كتاب منير. هذا ، وأسأل اللهَ أنْ يهدينا جميعاً سَواءَ السبيل. وبعد أن أهديته لأم عبد الله والأشبال الثمانية: عبدِ الله ، وعبدِ الرحمنَ وعمرَ الفاروق ويوسف الصديق وصلاح الدين وسيف الإسلام وحسان وفاطمة ، أصلَحهم الله جميعاً ، واللهُ يقولُ الحقَ وهُو سبحانَهُ يَهدي السبيل. أقول بكل صدق أنني بعد أن أهديت سيرة ومسيرة زبيدة بنت جعفر بن المأمون لمن أسلفت ، وافتتحت معهم هذه السيرة وتلك المسيرة فكلي أمل ألا يهملوها ، بل يجتهدون في نشرها وحث الآخرين والأخريات من حولهم على العمل بما حوت من الخير! قال ابن القيم في الصدق والصادقين ووجوب تحري الصدق واتباع الصادقين: "إن صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده! بل ما أعطي عبدٌ عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما ؛ بل هما ساقا الإسلام ؛ وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم ، ويصير من المنعم عليهم الذين حسُنتْ أفهامهم وقصودهم ؛ وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا

صراطهم في كل صلاة ؛ وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد ، يميز به بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، ويمده حسن القصد ، وتحرى الحق ، وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق ، وترك التقوى". وعلى المسلم قبول الحق ممن جاء به. "على المسلم أن يتبع هدى النبي صلى الله عليه وسلم في قبول الحق ممن جاء به من ولي وعدو ، وحبيب وبغيض ، وبر وفاجر ؛ ويرد الباطل على من قاله كائنا من كان". والحقيقة أن الصادق يرزقه الله مهابة وإجلالاً. "وأقوى الأسباب في رد الشهادة والفتيا والرواية الكذب ؛ لأنه فساد في نفس آلة الشهادة والفتيا والرواية ، فهو بمثابة شهادة الأعمى على رؤية الهلال ، وشهادة الأصم الذي لا يسمع على إقرار المقر ؛ فإن اللسان الكذوب بمنزلة العضو الذي قد تعطل نفعه ؛ بل هو شر منه ؛ فشر ما في المرء لسان كذوب ؛ ولهذا يجعل الله سبحانه شعار الكاذب عليه يوم القيامة وشعار الكاذب على رسوله سواد وجوههم ؛ والكذب له تأثير عظيم في سواد الوجه ؛ ويكسوه برقعاً من المقت والغضب يراه كل صادق ؛ فسيما الكاذب في وجهه ينادى عليه لمن له عينان ؛ والصادق يرزقه الله مهابة ووقاراً وجلالة ؛ فمن رآه هابه وأحبه ، والكاذب يرزقه إهانة ومقتاً ؛ فمن رآه مقته واحتقره").هـ. ومن هنا تحريتُ الصدق والصادقين من الشعراء والأدباء والنقاد! وركزتُ في جُل شعري على قضية التوحيد والعقيدة باعتبارها أصل الوجود وسببه. (وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون). (أي إلا ليوحّدوني وليفردوني بالألوهية والعبادة). ، أما بعد ، فأفتتح سيرة: (الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج هارون الرشيد بن المهدي) بكل الحب والإخلاص على درب الإيمان والإسلام وصادق الشعر وتقيه! وكنتُ أتمنى أن يقوم بتقديمه للقراء الأعزاء أحد الجهابذة العباقرة من الراسخين في معرفتي ، ولكنها إرادة الله أن يُغيَّب الثرى بعضهم ، وينشغل البعض الآخر بالحياة والأحياء بالقدر الذي لا يدع مجالاً لما أطلبه! وقد استدار الزمان فلم يعد للعلم مكان! فالكاتب القيمي اليوم يكتب ويُهدي ويُقدم ويَفتتح ، ولا يكاد يجد من أهل فن كتابته من يقيّم أو يقوّم أو يقدّم أو ينقد أو يصحّح! ومن هنا قدمت خالص شكري لمن تفضل عليَّ وعلى شعري وتصدق عليَّ وعلى شعري ببعض وقته! سائلاً الله العلي القدير أن ينفعهم به في الدنيا والآخرة! وأرى هذه السيرة النقدية للأميرة (زبيدة) جزءًا لا يتجزأ من تركتي الحقيقية لأبنائي وأحفادي من رصيد القيم والأخلاق والفضائل والآداب! أبنائي إن كثيراً من الآباء والأمهات يتركون لأبنائهم المال عينياً أو نقدياً! ولست أنكر ولا تنكرون أنني أموت يوم أموت وقد خلفت لكم المال (عيناً أو نقداً) كما خلف غيري! ويبقى جزءٌ من الإرث المعنوي: (سيرة زبيدة): تلك السيرة التي تثبت للعالم أجمع أن الخير في أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – لا ينقطع! وتبين للدنيا أن نساء الإسلام الفضليان كن ومازلن وسيظللن – جنباً إلى جنب – شقائق الرجال في مسيرة الدعوة وإعادة شأن الأمة الوسط ، وإعادة هذا الدين إلى الحياة والواقع المعاش من جديد! من أجل ذلك كله قدمتُ الأميرة زبيدة بنت جعفر نموذجاً فذاً فريداً حياً لهذا النوع من النساء!

(ما هي السيرة الذاتية؟)

كثيرٌ منا سمع عن السيرة الذاتية! وكثيرٌ منا علم أن الشخص قد يُعِد سيرته الذاتية بنفسه ويضع فيها من المعلومات عن نفسه ما الله به عليم! وتبقى المصداقية بينه وبين ربه! ومن هنا وجب على من يطالع سيرة ذاتية كتبها زيد أو عمر عن نفسه أن يتحرى الدقة والتمحيص في قبول المعلومات التي يتلقاها! أما إذا كتب زيد عن عمر فإن الأمر مختلف تمام الاختلاف! حيث إن الكاتب يُغلب هنا النزعة التي من أجلها صاغ السيرة الذاتية! فإن كان محباً وجدنا المدح والإطراء ، وإن كان كارهاً وجدنا القدح والبغضاء! وبعض السير الذاتية تأخذ الصبغة المحلية وبعضها يخرج إلى العالمية! إن السيرة الذاتية تنتشر كتبها حول العالم ، وتنال القدر الأكبر من عناية القرّاء والمهتمين ، حيث تُؤكد الإحصاءات أنّ كتب السيرة الذاتيّة للمشاهير هي الأكثر مبيعاً في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، وأوروبا ، خاصّة أوروبا الغربية. يتجه القرّاء إلى السير الذاتية لعِدة أسباب أهمها استكشاف الحقائق التي كانت مجهولة عن حياة أصحاب السير لفترة طويلة من الزمن ، تلك المليئة بالتشويق والمتعة والإثارة بالنسبة للقارئ ، خاصّة مع معرفته أنّ الأحداث حقيقيّة ، وليست من خيال المؤلف ، كما هو الحال بالنسبة للروايات. ولقد كان أول كتاب يوضع في السيرة الذاتية ما كتبه جان جاك روسو بعنوان اعترافات ، وقد لاقى قدراً كبيراً من النجاح في قارّة أوروبا وخارجها لمساهتمه في تحريك مشاعر القرّاء نحو المكاشفة ومحاسبة النّفس ، وانتقلت السيرة الذاتية إلى اللغة العربية على يد طه حسين بوضعه كتاب الأيام. وأما عن مفهوم السيرة الذاتية في الأدب أو تعريف السيرة الذاتية ، فالسيرة في اللغة العربية هي الطريقة والسنّة والمنهج ، وحالة الشخص ووصفه وسط الناس ، فيقال: إن فلاناً سيرته حسنة كإشارة إلى حسن خلقه وفعله ، أمّا من حيث المصطلح ، فإنّ السيرة الذاتيّة هي أحد الأنواع الأدبيّة التي يعتمد كاتبها على انتقاء الأحداث الحقيقيّة وترتيبها وعرضها بصورة شيّقة وفنيّة ، لكن دون تزييف أو محاولة خلط للحقائق. تعد السيرة النبوية في تاريخ الأدب العربي من أول كتابات السيرة قاطبة ، ولكنّها تختلف في كونها سيرة غيريّة ، أي كتبها شخص غير صاحبها ، وفي المرحلة الراهنة فإنّ أصحاب السير من المشاهير يعهدون بالكتابة والصياغة إلى أحد الكتاب المتمكنين بعد إعطائهم المعلومات اللازمة. وأما عن تاريخ السيرة الذاتية الأدبية ، فترجع أصول كتابة السيرة الذاتية إلى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو ، حينما أصدر كتابه الاعترافات كما أسلفنا في ذلك القول في عام ألف وسبعمائة ، وتبعه العديد من الكتاب والمفكرين في أوروبا ، حتى انتقلت كتابة السيرة إلى اللغة العربية على يد أحمد فارس الشدياق ، ولكنّه أصدر كتابه في باريس في عام ألف وثمانمائة وخمسة وخمسين. وأصدر عبد الرحمن شكري في ألف وتسعمائة وستة عشر سيرة ذاتية أسماها الاعترافات في مدينة الإسكندريّة ، ومع ذلك يعد طه حسين رائد كتابة السيرة الذاتية العربيّة بإصداره كتاب (الأيام) الذي عُد الأشهر في الأدب العربي المعاصر ، ومن بعده أصدر العديد من الأدباء والمفكرين سيرهم الذاتيّة كأحمد أمين ، وإبراهيم المازني ، وعباس محمود العقاد ، كما قامت نازك الملائكة برواية سيرتها الذاتيّة للكاتبة حياة شروات التي نشرتها بعنوان سيرة من حياة نازك الملائكة. ولنا أن نتساءل ما هو تاريخ السيرة الذاتية؟ إن فن السيرة الذاتية من الفنون الأدبية الحديثة ، لكن ذلك لا ينفي وجود جذور لهذا الفن في الأدب العربي القديم ؛ فالكثير من الدراسات تؤكد على وجود أصول وجذور للسيرة الذاتية في التراث العربي مثل كتاب (الاعتبار) لأسامه بن منقذ ، وكتاب (التعريف) لابن خلدون. وبالرجوع إلى الشعر الجاهلي ؛ نجد أن الشعراء قد عبروا عن ذواتهم في أشعارهم ، فالشاعر الجاهلي «أطنب في الحديث عن

نفسه ، ووصف مشاعره وصور أمجاده وأمجاد قبيلته». وما ذكره الشعراء الجاهليون في قصائدهم ، ليس كل حياتهم ، وإنما هو جزء من هذه الحياة ، وطبيعة الإنسان العربي تأبى عليه كشف كل خصوصياته وأسراره. من هنا كان الأديب العربي بعد ظهور الإسلام يحرص على عدم إفشاء ما تفتعل به نفسه من خوالج ومشاعر ، ويسعى إلى الحفاظ على ما تُكِن به نفسه من أسرار. وإذا بحثنا عن جذور السيرة الذاتية في العصر الإسلامي فإننا نجد حديث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ الذي رواه عن نفسه «وقد أورد هذه القطعة الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد ، وأسندها إلى ابن عباس تحدث سلمان الفارسي في هذه القطعة من السيرة الذاتية عن نسبه....وتعد هذه القطعة هي أول بذرة للسيرة الذاتية غرسها سلمان الفارسي في القرن الأول الهجري». كما أن كتاب الأغاني قد اشتمل على قطع من السيرة الذاتية ، وفي كتابات الجاحظ اعتناء بحياته وسيرته ، وبإمكان الباحث استخراج أكثر الخيوط عن حياة الجاحظ من كتبه ورسائله. ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن الأدب العربي القديم قد عرف السيرة الذاتية من دون تحديد مصطلحها الحديث ، أو المقومات الفنية الحديثة لهذا الجنس الأدبي. ويترتب على ذلك بُطلان ادعاء جورج ماي وشكري المبخوت ؛ فهما لا يعترفان بوجود أصول فن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ، وزعم ماي أن السيرة الذاتية شكل تعبيري خاص بالثقافة الغربية! وهذا زعم مرفوض ؛ فالسيرة الذاتية فنٌ له أصوله وجذوره في الأدب العربي القديم مثل كتاب الاعتبار لأسامه بن منقذ ، وكتاب التعريف لابن خلدون. ومع أن الأدباء العرب قلدوا الغربيين في طريقتهم في نظم السيرة الذاتية ، لكنهم تأثروا بالتقاليد الموروثة للأدب العربي ؛ فالشدياق سيطرت عليه التراكيب العربية الموروثة عند كتابة سيرته الذاتية ، ولم يتخل عن أسلوب المقامة ، ولكن سيرة رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك ، لا تختلف عن السيرة الذاتية التي خلفها علماء العرب منذ القديم. وإذا كان البعض يرى أن التأثر بالنموذج العربي القديم كان في الشكل ؛ فإن يحيي عبد الدايم يرى أن تأثر الأدباء العرب بالنموذج الغربي للسيرة الذاتية كان في المضمون ، وذلك «لما يحمله من إشارات إلى الجديد من الفكر والأدب والثقافة ، وتنبيه الأذهان إلى أنماط جديدة من الحياة في الغرب ، تختلف عن تلك التي نحياها في الشرق» ، أي أن السيرة الذاتية العربية الحديثة تأثرت بالشكل العربي القديم ، والمضمون الغربي الحديث. وتعد سيرة طه حسين من أشهر السير الذاتية العربية الحديثة ، وقد عدّها الباحث إحسان عباس أول سيرة ذاتية عربية بالمعنى الفني الحديث ؛ فيقول: «للأيام في السيرة الذاتية الحديثة مكانة لا تتطاول إليها أي سيرة ذاتية في أدبنا العربي ، وخاصة في الجزء الأول منه ، لمزايا كثيرة منها ، تلك الطريقة البارعة في القص ، والأسلوب الجميل ، والعاطفة الكامنة في ثناياه المستعلنة أحياناً حتى تطغى على السطح ؛ وتلك اللمسات الفنية في رسم بعض الصور الكاملة للأشخاص ، والقدرة على السخرية اللاذعة في ثوب جاد حتى تظهر وكأنها غير مقصودة». أما العقاد فقد استخدم في سيرته أسلوب الحجاج العقلي ، وعالج الأفكار معالجة فلسفية منطقية ؛ فكانت السيرة أقرب إلى البحث العلمي منها إلى العمل الأدبي. وأما سيرة أحمد أمين فهي طريفة في الوصف ، صادقة في اللهجة التي صِيغت بها ، ولكن الكاتب أخفى الكثير من جوانب حياته ونفسه ، ولعل ذلك مرجعه حياؤه الشديد ، فقلما انفعل بما رأى أو شاهد. ولم تقتصر السيرة الذاتية على سير الأدباء الذكور ؛ فكان للمرأة العربية إسهام في كتابة السيرة الذاتية ، ومن السير الذاتية النسائية الشهيرة كتاب «على الجسر بين الحياة والموت» لبنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن ، وسيرة فدوى طوقان في كتاب «رحلة جبلية...رحلة صعبة» وسيرة زينب الغزالي في كتاب «أيام من حياتي» ، والكاتبة الكويتية ليلى العثمان التي طرحت سيرتها الذاتية في كتاب «المحاكمة مقطع من سير الواقع». حتى قال بعضهم: (إن السيرة الذاتية في الأدب العربي المعاصر

نصوص مبتورة ترهقها التابوهات). يقول حسين حمودة أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة: "إن أدب السيرة الذاتية فن أدبي يقوم على الانتقاء لمواقف من الحياة الشخصية للكاتب الذي يكتبها عن نفسه ، وحيث يحاول الكاتب عرض ما يعتبره أجزاء هامة من مسيرته الشخصية سواء على المستوى الشخصي أو المهني ، وقد يقوم الكاتب بذلك بنفسه مباشرة أو يقوم شخص آخر بكتابة سيرته الذاتية بالنيابة عنه من خلال تحويل ما تسرده الشخصية صاحبة السيرة الذاتية عن نفسها إلى نص أدبي مكتوب". ويشير حمودة إلى وجود اختلاف بين أدب السيرة الذاتية وبين أدب الاعترافات ، معتبراً أن أدب الاعترافات معروف بشكل أكبر في الغرب ، لأن العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في العالم العربي تضع الكثير من القيود على ظهور هذا النمط الأدبي القائم على البوح ، وفي شكل من أشكال الأدب يعترف فيه صاحب شخصية السيرة الذاتية عن نفسه بجوانب من حياته قد تكون محرجة ، أو قد تتضمن أموراً خاصة من حياته يصعب البوح بها في المجتمعات التي تتميز بتقاليدها المحافظة. ويشاطره الرأي خيري دومة ، أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة ، والذي يشير إلى إشكالية كبيرة تتعلق بأدب السير الذاتية في العالم العربي ، وهو أن هذا النوع من الأدب لا يزال يحتجب وراء ستار العادات والتقاليد المحافظة في الشرق وخاصة في المجتمعات العربية والإسلامية ، وأن الأديب العربي أو حتى المشتغل بالعمل العام من غير الأدباء عندما يُقدم على كتابة سيرته الذاتية ، فإنه لا يستطيع البوح بكل ما مر به من حياته ، خاصة ما يتعلق بحياته الشخصية وعلاقاته الخاصة ، أو ما يتعلق بأسرته ، سواء أسرته التي نشأ فيها ، أو أسرته التي كونها بعد الزواج ، وحيث يعتبر لويس عوض هو أشجع من كتب سيرة ذاتية باللغة العربية من بين معظم الكُتاب العرب ، على الرغم من أن سيرته الذاتية التي كتبها تظهر أنه كان حريصاً على حجب مساحات هامة من حياته الشخصية وتفاصيل علاقاته الخاصة. أما الروائي إبراهيم عبد المجيد فيرى وجود صعوبات كثيرة تعوق كتابة أدب السيرة الذاتية في العالم العربي ، وذلك بسبب الوطأة الشديدة للعديد من القوانين والأعراف والتقاليد الاجتماعية ، ونفس الأمر يتعلق بكتابة المذكرات الشخصية ، حيث إن الكاتب لا يقدم النموذج الإنساني مجرداً ، ولكن باعتباره صاحب رأي ووجهة نظر في قضية معينة ، ولذلك جاءت معظم كتابات السير الذاتية مبتورة لإخفاء الموقف السياسي والاجتماعي للكاتب ، حتى في أعمال كبار الكتاب مثل العقاد وطه حسين. وهذا القصور يحول بالطبع دون أن تصبح مثل هذه الأعمال شهادات تاريخية. ولذلك سوف يظل هامش كتابة السيرة الذاتية ، خاصة في الحقل الإبداعي ، ضيقاً ما دامت هذه القوانين والأعراف والتقاليد الاجتماعية موجودة. وتبقى الرواية هي الطريق الوحيد للهروب أمام الأدباء. وإذن فالمذكرات الخاصة والسير الذاتية تصبح بهذا الاعتبار مادة للمؤرخ إذا استطاع كاتبها أن يتجاوز حياته الخاصة فيسجل الحياة العامة. والناقدة لنا عبد الرحمن التي أعدت أطروحة دكتوراه عن أدب السيرة الذاتية ، تقدم وجهة نظرها معتبرة أن الأدب العربي يحتاج إلى هذا النوع من الكتابة سواء من رجال السياسة ، أو من المفكرين أو من الأدباء ، حيث تقول: "تنتشر كتابة السير الذاتية والمذكرات الشخصية في الغرب انتشاراً كبيراً ، ونلاحظ أن معظم السياسيين الذين كانت لهم تجربة مؤثرة في السياسة سواء نحو وطنهم أو نحو بلدان أخرى سرعان ما يبدأون في كتابة مذكراتهم ، معتبرين أن ما يكتبونه شهادة مهمة للتاريخ ، ومن المؤكد أن المذكرات المسرودة تحمل وجهة نظر شخصية إلى حد كبير مهما كانت محاولات الكتابة موضوعية ، وهذا أمر بديهي في كل كتابة شخصية ، لكن فكرة تقصي حقيقة المكتوب من عدمها سوف تُترك للمؤرخ وللقارئ أيضاً ، وللمقارنات الزمنية بين ما حدث وما قيل". وتتابع قائلة: "في عالمنا العربي أتمنى أن تكون هناك جرأة نادرة وإقبال على مثل هذه التجارب ، لأن الكثير من الأمور تظل طي الكتمان ولا

يكشفها التاريخ إلا بعد سنوات طوال ، أو أنها تظل خفية. تحتاج الأجيال الشابة إلى قراءة أدب الاعترافات والمذكرات واليوميات ، ومن خلال كل هذا يمكنها المقارنة والحكم حول المضمون. لكن أن تحدث الكتابة أولاً ، من المرجح أن هذا لن يحدث بسهولة بسبب التابوهات الكثيرة الموجودة في المجتمعات العربية".
ومن ناحيته يقول أحمد عبد الرزاق أستاذ التاريخ الحديث: "المذكرات الخاصة والسير الذاتية تصبح مادة للمؤرخ إذا استطاع كاتبها أن يتجاوز حياته الخاصة فيسجل الحياة العامة من حوله ، وأن يرتبط بالأحداث التاريخية شريطة أن يكون كاتب المذكرات أو السيرة الذاتية ممن عاصروا هذه الأحداث ، أو شاركوا في صنعها ، لأنهم بذلك يستطيعون أن يرصدوا الحقائق بدقة. ويبقى الفرق بين كاتب المذكرات والسيرة الذاتية والمؤرخ في طريقة تناول كل منهم لوقائع التاريخ وأحداثه ، فإذا كان الأديب يضعها في قالب فني ، وكاتب المذكرات يكتبها من زاوية مدى تأثيرها على حياته وتشكيل شخصيته ، تجد المؤرخ يعنى بالأحداث لذاتها وما ترتب عليها من نتائج يغلب عليها الطابع العام". ويتساءل أقوام: (هل يعد الخوض في فكرة كتاب حول السيرة الذاتية للكاتب العربي أمراً بعيد الاحتمال؟) والجواب: يبدو أن للرفض أسباباً ومسببات ، رغم أن تاريخ الأدب العربي يحفل بأسماء - وإن كانت قليلة - قدّمت هذا النوع من الفن الإبداعي كـ"الأيام" للمصري طه حسين ، و"هذا ما حدث" لليبي علي فهمي خشيم ، و"رحلة جبلية ، رحلة صعبة" للفلسطينية فدوى طوقان ، و"حياتي" للمصري أحمد أمين. وصحيفة "العرب" استطلعت رأي بعض النقاد والروائيين من العراق ومصر حول الدوافع التي تجعل من الكتاب العرب يبتعدون عن كتابة سيرهم الذاتية ، فكان هذا التحقيق. ومن هنا كان ابتعاد كتاب الرواية العربية عن الخوض في سيرهم الذاتية إلا لماماً ، وربما هذا ما دفع القارئ العربي إلى قراءة سير حياتية لكتّاب عالميين مشاهير ، حملت إخفاقات ونجاحات الكاتب الإنسان بعيداً عن الشهرة ، ولكن هل يمكننا الإقرار بأن ابتعاد الكاتب العربي عن كتابة سيرته متعلق بتقاليد مجتمعاتنا العربية التي تطال الرجال والنساء؟ وهل يترك الكاتب العربي الباب مواراباً حول موضوع السيرة متجهاً إلى الرواية ، مُصِرّاً طوال الوقت على أن ما يكتبه مجرد أحداث روائية فقط ، ولا علاقة تربطها بشخوصها؟ هذا ، ويقول الناقد العراقي عبد الله إبراهيم: "أدب الاعتراف موجود ، وفي مقدمته السيرة الذاتية ، يتلقّى إمّا بوصفه جملة أسرار ، وإما على أنّه مدونة فضائح ينبغي التستر عليها ، فسوء الظن يتربص بالكتّاب والقراء على حدّ سواء ، ولا غرابة في أن نجد ندرة فيه (في أدب الاعتراف) في الأدب العربي قديمه وحديثه ، فلا يقبل الكاتب البوح بالجوانب الشخصية الخاصة ، فالخوف يعمق رغبته في الصمت ، فيتجنب الكاتب ذكر الوقائع الصريحة ، ويطمر ذلك في طيّاته الخفية تزييفاً للتاريخ الشخصي ، ويجعل من خداع الذات سلوكاً مقبولاً ، فتتوارى الوقائعُ المهمة في حياة الكاتب ، وهذا يخالفُ وظيفة أدب الاعتراف وهي استبطان المناطق المخفية من حياة الأشخاص". ويقر إبراهيم بأن أدب الاعتراف مازال مبعداً عن السياق الرسمي للأدب العربي ، وفي الكثير من الأحيان يُوصمُ المعترف بأنه شخص غدر بمجتمعه ، وتنكر له بأن فضّل اختياراً فردياً تاركاً الجماعة خارج اهتمامه ، أو أنّه فضح البطانة الخفية المسكوت عنها. ويضيف: "أدب الاعتراف محطّ شبهة وموضع ارتياب ، لأن الجمهور لم يتمرس بقبول الحقائق ، فيرى في جرأة الكاتب على كشف المستور سلوكاً غير مقبول ، وإفراطاً في فضح المجهول ، فالاعترافُ محاط بالكثير من ضروب الحذر في مجتمعات تقليدية تتخيل أنها بلا أخطاء ، فتبالغ في ذكر نِعم الله عليها ، وكأنها هبات خصّت بها دون سواها ، وتتحاشى ذكر عيوبها ، وتتوهّم أنّها تطهّرت من الآثام التي واظبت على اقترافها مجتمعات أخرى ، فتدفع المخاوف والهواجس الكثير من الكتّاب إلى اختلاق تواريخ استرضائية لمجتمعاتهم ، وابتكار صور نقية لذواتهم ، متجنبين كشف المناطق السرية في

تجاربهم ، فصمتوا عمّا ينبغي عليهم قوله أو زيّفوا فيه ، وربما أنكروا وقوعه ، يريدون بذلك الحفاظ على الصور الشفّافة لهم ولمجتمعاتهم". وأما الأستاذ إبراهيم القاضي فيقول: يعتقد كل إنسان منا ، أنه يمتلك أفضل سيرة ذاتية في العالم لو أقدم على سردها! ويتابع ضيف "العرب" قائلاً: "يضع أدب الاعتراف ـ ومثاله الأكثر وضوحاً السيرة الذاتية والسيرة الروائية التي تستفيد من التجارب الذاتية للمؤلّف كما نجد ذلك عند محمد شكري وصموئيل شمعون ورؤوف مسعد وحنّا مينة ولويس عوض وسهيل إدريس ـ الكاتب أمام المسؤولية المباشرة لصناع الرأي العام ، لأن الاعتراف في حد ذاته يقع في المنطقة المتوترة بين رغبة الجمهور في براءة المشاهير ، ورغبة هؤلاء في التطهّر ممّا لحق بهم من أخطاء اقترفوها عن قصد أو عن غير قصد خلال حياتهم". ويشرح إبراهيم تمشيه ، موضحاً "يحول التنازع بين الصورة الخارجية والداخلية للكاتب دون الاتفاق على حل مرض للطرفين ، فالجمهور الأدبي يصاب بخيبة أمل حينما يعرض الكاتب اعترافاً صريحاً عن حياته ، وأفكاره ومعتقداته ، لأنّ الصورة النمطية للكاتب تخرّب في بعض أجزائها ، وهذا تعبير عن رغبة يبديها متلقّون ينتظرون نقاء مطلقاً دون أن يفكروا في نقائهمُ الخاص ، وبمقابل ذلك يحرص بعض الكتّاب على عدم التنكّر للأخطاء التي انزلقوا إليها في وقت مضى ، سواء أكانت شخصية أم أيديولوجية ، فهم يريدون تنقية صورهم (الجوانيّة) حتى لو اقتضى ذلك البوح بالأسرار الخاصة وبالأخطاء ، فللاعتراف قيمة تفوق قيمة الصمت أو التزوير". ويقول الروائي المصري إبراهيم القاضي: "ذات مرة شاهدت كاتبة شابة في لقاء تلفزيوني ، تتحدث عن روايتها الجديدة الجريئة ، كما يطلق عليها البعض ، كانت الرواية تحكي عن مغامرات خليعة لأنثى ، وشعرت أن هذه الروائية أرادت أن تقسم بأغلظ الأيمان للمذيع وللمشاهدين أنها ليست بطلة روايتها ، وأنها تستنكر أفعال تلك البطلة ، كم هي مأساة أن يتلصص الغير على حياتك الخاصة ، والمأساة أفدح للأنثى في مجتمع ذكوري يراها السواد الأعظم منه عورة مكانها البيت وتربية العيال". ولا يخفى أن انتقاد إبراهيم القاضي ليس مستساغاً ولا منصفاً! ذلك أننا قوم مسلمون ، ويجب أن يخضع كل ما يصدر عنها موسوماً بسمة الإسلام والإيمان! واستحياء الكاتبة جيد نسبياً! وأما كتابتها المسِفة التي استحيت أن تكون بطلتها ، فإنه يصب في مشربية إبراهيم القاضي! وأما عبد الهادي سعدون: فيرى أن إشكالية الكاتب العربي ليست مع السيرة الذاتية فقط ، بل مع محرّمات ذاتية عديدة! وتابع القاضي قائلاً: "يعتقد كل إنسان منا ، أنه يمتلك أفضل سيرة ذاتية في العالم لو أقدم على سردها ، لكن في مجتمع يتلذّذ دوماً بالتلصص على حياة الغير ، وفي أجواء لا يُعترف فيها بقدسيّة الحياة الخاصة ، يصير من الصعب للغاية أن يبوح المبدع بمكنونات نفسه ، فهو لا يعيش بمفرده ، وقد يؤثر البوح على حياة آخرين ، كما أن حياته نفسها قد تتعرض للخطر ، وإن كان ثمة كتّاب ثاروا على الموروث الثقافي ، وأعلنوا التحدي بنصوص بديعة كالروائي المغربي الراحل محمد شكري في روايته البديعة الخبز الحافي". ويشعر القاضي بالأسف لحال أن أغلب المبدعين لا يسترزقون مما يكتبون ، وقد تنقطع أرزاقهم إن هم تحدثوا عن تجاربهم الذاتية بوضوح ، لذا قد يلجأون إلى الحيلة للتعبير عن ذواتهم عبر إسقاط تجاربهم الذاتية على شخصيات وهمية ، دون أن تمسّهم نيران المرابطين على حدود الفضيلة ، وما أكثرهم! وليس للقاضي حقٌ فيما ذهب إليه بالمرة ، حيث إننا للفضيلة خلقنا ، وعليها نحيا ، وعليها نموت ، وفي سبيلها نجاهد! وإلا يكن ذلك كذلك فما الذي يَفرقنا عن كتاب السيرة الغربيين الملاحدة أو الكفار منهم؟! ويعترف الكاتب العراقي عبد الهادي سعدون بأن إشكالية الكاتب العربي ليست مع السيرة الذاتية فقط ، بل مع محرمات ذاتية عديدة لا نكاد نتطرق إليها ، ولكن اليوم وصل الأدب العربي إلى درجة من الصراحة من الممكن معها أن تكون التجربة الذاتية من ضمن مُقوّمات الفهم للكاتب نفسه. ويقول

سعدون: "إذا كان أي واحد منا قد سطّر ويسطّر أجزاء منتخبة من تجربته الشخصية في نصوصه الكتابية السردية وغيرها ، فهي طريقة أخرى بشكل ما للتلاعب الأدبي والبحث عن توصيلة أخرى للبوح بها". ويضيف ضيفنا: "أنا شخصياً لا أجد حرجاً في ذلك ، بل العكس الكثير منها مكتوب أولا عبر نصوصي القصصية وغيرها مكتوب في سير الرحلات والمشاهد والتذكّر ، بعضها نشرته والبعض الآخر ينتظر فرصة النشر ، هناك ازدواجية تحيطنا وتتخللنا من خلال النظر للأمر ، وكأن الكشف عن مكنونات الواحد فينا هو أن يعرض ذاته للكشف والتشهير ، وهذا خاطئ ومجحف بحق الناقد والقارئ". وأما ناظم ناصر القريشي: فيرى بأن الخوف من الاعتراف هو دائماً هاجس الكاتب العربي! بينما يعتقد الروائي عبد الهادي سعدون: "إن أفضل طريقة للكتابة هي الغوص في الذات وطرحها عرضة للشمس والريح ، والمحاسبة والسجال ، والنقد يأتي فيما بعد ، ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الخشية والانتقائية هما اللتان تتحكمان بالكتّاب في هذه المسألة ، فالشجاعة والكتابة الحقيقية هما جوهر الكتابة بحد ذاتها سواء كانت ذاتيّة أو تخيليّة". وأشار الناقد العراقي ناظم ناصر القريشي إلى أن كتابة السيرة الذاتية أو اليوميات أو المذكرات من قبل الكاتب أمر مهم جداً للقراء والمهتمين ، وتنال القدر الأكبر من عنايتهم على اعتبار أن الكاتب أو الأديب أنموذج في المجتمع ، والاطلاع على تجربته في الحياة قد يساهم في تحريك مشاعر القراء نحو المكاشفة ومحاسبة النفس ، ويفيد في تطوير تجاربهم الأدبية والكتابية والحياتية أيضا ، على اعتبار أن الأحداث التي يرويها الكاتب هي تجارب حقيقية وليست من خيال. ويتساءل القريشي قائلاً: "إذا كان الكاتب حقيقياً وصادقاً في حياته وكتاباته فلماذا يخشى كتابة سيرته الذاتية؟ إلا إذا كانت كتاباته في واد وحياته في واد آخر ، فيخشى رؤية وجهه الحقيقي في المرآة ، لذا لا يجرؤ على كشف وجهه الحقيقي ، وإذا تسربت ملامح هذا الوجه إلى إحدى كتاباته يحاول أن يتبرأ منها حفاظاً على مكانته الاجتماعية والأدبية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يعتبر أغلب الكتّاب أن حياتهم الشخصية ملك لهم ولا يحبون من يطلع على أسرارهم". وفي المقابل يختم القريشي حديثه قائلاً: "هناك كتّاب يعتبرون السيرة الذاتية بيان حالة الشخص وطريقته ومنهجه ووصفه وسط الناس ، وهي أحد أنواع الكتابات الأدبية ، فيعتمدون على انتقاء تجارب وأحداث مرّت بهم وترتيبها وعرضها بصورة شيقة وفنية ، لكن دون تزييف أو محاولة خلط للحقائق". وعموماً الأدب العربي إبداع فكري حضاري غني بكنوز المعارف الإنسانية المتألقة من شعر وقصة ورواية ومسرحية ومقالة و.... سيرة ذاتية. إن السيرة الذاتية جنس أدبي عرفه أدبنا العربي منذ أن نشر (ابن أبي أصيبعة) كتابه المتميز (عيون الأنباء) بما تضمن من أخبار وحوادث لم تكن تقارب في كتب الآخرين من قبل. إن السيرة الذاتية رغم حميميتها وشدة قربها والتصاقها بالأحداث الإنسانية والمواقف الشخصية التي لا يحب الإنسان أن يستعيد ذكراها ، لما تثير في النفس الحسّاسة من آلام أو أحزان أو حوادث مُفجعة والتي تترك في النفس شرخاً وفي الفكر قلقاً وفي القلب نزفاً لا ينقطع. رغم تلك المشاعر المُحبطة للكتابة والمثبطة لاستعادة ذكراها ، فإننا نجد هامشاً كبيراً من الأدباء العرب على ضفتي المحيط والخليج قد أبدعوا بصدق وشفافية كتابة هذا الجنس الأدبي الذي يتميز بنكهة خاصة وبطعم خاص وما يثير في الأنفس من حب وإثارة للاطلاع على بوح واعترافات وذكريات وأسرار طواها الزمان ، لأشخاص وأعلام مبدعين تركوا بصمات عميقة في حياتنا الأدبية والاجتماعية على السواء. وفي بحثنا عن السيرة الذاتية فيما أبدعه أدباؤنا فإننا نواجه بالأديب الشهير (جرجي زيدان) صاحب مجلة الهلال ومؤلف سلسلة تاريخ الإسلام الروائية والذي يعتبر مؤلفه: (طفولتي) من أوائل كتب السيرة الذاتية والتي تتصف بالبوح واستعادة ذكريات الطفولة في نشأته الأولى في لبنان ومراحل حياته في البيت والمدرسة ومع الرفاق ثم

انتقاله إلى قاهرة المعّز والحياة الجديدة الحافلة فيها. وأتحفظ جداً في الاستشهاد بجرجي زيدان الذي لا تعكس كتاباته في جملتها روح الإسلام ولا القيم ولا الأخلاق! كما أنها تفتقد في جُملتها إلى المصداقية في تحري صدق وقوع هذه الأحداث من عدم حدوثها! ولكن طه حسين والذي يعتبره الدارسون الأكثر مِهنية وإبداعاً في كتابة سيرته الذاتية والأكثر شفافية وصدقاً ، فهو يُسهب في بوحه البريء عن طفولته في قريته البائسة البعيدة عن صخب القاهرة واضطراب الحياة فيها واختلافها. ويُصاب بالرمد ويُعالج بطرق بدائية تسبب له فقدان البصر إلى الأبد ، ولكن بصيرته تزداد حِدّة عندما ينتقل إلى الدراسة في الأزهر ، فيكون الأفضل بين زملائه وهو يتحدث عن حياته بتفصيل بارع في القاهرة وينقل لنا صوراً نكاد نعيش معها لشدة شفافيتها وبساطتها بأسلوب رائع هو أسلوب طه حسين ، وعلى امتداد ثلاثة أجزاء في سيرته الذاتية (الأيام) والتي اتخذ فيها منهجاً جديداً في التحدث عن طفولته والبيئة التي عاش فيها مستعملاً ضمير المخاطب تارة وضمير الغائب تارة أخرى ، بإبداع فريد وبمهنية فائقة في الوصف والحوار لم يدانيه أحد من الأدباء قبله ولا بعده ، وهو ينهي هذه السيرة بالتحدث إلى نفسه قائلاً: (ها أنت يا بني تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفارق أهلك وأصدقاءك ، وتعبر البحر في سنك هذه الصغيرة ، لتطلب العلم وحيداً في باريس..). وفي رائعته الثانية (أديب) نقرأ تفاصيل جديدة عن شبابه واضطراب حياته في باريس واضطرام عواطفه في تلك الأجواء الغريبة والتي كانت تثير في نفسه الحنين والأشواق إلى ذلك البلد البعيد الذي قدم منه. إن الأسلوب الذي اختطه طه حسين في الحديث عن سيرته يختلف اختلافاً منهجياً في السرد والبوح والذكريات عن باقي مؤلفاته مثل: (على هامش السيرة) ، (تجديد ذكرى أبي العلاء) ، (مع المتنبي) ، (الفتنة الكبرى ، عثمان) ، (الفتنة الكبرى ، علي) ، (مع أبي العلاء في سجنه) ، (في الأدب الجاهلي) ، كما يشمل هذا الاختلاف في قصصه (المعذبون في الأرض) ولكننا عندما نقرأ رواياته: (الحب الضائع) ، (شجرة البؤس) ، (دعاء الكروان) نجد اختلافاً واضحاً في الأسلوب والسرد كما هو في (الأيام) وكذلك في روايته (القصر المسحور) بمشاركة الأديب توفيق الحكيم. وبالطبع يكفي ما كتبه الأديب البارز العملاق عن طه حسين لنعلم عدم أهليته لعمادة الأدب العربي! كما أنه لا يمثل اتجاهاً للسنة ولا الدين! بل بالعكس هو يمثل اتجاهاً في الهجوم على الدين والنيل منه ومن أهله! والذي يريد أن يدرك الدور الخبيث الذي قام به طه حسين في تشويه الأدب العربي واللغة العربية والإسلام ، فليقرأ نقد الأستاذين زهير الشاويش وأنور الجندي له بكل حيدةٍ وموضوعيةٍ وشفافيةٍ وصدق! لكن كلامي هنا عن سيرته الذاتية: (الأيام) فقط! ونقلي لكلام النقاد لا يعني أنني معهم في تصوراتهم! ولا يختلف دوره عن دور المستشرقين الخبثاء في الكيد من الإسلام وأهله! إن السيرة الذاتية في الأدب العربي والتي اتخذنا نموذجاً لها سيرة طه حسين في (الأيام) نلمس فيها إيقاعاً خاصاً وبوحاً مميزاً بالتصاقها الوثيق بحياة مؤلفها: ماضيه وحاضره ، مما يبعدها ويعزلها عن مفهوم الروايات التي كتبها سواء بأحداثها المتخيلة (القصر المسحور) أو شخصياتها المتعددة (الحب الضائع) ، (شجرة البؤس) أو صراعاتها المختلفة بين سلب وإيجاب (دعاء الكروان). أقول: ولا يخفى ما عمد إليه طه حسين في كتابه: (الأيام) من الإكثار من الهراء والحماقات والسخافات عن الجن والعفاريت في قالب يستخف فيه بعقلية القراء! وكأنه يفرض علينا خرافات طفولته وشعوذات القرية وسيدنا وغير ذلك! كذلك فإن هذه السيرة تتمايز عن رواياته بارتباط مؤلفها بالتعبير عن ذاته بشكل مباشر وصريح ، عبر استعادته لذاكرته من ماض سحيق بعيد ، حيث تتجلى (الأنا) بشكل مباشر عبر زمنين مختلفين: الزمن الماضي المستعاد في الذاكرة والزمن الحاضر الذي يدفع بالذات إلى مراجعة العلاقة بالعالم وبنفسها بمنظومة لا التباس فيها ولاغموض. ويضاف إلى كل ذلك عاطفة البوح بأسرار الذات المضمرة

في ضمير المتكلم أو ضمير الغائب ، والذي يستخدم في التعبير عن سيرة الحياة الماضية ، وهذا ما تجلى في سيرة (الأيام) ، حيث أتاح طه حسين للضمير الغائب المعلن عن ضميره المتكلم ، أن يقص تجربته الحياتية كما لو كان شخصاً آخر؟! عبر التدقيق في السيرة الذاتية (الأيام) يتضح أن أديبنا طه حسين قد عمد إلى تحوير ضمير المتكلم إلى الضمير الغائب بهدف خلق مسافة (للتأمل) في مسيرة الذات بسرد شخصية غير شخصيته ، ليبعد نفسه عن الانفعالات التي قد توقعه في ذاتية تامة لا يريدها مباشرة . كذلك هنالك نقاط تميز السيرة الذاتية للأديب بوجود صوت واحد يتحدث بضمير المتكلم أو الغائب عن أخبار ووقائع جرت في حياة الأديب وانطوت صفحتها ، وهذا ما يجعل السيرة الذاتية مختلفة كلياً عن الرواية التي تمتاز بتعدد الأصوات والشخصيات ، كما أن الخيال يدخل في نسيجها السردي ، كما تدخل الحوادث الغرائبية في الحاضر والمستقبل معاً ، وخاصة ما نلمسه في روايات ما يسمى بالحداثة وما بعد الحداثة. إن النجاح الذي صادفه طه حسين في سيرته الذاتية (الأيام) كان مَدعاة لقيام عدد كبير من الأدباء بكتابة سيرهم الذاتية نذكر منهم: عباس محمود العقاد في رائعته (سارة) وتوفيق الحكيم في (عودة الروح) وعبد القادر المازني في (إبراهيم الكاتب) ويحيى حقي في (قنديل أم هاشم) . وفي أدب أيامنا هذه هنالك حنا مينه في (المستنقع) وأيضاً (بقايا صور) وجمال الغيطاني في (تجليات) وإدوار الخراط في (راما والتنين) وخيري بشارة في (وكالة عطية) وجبرا إبراهيم جبرا في (البئر الأولى). وكانت دراستنا فيما تقدم تقارب (الأدب الذكوري) فماذا عن السيرة الذاتية في (الأدب النسائي)؟ لقد وجدت نتيجة للمقارنة بين الأدبين - إن صح التعبير - أن الأمر ليس نفس البساطة بل هو أمر شديد التعقيد وتتدخل فيها الكثير من المعوقات والوضع الاجتماعي للأديبة وصعوبة البوح والاعتراف والذكريات. ورغم كل ذلك ، نجد عدداً من الأديبات العربيات قد أبدعن في كتابة سيرهن الذاتية. ونذكر على سبيل المثال: عائشة عبد الرحمن التي اتخذت اسم (بنت الشاطئ) عند كتابة سيرتها الذاتية (على الجسر) وفي معظم كتاباتها الأخرى ، أما نوال السعداوي فقد واجهت صراعات وخصومات أدبية واجتماعية عندما كتبت (أوراق حياتي). أما الشاعرة فدوى طوقان فإن سيرتها (رحلة جبلية ، رحلة صعبة) ، كانت رحلة معاناة وتشرد لامرأة فلسطينية كابدت سلب الوطن وطفولة بائسة واغتراب نفسي بفقدان البيت والأهل وانكسار النفس وتمزقها وعندما احتلت القدس بالآلة الصهيونية العسكرية المدعومة من الغرب بشعاراته الزائفة عن حرية الشعوب والديمقراطية. فقد كتبت سيرتها الثانية (الرحلة الأصعب). أما أحلام مستغانمي فإن سيرتها الذاتية تشمل ثلاثيتها (ذاكرة الجسد) (فوضى الحواس) (عابر سرير) فكانت الأروع في البوح واستعادة ذكرياتها أثناء المقاومة الجزائرية العظيمة. وفي الختام لا بد أن نذكر أن بعض أدبائنا ابتدع أدباً يجمع بين بوح سيرة الأديب وبين تعدد الشخصيات وحوادث التخيل ومثال هذه الأعمال: صنع الله ابراهيم في سيرته / روايته: (التلصص) التي كتبت بضمير المتكلم على لسان طفل وكذلك الأمر عند إبراهيم أصلان في رائعته (مالك الحزين) و(وردية الليل) وقد تأثرا إلى حدٍ ما بثلاثية نجيب محفوظ: (قصر الشوق) و(بين القصرين) و(السكرية). إن جميع هذه الأعمال الأدبية تساهم في تعميق الفكر العربي وانتمائه القومي في عصر العولمة وهجمة الفكر الأحادي الذي يحاول ابتلاع الآداب الأخرى. وعن فن السيرة الذاتية يقول الأستاذ خالد الجار الله ما نصه: (إن الجدل مازال يدور عند الأوساط الأدبية حول تعريف جامع يتعاطى مع الكتابات التي تتشابه في بعض خصائص هذا الجنس من الأدب ، وسواء كان أسلوب السيرة الذاتية على شكل يوميات ومذكرات أو تراجم وروايات أو حوارات واعترافات ، فإن للسيرة الذاتية نكهة خاصة جداً حينما يشرك المؤلف تجاربه مع الآخرين ، وتضفي اعترافاته وصدقه قدرة على التأثير على مشاعر الناس ، لقد دلني البحث رغم ندرة

الإنتاج على نماذج لهذا الفن الأدبي في الكويت والتي غلب عليها الشكل التقليدي السردي وبعضها الشكل التصويري الفني الذي مزج بين السرد والرواية الأدبية ، كتب في هذا الجنس من الأدب سياسيون ومفكرون وناشطون في الشأن العام. ومن هذه النماذج يوميات «أحمد البشر الرومي ـ قراءة في أوراقه الخاصة» نشرها مركز البحوث والدراسات الكويتية والتي رصد فيها الأحداث منذ ثلاثينيات القرن الماضي وقدم تسجيلاً تاريخياً متواصلاً وتجلى فيها صدق وموضوعية كاتبها ، إنتاج آخر هو «مذكرات خالد سليمان العدساني» والذي تناول فيها سرداً لأحداث سياسة واجتماعية في ثلاثينيات القرن الماضي وتحليلاً لتلك الأحداث من وجهة نظر الكاتب. ويعد خالد العدساني والذي شغل منصب وزير للتجارة عام 1971م من بين ثلاثة وزراء كتبوا مذكراتهم ، حيث كتب وزير التربية الأسبق الأديب د. يعقوب يوسف الغنيم مذكراته في كتابه «همس الذكريات» وألف وزير التربية والصحة فيما بعد كتاباً في سيرته الذاتية تحت عنوان «فى مرابع الذكرى» ، جمع المؤلفان ذكرياتهما في سرد أدبي ممتع تناول حقبة تاريخية متقاربة من النصف الثاني من القرن الماضي من تاريخ الكويت. ومن أبرز السياسيين الذين كتبوا في هذا اللون من الأدب د.أحمد الخطيب فقد كتب ذكرياته في العمل الوطني والقومي في كتاب من جزأين «الكويت: من الإمارة إلى الدولة ـ الكويت: من الدولة إلى الإمارة» ، ومن الديبلوماسيين بدر خالد البدر في كتاب من جزأين «رحلة مع قافلة الحياة» ويوميات الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي عبد الله يعقوب بشارة «بين الملوك والشيوخ والسلاطين» ، ومن الأساتذة الأكاديميين د. مبارك سعود العبيدي «حكايتي مع الجامعة» ، ومن الناشطات في العمل الاجتماعي والعام كتبت في أدب السيرة الذاتية الفاضلة لولوة عبد الوهاب القطامي «مذكرات بنت النوخذة» و«السيدة فاطمة حسين العيسى» أوراقي «والناشطة نورية السداني» أربعون عاماً من التاريخ الخليجي والعربي ، وتمثل تلك النماذج من الإنتاج المحلي بالإضافة إلى الدفاتر والمدونات الشخصية الموجودة في المراكز البحثية مادة أدبية أولية تمكن المهتمين بدراسة خصائص هذا اللون من الأدب في الكويت وتقدم قيمة تاريخية مضافة للتراث الثقافي الكويتي).هـ. والحقيقة أن «أدب السير الذاتية أمر تباينت حوله الآراء ، وتبارت المواقف بين المهتمين بالمشهد الأدبي ممارسة وتنظيراً. علينا ألا نخلط السيرة الذاتية بالسيرة الغيريـة ، لأن البيوجرافيا الغيريـة منتشرة بشكل كبير في الآداب الغربية والعربية على حد سواء ، مادامت هذه البيوجرافيا ما هي إلا ترجمة توثيقية أو فنية أو إخبارية ترصد حيوات الآخرين على حساب ذات المبدع الكاتب ، وتؤرخ لها مـن منطلقات نفسية واجتماعية وتاريخية وفنية. وما يهمنا في هذه التوطئة هي السيرة الذاتية التي تنبع من الذات الفردية في تفاعلها الجدلي مع الواقع المحيط صراعـاً أو تعايشـاً. ويلاحظ أيضاً أن السيرة الذاتية قد تتخذ عدة أنماط تعبيرية كالرواية والقصة والدراما والكتابة الفكرية والإخبارية والسيناريستية». يذهب (روللوماي) إلى أن (الشجاعة الخلاقة) هي أهم أنواع الشجاعة على الإطلاق ، فبينما الشجاعة الأدبية هي تقويم الأخطاء ، كانت الشجاعة الخلاقة – على عكس ذلك – هي اكتشاف أشكال جديدة ، ورموز جديدة ، ونماذج جديدة يمكن أن يشيد عليها المجتمع الجديد. وحسبنا أن نرى كيف تنتقل الإنسانية الآن عبر عملية معقدة ومركبة صوب صياغة مجتمع عالمي جديد ، تحت تأثير الثورة الكونية ، هذه الثورة الكونية تأتي في التعاقب التاريخي للثورات المتعددة التي شهدتها الإنسانية عقب الثورة الصناعية ، وكانت البدايات الأولى تتمثل في بزوغ ما أطلق عليه (الثورة العلمية والتكنولوجية) التي جعلت العلم – لأول مرة في تاريخ البشرية ـ قوة أساسية من قوى الإنتاج تضاف إلى الأرض ورأس المال والعمل. إن كل زمان يتطلب أوكسيداً آخر للشجاعة ، وما قاله (كيركجور) عن الحب يصدق أيضاً على الإبداع ، فلقاء (واقع التجربة) أساس كل إبداع ، إذ أصبح العمل الإبداعي عملاً نقدياً في

الوقت نفسه أكثر مما كان في أي وقت مضى ، وأصبح الكُتاب يشعرون بالحاجة إلى تقديم النظريات عن فنهم والدفاع عن كتاباتهم وشرحها أكثر مما فعلوا في الماضي ، من هنا نبع فن كتابة السيرة الذاتية الأدبية كجنس أدبي له استقلاليته. من المعروف تاريخياً أن السيرة الذاتية فن أدبي قديم ظهر عند الكتاب الأمازيج أولاً وبخاصة عند القديس أوجسطين صاحب كتاب (الاعترافات) ذات الطابع التيولوجي النصراني. وقد عرفها الغرب بعد ذلك كما هو الحال عند جان جاك روسو في كتابه (الاعترافات) ، والكاتب الفرنسي مارسيل بروست في روايته الخالدة (البحث عن الزمن الضائع) ، والكاتب الإنجليزي جيمس جويس في (صورة الفنان في شبابه). وعرف هذا الفن الأدبي أيضاً إشعاعه الفني كتابة وتصويراً وبياناً وبديعاً لدى العرب في العصر الوسيط كما يدل على ذلك كتاب (المنقذ في الضلال) لأبي حامد الغزالي ، وكتاب ابن خلدون (التعريف برحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً). ويمكن تعداد الكثير من السير الذاتية في أدبنا العربي الحديث كسيرتي (الأيام) و(أديب) لطه حسين ، وسيرتي (أنا) و(سارة) للعقاد ، و(حياتي) لأحمد أمين ، و(تربية سلامة موسى) لسلامة موسى ، و(إبراهيم الكاتب) لعبدالقادر المازني ، و(عصفور من الشرق) و(يوميات نائب في الأرياف) و(عودة الروح) لتوفيق الحكيم ، و(حياتي في الشعر) لصلاح عبدالصبور ، و(الساق على الساق فيما هو الفارياق) للشيخ أحمد فارس الشدياق ، (في الطفولة) لعبد المجيد بن جلون ، و(رجوع إلى الطفولة) لليلى أبو زيد ، و(الرحلة الأصعب) لفدوى طوقان ، و(الزاوية) للتهامي الوزاني ، و(الخبز الحافي) و(الشطار) لمحمد شكري ، وسيرتي (الألم) و(الرحيل) للعربي باطما ، و(الحجرة الصدئة) لعمرو القاضي ، و(قصتي مع الشعر) و(من أوراقي المجهولة) لنزار قباني ، ورواية (أوراق) لعبدالله العروي. لقد تخطت مطالب العقل الناقد لدى الكتاب الكبار في هذا العصر حدود كتاباتهم الخاصة ، وغدت تضم كتابات معاصريهم بل والتجربة الفنية كلها ، كما يذهب إلى ذلك (هاسكل بلوك) ولذا نرى في سيرة الكاتب السيد ياسين الفكرية غلبة الفكر الناقد ، وتغدو السيرة الذاتية الشخصية في سياق الأدب الاعترافي مظهراً من مظهر الوعي بالذات في الأدب المعاصر على النحو الذي يلقي الضوء على اهتمام المتلقي بقضايا الأدب وفلسفته وتفسيراته ، الأمر الذي يتطلب من المبدع أن يناقش إنتاجه في سياق من الوعي الاتصالي بين المبدع والمتلقي حتى يتم التناغم بين المرسل والمستقبِل حول مغزى الفن الأدبي ، سعياً من أجل الاتصال والفهم المشترك. نرى أن المشروع الفكري لا يجب أن يكون شريحة من السيرة الذاتية فحسب ، بل يجب أن يكون جهداً نقدياً يقوم على أساس من فهم الدور الجوهري للتجارب والمواقف في المادة الأصلية للتجربة ، ويضرب لنا (بلوك) و(سالنجر) المثل بـ (فلوبير) بهدف تأكيد أن التمسك بالاتجاه غير الشخصي الذي يعد شارة للفن العصري ، إنما هو في ذاته تأكيد للشخصية ، والكاتب إذ يفسر فنه قد يخلقه خلقاً جديداً ، وقد يعود مرة أخرى إلى المعاناة مع مادته وهو يشكلها وفقاً لأغراضه ، وكما يبين كثير من الروايات والمسرحيات والقصائد أن أصحابها يعتبرون من عمالقة الأدب الحديث ، فإن هذه التجارب تبين المطالب العاتية التي يتطلبها الإبداع الأدبي وتبين أنها لازمة للفنان لزوم الاحتياجات المباشرة لفنه. أما بالنسبة للمتلقي فإن للتجربة الفكرية في سياق أدب السيرة الذاتية قيمة أخرى ، فهذا الأدب يساعدنا كثيراً في إعادة قراءة مؤلفات كتابها بفهم وتعاطف جديدين ، والواقع أن الطريقة المثلى لقراءة هذه التجارب هي في اعتبارها جزءاً أساسياً من حصيلتنا الأدبية ، وإذا كنا على استعداد لتلقي حديث الكاتب المباشر وإيحاءاته ، فإن التجارب الإبداعية الذاتية لا يمكن أن تقرأ إلا في مثل هذا الجو ، إذ سنجد في الصفحة تلو الأخرى مواقف وقيماً بل وكلمات بنصها تعود بذهننا إلى المؤلفات الأدبية التي صدرت عن نفس القلم ، ولا شك أن دارس الأدب الحديث سوف يجد في هذه التجارب غنى أكثر مما يجده

القارئ غير المتتبع للاتجاهات الحديثة في الأدب المعاصر ، فهي ليست اعترافاً شخصياً أو ضمنياً أو ترجمة ذاتية لحياته فهذا جنس أو نوع آخر من فنون الأدب. هناك فروق كثير بين أدب السيرة الذاتية وأدب الترجمة الذاتية ، فهما يختلفان في العديد من السمات والصفات ، لذا نرى في البداية أن نعرض جملة من الأسئلة والتساؤلات التي نصادفها في متن النصوص النقدية التي عالجت جنس السيرة الذاتية ، والتي تتخذ مسألة تعريف هذا الجنس الأدبي محوراً لها ، وهي كالآتي: هل صحيح أن محاولة إعطاء تعريف واضح لجنس السيرة الذاتية مآلها الفشل؟ وهل صحيح أن السيرة الذاتية جنس أدبي محير؟ وأن ما يظهر على أنه تقدم في النفاذ إلى جوهر هذا الجنس الأدبي ، بقصد وضع حدود تعريفية له ما هو إلا تجريد وإبهام؟ وأن الإشكالية الرئيسة الخاصة بالسيرة الذاتية منحصرة في تعريف هذا الجنس من الكتابة؟ ثم أمن الصواب أن ننطلق من موقف القارئ ومنظوره حتى نضع تعريفاً للسيرة الذاتية؟ أم أن الوصول إلى تعريف شامل للسيرة الذاتية يعد من قبيل المستحيل؟ هل السيرة الذاتية غير مرشحة لحمل سمات الجنس الأدبي المستقل ، وأن تعريفها جزء من تعريف جنس الرواية ، باعتبار أن القارئ يتلقاها كعمل أدبي متخيل؟ أم أن جوهر جنس السيرة الذاتية كامن في المؤلف صاحب التاريخ الفردي الخاص ، وفي القارئ المتلقي لهذا التاريخ؟ لقد انتهى (فيليب لوجون) في دراسته جنس السيرة الذاتية إلى أنه لم يكن يسعى منذ البداية سوى إلى عقلنة وتوضيح معايير قراءته ، على الرغم من التعريف الذي خص به هذا الجنس الأدبي في مرحلتين أنفهم من هذه الخلاصة أن كل محاولة جادة لتعريف أدب السيرة الذاتية مآلها الفشل حتماً؟ وأن تعريف هذا اللون من الأدب رهين بموقف قارئه ، بحكم أن ليس هناك تعريف واحد فريد يجمع عليه القراء ، سواء كانوا متلقين عاديين أم نقاداً متخصصين ؛ بل ثمة تعريفات عددها بعدد قراء السيرة الذاتية ، وأنه إن كان لا بد من الوصول إلى تعريف دقيق لها ، فيجب أن يكون نابعاً من تاريخ مواثيق القراءة ، التي يتعاقد عليها كتاب السيرة الذاتية مع قراء هذا اللون من التعبير الأدبي. أما (جورج ماي) فيرى أن العائق الذي يمنع إجماع الدارسين على تعريف محدد لأدب السيرة الذاتية كامن في كون هذا اللون من التعبير حديث الوجود. ودرجة حداثته لا تمكنه من اكتساب صفة (الجنس الأدبي) ،لأنه ليس على درجة من العراقة كباقي الأجناس الأدبية ، وأن الأوان لم يحن بعد لتعريفه ، ما دام في مرحلة التكون ، ونحن إن كنا نتفق إلى حد معين مع (فيليب لوجون) فيما ذهب إليه من طرح حول تعريف السيرة الذاتية ، باعتبار أنه رهين بما ينعقد من مواثيق للكتابة والتلقي بين أصحاب السير الذاتية وقراء هذا اللون من الأدب ، فإننا ننظر بكثير من الحذر إلى ما جاء به جورج ماي من طرح حول نفس المسألة ، إذ هل بالفعل أن أدب السيرة الذاتية حديث العهد؟ وأن مكمن الصعوبة في وضع تعريف له متمثل في هذه الحداثة؟ ثم إننا نتفق مع عبد القادر الشاوي ، لكن ليس من باب الافتراض ؛ بل من باب القناعة الراسخة ، خصوصاً وأن الإشكالية الأساسية لأدب السيرة الذاتية منطوية في تعريفه من خلال النصوص الممثلة له ؛ فهل نحن حقاً أمام مشروع بحث لا غنى لباحثي ودارسي جنس السيرة الذاتية عنه؟ إننا نرى على وجه اليقين أن دراسة مختلف السير الذاتية بعمق نظري ومنهجي كفيلة بوضع تعريف عام لهذا الجنس من الكتابة الأدبية ، ومن باب اليقين كذلك ، لا من باب الافتراض نستطيع أن نخلص إلى تعريف السيرة الذاتية العربية والإسلامية إن نحن اعتمدنا في دراسة ما يمثلها من نصوص عمقاً نظرياً ومنهجياً سليماً. فهل السيرة الذاتية جنس أدبي يروي الإنسان من خلاله ذكرياته الشخصية ، متحدثاً عن حياته أكثر مما يتحدث ، بالقدر الضروري لفهم جملة من الأحداث ، عن حياة غيره من الناس؟ أم أنها حياة إنسان يكتبها بنفسه؟ وهذه جملة من الأسئلة والتساؤلات التي تجري في فلك جنس السيرة الذاتية ، التي تحمل في طياتها الكثير من الإجابات والعديد من صفات وملامح هذا

الجنس الأدبي بوجه عام ، ومما لا شك فيه أن ما ينجز من الأبحاث والدراسات النقدية حول جنس السيرة الذاتية سيؤدي حتماً إلى إعادة النظر في ما يحكم هذا الجنس الأدبي من قوانين ، بقدر ما سيرتقي به ، خصوصاً وقد غدا جنس السيرة الذاتية ساحة للنقاش النظري الأدبي حول موضوعات لا يخلو أحدها من أهمية. لقد سقط عدد من الباحثين ونقاد أدب السيرة الذاتية في خطأ كبير عندما جعلوا (السيرة الذاتية) اصطلاحاً مرادفاً ومطابقاً لمصطلح (الترجمة الذاتية) ، ولم يميزوا بين الاصطلاحين ، وهذا خلط اصطلاحي واضح لم يعرفه العرب المسلمون قديماً ، ونحن نتساءل باستغراب محض عما إذا كان العرب المسلمون القدماء حقاً لا يميزون بين لفظ (السيرة) ولفظ (الترجمة) وأنهم كانوا يوظفون كلا اللفظين بمعنى واحد ، هو: (حياة الشخص بصفة عامة)! إن هذا الاعتقاد الذي لا يقوم على أساس سليم ثغرة في منظومة المفاهيم الخاصة بجنس السيرة الذاتية لا سبيل إلى تجاهلها ، لهذا نرى من الضروري في البداية التذكير بما أورده ابن منظور في معجمه الكبـير (لسان العرب) بخصوص لفظ (السيرة) ولفظ (الترجمة) أما (السيرة) فهي السنة ، والطريقة ، والهيئة ، وأحاديث الأوائل ، وفي التنزيل العزيز قول الله عز وجل: (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى) ، أي هيئتها الأولى ، وأما (الترجمة) فهي نقل الكلام من لغة إلى لغة. ثم إن لفظ (الترجمة) دخيل على اللغة العربية ، وهو أصلاً من اللغة الآرامية ، ولم يكن لفظ (الترجمة) من بين الاصطلاحات الأدبية القديمة ، المرتبطة بتاريخ الحياة الفردية ، إلا في بداية القرن السابع الهجري ، وذلك مع أبي عبد الله ياقوت الحموي (626 – 574هـ) ، في مؤلفه: (معجم الأدباء) ، والذي وظفه بمعنى مختصر حياة الفرد وكان أبو الفرج الأصفهاني المتوفى عام (356هـ) قد استعمل لفظ (الخبر) بصيغتي الإفراد والجمع. إن المعاجم العربية القديمة لم تتخذ لفظ (الترجمة) مرادفاً للفظ (السيرة) في حين عمدت المعاجم الحديثة ، بما فيها المعاصرة ، إلى توظيفهما مترادفين وبنفس المعنى ، أما القول بأن الذي فصل قديماً بين مفهوميهما وحمولتهما الاصطلاحية هو مجرد توظيف اعتباطي حسبما يرى ماهر حسن فهمي ، ومحمد عبد الغني حسن ، على سبيل المثال ، فهو استنتاج نرده على أصحابه ، لأن التمييز بين الاصطلاحين لم يأت دون مراعاة الحمولة الدلالية لكل مصطلح على حدة ، أو دون قصد وغاية ؛ بل إن ثمة فوارق بينة ومحددة بين لفظي (الترجمة) و(السيرة) ، تتجاوز منطق الاستعمال الاعتباطي أو ما جرت عليه العادة ، وهي فوارق تم إغفالها من قبل معظم الباحثين ونقاد أدب السيرة الذاتية. إذا كانت هذه المسألة الاصطلاحية في الوقت الراهن قد تبدو لأول وهلة قضية جزئية متجاوزة ، فإننا نعتقد ، على العكس من ذلك تماماً ، بأنها مسألة تستدعي إعادة النظر والمراجعة ، والظاهر أن العرب المسلمين القدماء قد حسموا في هذا الأمر ، وذلك عندما استقر رأيهم على ضرورة التمييز بين مفهوم (السيرة) وما تعنيه (الترجمة) أو بالأحرى بين لفظي: (السيرة) و(الترجمة) ، سواء كانا للذات أم للغير ، مع أن المتقدمين من أهل الأدب والنقد العربي الإسلامي ، لم يكونوا يلحقون صفة (الذاتية) أو (الموضوعية) بهذين الاصطلاحين. وصحيح أن لفظ (الترجمة) لم يعرف بمعنى أو بمفهوم (المختصر من حياة الفرد) إلا عند المؤلفين المتأخرين ، لكنه لم يكن يدل عند القدماء من الأدباء والنقاد العرب المسلمين على (السيرة الذاتية) ، أو(السيرة الموضوعية / الغيرية) ، وإنما قصدوا به حقيقة (الترجمة الذاتية) ، وعنوا به من جهة ثانية (الترجمة الموضوعية / الغيرية) ، وذلك باعتبار من يقوم بعملية الترجمة بطبيعة الحال. حتى نبرهن بقسط من الملاحظة والاستنتاج على ما نعتقده في شأن تمايز وتباين لفظي (السيرة) و(الترجمة) لغة واصطلاحاً ، نقول: إن انتقال دلالة لفظ (الترجمة) مجازاً من أصل معناها ، الذي ارتبط قديماً بعالم التأليف والآثار الأدبية وغيرها ، إلى معنى التعريف بالأعلام ، مع احتفاظ اللفظ الدال طبعاً بمدلولاته

الأصلية ، هو التحول الذي يفيدنا في تمييز حد (الترجمة) عن حد (السيرة) ، باعتبار أن مدار الحد الأول (حد الترجمة) هو الاختصار أو الإيجاز ، بخلاف مدار الحد الثاني (حد السيرة) وهو الإسهاب. لقد كانت ترجمة الكتاب تعني التعريف به من خلال عنوان ، أو فقرات قصيرة ، أو من خلال فاتحة خاصة بالكتاب ، وقد جعل المؤلفون القدماء ، على سبيل المثال ، لفظ (الترجمة) مصطلحاً دالاً على معنى العنوان ابتداء من القرن الثالث الهجري. ولا شك أن القصد من وضع لفظ (الترجمة) اصطلاحاً هو الدلالة على: التقديم ، والتعريف ، والشرح ، والتفسير ، وإيضاح المبهم ، والتعيين ، والتسمية ، والإفصاح كذلك ، وجميع هذه المعاني والمدلولات نصادفها في تراث الأدب العربي الإسلامي ضمن سياقات مختلفة. ثم إن ترجمة الكتاب وترجمة الكاتب تعني: التعريف بهما ، وتقديمهما إلى جمهور القراء من دون إطالة أو إسهاب ، أو ترك أي معلومة مبهمة وغامضة تشوب هوية الأثر الأدبي أو الشخص ، ومن ثم فإن لفظ (الترجمة) قد تمت استعارته من عالم الكتب والمصنفات ، حتى يدل كذلك على التعريف بالأحياء والمتوفين من أعلام الأدب ، والتاريخ ، والطب ، والفكر ، والفلسفة ، وغيرهم. من مقاصد اصطلاح (الترجمة) ،سواء كانت ذاتية أم موضوعية ، التاريخ المقتضب للأعلام ، بالإضافة إلى عناية المترجم بذكر اسم ، وكنية ، ولقب ، ونسب الذي يترجم له ، نجده يعتني كذلك بذكر عقيدته ، ويثبت تاريخ ومكان ولادته ، ثم يذكر من أخذ عنهم العلم ويسرد أهم مراحل حياته ، ثم ينتهي إلى ضبط تاريخ وفاته إن كان من المتوفين. نهج ياقوت الحموي مسلكاً مماثلاً في ترجمته لقدماء النحويين والأدباء العرب ، لما التزم به ابن أبي أصيبعة من خطوات في تراجمه لقدماء الأطباء ، بحيث آثرا مبدأ الاختصار والإيجاز في ترجمتهما لكثير من الأعلام ، وكان قصدهما من وراء التزام هذا المبدأ ، هو أن تجمع كل ترجمة موضوعية بين صغر الحجم وكبر النفع ، مما يدل على أن الإيجاز وصغر الحجم هو السمة والقاعدة في كتابة تراجم الأعلام ؛ بل هو شرط ملازم في الغالب للترجمة ، ذاتية كانت أم موضوعية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن كل ترجمة لا بد أن تنطوي على نفع وفائدة كبيرة ، وهذا شرط ثانٍ لا يقل أهمية عن الشرط الأول. فجميع هذه الملامح والمعالم تساعد بدون شك على الاقتراب أكثر من مفهوم (الترجمة الموضوعية) ، بقدر ما تفيد ضمناً في إيضاح المقصود بالترجمة الذاتية ، ونحن لا نتفق مع من يرى بأنه من الممكن أن تشغل السيرة الذاتية صفحات معدودة! أو أنها قد تكون أشبه بشهادة ميلاد صاحبها! فهذه ليست صفة السيرة الذاتية على الإطلاق كما أوضحنا في بداية المقال ، وإنما هي صفة الترجمة الذاتية ، ذلك لأن السيرة ، سواء أكانت ذاتية أم موضوعية ، فإنها من غير الممكن تماماً أن تأتي في صفحات معدودة ، بحكم أن الإسهاب في السرد يعد من خصائصها الأصلية ، بحيث إن وضع الترجمة الذاتية بالنسبة إلى السيرة الذاتية شبيه بوضع الأقصوصة أو القصة بالنسبة إلى الرواية. مما يثير الاستغراب أكثر لدى القارئ تلك المصادفة التي تحدث بينه وبين توظيف المصطلحين في غير محلهما أثناء قراءته بعض الأبحاث أو الدراسات أو المقالات النقدية حول أدب السيرة الذاتية ، وجميع النماذج التي نستطيع أن نعثر عليها دون عناء في العديد من الكتابات تكشف بجلاء لا خفاء فيه عن مظاهر الخلل على مستوى الاصطلاح ، وعن مدى الخلط الحاصل في الذهنية الأدبية والنقدية العربية ، وقد حان الوقت لنضع كل مصطلح في سياقه الطبيعي والمناسب ، وليتخذا وضعهما الأصلي في الحقلين: الأدبي والنقدي العربي الإسلامي ، لأن الترادف المزعوم بينهما ، كما ذكرنا ، في الدلالة الاصطلاحية لا يستند إلى دعامة صلبة أو ركن شديد ، ومن ثم فنحن لا نتفق مع من يرى بأن التمييز بين اصطلاحي السيرة والترجمة ما هو إلا تفريق سطحي ، سرعان ما يتلاشى عند تعريضه لأدنى تمحيص ، ثم لأن ثمة شواهد ومعالم تبرز ضرورته. إن الترجمة الذاتية أدب نثري له من الشروط ، والخصائص ،

والأغراض ما يميزه عن السيرة الذاتية ، وكلا اللونين ينتميان إلى الأدب الذاتي أو الخاص ، ويكتبان من طرف المعني بهما ، كذلك الترجمة الموضوعية ليست هي السيرة الموضوعية ، إذ لكل منهما شروط ومبادئ خاصة ، على الرغم من كونهما ينتسبان إلى الأدب الموضوعي أو الغيري ، ويؤلفان من قبل شخص آخر غير معني بهما. أما الترجمة الذاتية ، فستظل على الدوام غير مؤهلة إطلاقاً لتقوم بدلاً عن السيرة الذاتية أو لتحل وتشغل مكانها ، ذلك لأن كاتب السيرة الذاتية ملزم بأن يعكس للقراء وجه حياته الشخصية بتفاصيلها ودقائقها قدر الإمكان طبعاً ، على مرآة التعبير الأدبي ، مع العلم بأن السيرة الذاتية تهدف إلى الاشتمال على جزء من حياة صاحبها ، إذ يتعذر عليها أن تحيط بسائر ما مضى من حياته الشخصية ، ومؤلفها مطالب بالاقتراب أكثر من ذاته بالوصف ، والتفسير ، والتحليل ، والتعليق ، والنقد أيضاً ، وجميع هذه الأفعال الخطابية يجب أن يمارسها بإسهاب وليس باقتضاب ، وإن كان من غير الهين على الإطلاق أن يتخذ الكاتب من ذاته وذاكرته موضوعاً للسرد. وإذن فهذه السيرة وتلك المسيرة مختلفتان! وإنني في كتابتي عن الأميرة زبيدة بنت جعفر سأهتم بالحقائق فقط! وأما مسألة الأدب المكشوف أو فن الاعتراف كما هو معروف في الغرب ، أو كشف المستور والمكاشفة كما هو معروف في الشرق ، فلست أميل إلى أي منهما ، بل أغلب جانب الشرع والورع! وكيف يجوز لكاتب عاقل فضلاً عن أن يكون مسلماً أن يعصي الله ويستره الله ، ثم يكشف ستر الله عليه ويظهر للناس معاصيه وخروجه على القيم والأخلاق ويكتب كل ما كان فيه مسفاً خارجاً عن القيم والأخلاق؟! وأي فائدة ودروس ومواعظ تعود على القراء إن هم قرأوا مثل هذه الموبقات والانحلال؟! على العموم قمت بتسليط الضوء على الجوانب القيمية والأخلاقية في حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر – رحمها الله رحمة واسعة -. كما قمت بكتابة شعوري شعراً إعجاباً بشخصيتها المحترمة وبأعمالها الخالدة الجميلة! والشعر شعور وعاطفة في مقامه الأول! وما يكون لي كشاعر أن أكتب عنها هذه الحقائق ثم لا أتأثر بها! إنني الأولى بأن أكون أول المتأثرين بها! ومن هنا ترجمتُ شعوري شعراً نابضاً حياً معبراً عن حقائق تأثرتُ بها! ولقد يظن البعض أنني بالغت في نثري وشعري! والحقيقة عكس ذلك! فإن الأميرة زبيدة تستحق الكثير والكثير! ولربما كانت سيرتي ومسيرتي عنها أول الغيث! حيث يُقيض الله تعالى من يُقدمها للناس بنص أحلى وأوقع وأجمل! ولقد اعتاد بعض الشعراء في العصر العباسي على زمانها يسرفون في المبالغة عندما تناولوها أو تناولوا الرشيد في أشعارهم! وكان هذا طلباً للمال أو لشيء ما في النفوس! ربما تكون الهيبة من السلطان وزوجته الأميرة! وتحت عنوان: (دلالة المبالغة الممتنعة على الأحوال النفسية في مدح الشعراء للخلفاء - أبو نواس نموذجًا) يقول الأستاذ الناقد عصام عبد الحافظ عبد العال عبد الحافظ ما نصه: (إن دراسة الوقوف على المعطيات النفسية التي جعلت الشاعر أشد انفعالًا وأكثر تأثرًا مما عليه الحال عند الإنسان العادي من خلال الاطلاع على جزئيات القصيدة وتراكيبها ، تعتبر هدفاً سامياً لتقييم النص الشعري ودلالاته! وما هي الأدوات اللغوية التي استعملها الشاعر ، ودلالاتها المعنوية ، وخصائصها البلاغية التي من خلالها نقف على الشحنة النفسية التي أوقعته في تلك المبالغة المثيرة للمتلقي بما فيها من معان ترفضها الطباع السوية؟ وما هو المعنى الحقيقي الذي يريد إيصاله للمتلقي ويجذبه نحوه ، ولكن من طريق خفي لمعالجة قضية حساسة مرتبطة بوجدانه الداخلي؟ ولقد لفتت مبالغات أبي نواس أنظار النقاد قديمًا وحديثًا باعتباره رائدًا لأولئك المحدثين من أمثال أبي تمام ، والبحتري ، وغيرهما ، ومن هنا وقع اختياري له دون غيره لعدة أسباب! منها أنه لم يتطرق أحد - فيما أعلم - لدراسة نفسية أبي نواس من هذا الاتجاه في مدحه للخلفاء متخذًا من المبالغة طريقًا لذلك ، بل إن الدراسات النفسية حوله كانت قائمة على حبه للخمر ، والمرأة ، وعلى تمرده ، وحبه لذاته ، وإيثارها على ذوات الآخرين ، وهذا ما فعله العقاد في كتابه:

(أبو نواس الحسن بن هانئ) ، والدكتور: محمد النويهي في كتابه: (نفسية أبي نواس) وغالبًا ما يصدر الحكم على مدائح الشعراء للخلفاء بالنفاق باعتبار أن القصد منه التكسب ، والشهرة ، والذيوع ، وهذا الحكم مع كونه لا يبعد كثيرًا عن الصواب إلا إن القطع بأن الشاعر ينافق ممدوحه ينبغي الإحاطة معه بالأبعاد الأخرى المختلفة المحيطة بالشاعر ، وخاصة النفسية منها ، خاصة حينما يتعلق الأمر بنفسية شاعر اتهم بالتمرد الفني وعدم الاقتناع بالأنماط التعبيرية ، والقوالب الشعرية التي أفرزتها القصائد القديمة. وهناك بعض الدراسات قد استهانت بالشاعر في مجال المديح ، فمن الباحثين من رأى أن مدائحه أقل وزنًا في النظرة الشعرية لما يبرز فيه من الصنعة والتكلف ، فأرادت هذه الدراسة أن تتلمس جانبًا مغايرًا لمثل هذه الأحكام من خلال الاطلاع على نفسية الشاعر ومشاعره).هـ. وهذا الذي فعلته عندما كتبت: (الأميرة زبيدة: طموح يتحدى الواقع) و(الشعر العربي يُحَيي الأميرة زبيدة بنت جعفر)! فلقد أخذت من محطات حياتها منطلقات للكتابة عنها شعراً! فجاءت القصيدتان بما أردته منهما تماماً وهو النظر للأميرة وتقديمها للقراء من نافذة الشعر! ولم أشأ أبداً وحاشاي أن أكتب قصيدتي الأميرة زبيدة على اللاشعر المنثور أو اللاشعر المتفلت! ذلك أنه لا شعر لا مستقبل له البتة! وعن مستقبل قصيدة النثر العربية يقول الأستاذ الشاعر السوري منذر مصري يقول ما نصه: (لم أجد عند الشعراء العرب ، قديمًا وحديثًا ، من أعطى شعر الآخرين ما يكفي من الوقت والجهد ، للحد المطلوب من الناقد. فأدونيس رغم الحجم الكبير لدراسته في «الثابت والمتحول» والعديد من كتبه حول الشعرية والحداثة وغير ذلك ، لم يقم بأي دراسة نقدية لشاعر ، إلا بعض المقدمات لعدد من المختارات الشعرية ، كمختاراته من قصائد يوسف الخال إصدار دار مجلة شعر 1962م. فجوهر عمل أدونيس حول الشعر تنظيري استشرافي أكثر منه نقدي. وكذلك ، بطريقة ما ، الدكتور كمال أبو ديب. وعشرات الشعراء العرب الذين إذا كان لهم مساهمات نقدية نظرية أم تطبيقية ، فهي لا تزيد عن كونها اجتهادات جاءت لتملأ الفراغ النقدي الذي يشكو منه الجميع. أما بالنسبة لي ، أنا الذي يحاول الآن معرفة المآل الذي ستمضي إليه قصيدة النثر في المستقبل ، فيومًا لم أَتَنَطَّع لأكون دارسًا لحركة شعرية ما ، أو لجيل شعري محدد! ويومًا لم أعمل على جمع مقدمات ، أو معطيات ، أستطيع أن أستنتج بواسطتها خلاصة ما. وكنت دائمًا أفتقد القدرة على إصدار أحكام ، فلطالما آمنت ببراءة الجميع ، وصدقت بما يسوقونه من مبررات وأدلة غياب. أما عن كوني ، مثلي مثل الكثيرين ، قد كتبت عددًا من المراجعات النقدية لمجموعات ولتجارب شعرية كنت أعرفها عن قرب ، بطريقة أو بأخرى ، فهذا شيء ، والقدرة على تقديم خلاصات أو تعميمات ، شيء آخر. ثانيًا- كنت أهزأ ، من بين الأشياء الكثيرة التي كنت أهزأ منها ، من أن للشعر ملكة التنبؤ بالمستقبل ، كتشبه الشعراء بزرقاء اليمامة أو كاهنة معبد دلفي ، ومن أنهم يتمتعون بقدرة سحرية على رؤية ما سيأتي في الغد ، وأشياء أخرى من هذا القبيل. فيومًا لم أقرأ شاعرًا عربيًّا أو غير عربي بلغ به الخبل لأن يقول: «سوف يحدث كذا ، وتنبهوا من كذا ، في المكان كذا ، والزمان كذا». ذلك أني لا أصدق أن إنسانًا عاقلًا ، شاعرًا كان أم غير شاعر ، يمكنه أن يدعي بأنه كائن استثنائي ، خرافي ، يملك المقدرة على معرفة الغيب. ما أستطيع الادعاء أني أعرفه ، هو ما مضى ، ما عبَر من أمامي وتنبَّهت له ، فقد كنت أردد قولًا ، لا أذكر من قاله: «لا أكتب إلَّا عمّا رأيت وسمعت». وهو قول أصلح للقصاصين والرواة منه للشعراء. ثالثًا - يحتاج البحث في مستقبل قصيدة النثر العربية ، متابعة حثيثة ، ومن ثم معرفة واسعة ، للأنسال الجديدة التي تدخل مضمار قصيدة النثر في البلاد العربية وخارجها ، الأمر الذي شُفيت منه وما عاد شغلي الشاغل منذ زمن ، فما أقوم بفعله اليوم هو أكثر ما يعنيني إن لم أقل كل ما يعنيني ، أما عن حرصي على الاطلاع على ما يكتبه الآخرون ؛ الأسماء التي أتابع تجاربها لأهميتها المؤكدة ، والأسماء التي يتناهى لي بعض التصفيق لها وهي تدلف الساحة ، الشعراء الجدد الذين يتواصلون معي ، فلم يكن يومًا بدافع المقارنة والحكم).هـ. والأميرة زبيدة جديرة باحترام أي شاعر محترم عبقري مُجدٍ منصفٍ ليكتب عنها!

لماذا هذه السيرة؟

الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر
(إنزال الناس منازلهم)

الحمد لله ربنا الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم. الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله الصادق الوعد الأمين ، بعثه الله رحمة للعالمين وحُجة على المعاندين ، وأيَّده بالآيات والمعجزات والبراهين ، فعلّم به من الجهالة ، وهدى به من الضلالة ، وبصّر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، وجعله حِرزاً للآميين ، ولم يزل منذ بعثه الله برسالته قائماً بأمر ربه على أكمل الوجوه وأفضلها ؛ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويبين للناس ما نزل إليهم من ربهم غاية التبيين ، حتى ترك أمته على المَحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين ، وما من شيء يقربهم من الجنة إلا وقد أمرهم به ، وما من شيء يقربهم من النار إلا وقد حذرهم منه ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة ، والله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ، فجزى الله عنا نبينا أفضل ما جزى أحداً من الأولين والآخرين ، فلقد بلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح أمته غاية النصح ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين. صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه دائماً إلى يوم الدين ، وعلى سائر إخوانه من المرسلين والنبيين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وبعد ، فإنني أهدي هذه السيرة والمسيرة عن أميرتنا المؤمنة الموحّدة زبيدة زوج الرشيد – رحمهما الله تعالى - لكل المؤمنين الموحّدين في شتى بقاع الأرض! وذلك لتكون أنموذجاً به يقتدى ومثلاً حياً به يؤتسى وقدوة آثارها تقتفى وأسوة على تتبع على مُدى ، وأتمنى أن تستثير الهمم والعزمات لتتصدى لما يواجهه الإسلام من تحديات في زماننا هذا! يقول الأستاذ أنور الجندي في مقال له عنوانه: (أقدّم لك الإسلام) ما نصه: (الإسلام منهج رباني جامع ، يعمل على بناء الفرد والأسرة والجماعة على أساس الإيمان بالله ، وعلى أساس التكامل والتضامن والعدل والرحمة والإخاء الإنساني ، وهو دعوة إلى بناء مجتمع ومنهج حياة يُقام لإسعاد البشرية ، وهو مختلف تماماً عن المناهج والأيديولوجيات التي قدّمها الإنسان لنفسه ، والتي ما تزال تضطرب وتتخبط ولا تحقق للبشرية شيئاً إيجابياً ، وها نحن نرى كيف يعيش المجتمع العالمي حياة مأزومة مضطربة ، لأنها خلت من الاستمداد من الله والتماس منهجه! ولما فصلت المناهج البشرية نفسها عن دين الله المنزل عجزت عن تحقيق الأمن للناس ذلك أن هذه المناهج فصلت بين الروح والمادة وبين السياسية والأخلاق وبين الدنيا والآخرة ، وما تزال المجتمعات العالمية تضطرب منذ أربعمائة عام وتتخبط عندما أقامت المنهج المادي العلماني الذي يمزق وحدة الإنسان الجامع بين الروح والمادة ، فأنت أيها الأخ الكريم ترى كيف تتخبط هذه المناهج ، وتضيف وتحذف ، ولا تستطيع أن تحقق شيئاً. وقد نشأت في المجتمع العالمي تلك الأزمة العميقة: وتلك الغربة والتمزق والغثيان نتيجة الانفصال عن الإيمان بالله وأخلاقية المجتمع والحضارة ، وقد ثبت لصيحات الأعلام والبارزين من المفكرين الغربيين بأنه لا طريق صحيح للبشرية إلا بالإسلام وحده وقد اعتنق هؤلاء الأعلام العقيدة الإسلامية بعد أن بحثوا سنوات طويلة وعجزوا عن أن يجدوا سبيلاً إلا عن طريق هذا النور الإلهي (وإسلام الدكتور بوكاي والفيلسوف جارودي) أخيراً من العلامات التي سبقتها علامات كثيرة. ولقد جرب الغرب مذاهب ودعوات مختلفة من الشرق

والغرب. وقد فشلت جميعها ، والعالم يتطلع إلى منهج جديد يُحرّره من العبودية والإباحية والشك والتمزق. وليس غير الإسلام هو الذي ينقذ البشرية ، ولكن كيف يمكن ذلك وأهل الإسلام أنفسهم مكبلون بقيود وثيقة للنفوذ الغربي بشقيه ، أنهم لا بد أولاً أن يتحرروا من هذه القيود وأن يُقيموا مجتمعهم ، ثم يقدموا الإسلام للبشرية. والحقيقة أن الإسلام يواجه تحديات خطيرة اليوم ، ويطالب المؤمنين به بأن يؤمنوا حتى يقوم الصف المسلم القادرعلى حماية الأمة من الانهيار والتمزق والسقوط في حلقة التبعية الخطيرة ، وهي المؤامرة التي تعمل الحضارة العالمية لتذويب المسلمين فيها بعد أن تفسد مفهومهم الصحيح لعقيدتهم ، وإثارة الشبهات حولها حتى يضيع ذلك النور القوي الذي يملأ القلوب ويدفعها إلى العمل لحماية بيضة هذا الدين ، والدفاع عنها والإعداد لمقاومة كل من يفكر في السيطرة عليها! وذلك بالمرابطة في ثغور الإسلام المادية والمعنوية لحماية الأمة من مؤامرة إذابة هذه الأمة في بوتقة الأممية ، فليس للمسلمين اليوم من مهمة في الحقيقة أكبر من الحفاظ على ذاتيتهم الإسلامية وشخصيتهم التي كونها لهم الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، حتى يظلوا مسلمين حقيقة ، وليسوا صورة ممسوخة من الأمم الأخرى ، وفي سبيل حماية هذه الذاتية يجب أن يحافظ المسلمون على عقيدتهم وعبادتهم ومفاهيمهم في المجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية ، حقيقة واضحة ، فلا يقبلون بالتبعية لفكر غير فكرهم ، أو الانبهار بمذاهب أو مناهج غير مذهبهم ومنهجهم الأصيل الذي كونهم منذ أربعة عشر قرناً وحماهم من الذوبان أو التمزق في حضارات أخرى ، فلن تستطيع أي أيديولوجية وافدة أن تعطي المسلمين قوة لتمكنهم من امتلاك إرادتهم وقد حدثت التجربة خلال السنوات الماضية وعجزت عن أن تحقق لهم شيئاً ، بل كانت سبيلاً للأزمة والهزيمة والنكسة وسقوط بيت المقدس وفلسطين في أيدي أعدائها ، وقد جرى ذلك نتيجة الخداع الذي كان يخدع هذه الأمة بأن التبعية للغرب هي التي ستمكنهم من الوصول إلى القوة وامتلاك الإرادة ، وقد ظهر كذب هذا ، وكانت كل الخطوات ترمي إلى إذابتهم في البوتقة العالمية وإضاعة ذاتيتهم ووجودهم الخاص المستقل ، كافة تحمل رسالة التوحيد الخاص ، إن المحافظة على الذاتية الإسلامية بعيدة الانصهار في بوتقة الأمم الأخرى هي أساس عميق من أسس الإسلام الذي جاء ليعيد الإنسان إلى الفطرة بعد أن أفسدته المطامح والشهوات التي غيّرت كلمة الله ، وأن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين هي خطر النفوذ الغربي والصهيوني والماركسي (مجتمعين) على إذابة المسلمين في بوتقة الحضارة الغربية التي تمر بأسوأ مراحل انهيارها).هـ. وصدق الأستاذ أنور الجندي فيما قال! ونحن على ذلك من الشاهدين ، وإنني أرى أن غياب القدوات والأسوات هو سبب رئيس في هذا الحال المتردي! والدكتور راغب السرجاني يسأل معنا سؤالاً في كتابه: (رسالة إلى شباب الأمة) فيقول: من القدوات والأسوات أمام الشباب؟ بعض الشباب يتخذ قدوته فنّانًا ماجنًا أقرب إلى النساء منه إلى الرجال! وبعضهم يتخذ قدوته لاعبًا أنفق زهرة شبابه في اللعب ، وقد يكون هذا اللاعب غير مسلم أصلاً ، ويصبح حلم حياة الشاب ، وهدف عمره أن يصبح لاعبًا مثله ، أو حتى يحصل على توقيع من هذا اللاعب القدوة! وبعض الشباب يتخذ قدوته مليونيرًا فاسدًا سرق أموال البلاد والعباد ، أو مسئولاً مرتشيًا تسلق على أكتاف الشعب إلى درجات عالية ما يستحق معشارها. وبعض الشباب يتخذ قدوته زعيمًا ماركسيًّا ، أو قائدًا ملحدًا ، أو أديبًا فاسقًا. وبعضهم قدوته من الشيوعيين أو النصارى أو اليهود أو الهندوس أو بغير ملة! وليس الكثير من أبناء الإسلام الذي يتخذ قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم! مع أن الله عز وجل يقول في كتابه بوضوح: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}. وليراجع كلٌّ منا الذين يعرفهم من شباب المسلمين. وليسأل كل واحد من هؤلاء الشباب هذا السؤال صراحة: من قدوتك؟! ادخلوا إلى حرم الجامعة ، وخذوا

عينة عشوائية من طلاب الجامعة الذين يسيرون في الطرقات ، أو يدخلون المحاضرات ، أو يجلسون في الكافتيريات ، واسألوهم هذا السؤال المباشر. من قدوتك؟! والله يا ليتنا نقوم بهذا الإحصاء لنعلم مَن مِن شبابنا يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومَن مِن الشباب يقتدي بالزبير أو طلحة أو سعد أو الأرقم؟ ثم مَن من الشباب يقتدي بالفنانين واللاعبين والأدباء والعلمانيين؟! إنها إحصائية مهمة ستضع الحقيقة أمام أعيننا. ومن الصعب أن تسأل شابًّا يسير برفقة فتاة لا يحلّ له أن يختلط بها ثم يقول لك: قدوتي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم! ومن الصعب أيضًا أن يقول هذه الإجابة مَن يمسك بيده سيجارة أو من يلقي بالنكات الماجنة ليُضحِك هذا وذاك. فلنراجع قدوة أبنائنا! ثم إنني مرة أخرى لا أعفي الشباب من المسئولية! فالرسول صلى الله عليه وسلم كقدوة ليس بعيدًا عن أيدينا. والله عز وجل قد حفظ لنا سنته وطريقته ومنهاجه ، والله عز وجل قد يسّر لنا من الدعاة والمربين من يتحدث عنه ، ويصف أفعاله ، ويشرح طريقته. نعم كثيرًا ما يُضيَّق عليهم ، ولكنهم - بفضل الله - ما زالوا يتكلمون. وهذا في كل قُطْر إسلامي ، وفي كل مدينة ، وفي كل شارع ، وفي كل مسجد أو جامعة أو نادٍ أو عمل. في كل مكان ستجد من يتكلم ويعلّم. لكن المهم في المقام الأول أن يريد الشاب أن يتعلم. لن تعجز أبدًا أن تصل إلى قدوة الرسول صلى الله عليه وسلم. ولن تعجز أبدًا أن تصل إلى قدوة الصحابة - رضي الله عنهم - أو قدوة الصالحين. الكتب والبرامج السمعية وبرامج الكمبيوتر موجودة الآن وبكثرة ، ولئن قَلَّتْ حلقات العلم إلى حد كبير ، فالوصول إلى العلماء ما زال ممكنًا. وأول الغيث قطرة ثم ينهمر. وإذن فبيت القصيد أن تبدأ في البحث عن قدوة صالحة ، والتاريخ الإسلامي زاخر بالقدوات الصالحة. كما أن الواقع الذي نعيشه ليس خاليًا من القدوات. والرموز الطيبة التي جمعت بين التمسك بالإسلام في العبادات والشعائر وبين الحياة بالإسلام في كل صغيرة وكبيرة موجودة ، بل كثيرة بفضل الله. وليس في بلد واحد ، بل في كل بلاد المسلمين ، وليس في مجال واحد ، بل في كل مجالات الحياة. في الدعوة والشريعة ، وفي الطب والهندسة ، وفي الكيمياء والفلك ، وفي الزراعة والصناعة ، وفي التجارة والاقتصاد ، وفي الكبار والصغار ، وفي الرجال والنساء ، وفي المتعلمين وغير المتعلمين. القدوات الصالحة التي عضّت على دينها بالنواجذ ، وتمسكت بشرع ربها – سبحانه - ، لن تنعدم أبدًا من أمة الإسلام ، والخير لا ينقطع أبدًا في هذه الأمة ، وإلى يوم القيامة ، بشرط أن يبحث الشاب عن قدوته في المكان الصحيح ، وبالطريقة الصحيحة. ليس المهم في القدوة هو المنصب والمظهر والمكانة الاجتماعية والوضع الاقتصادي والبريق الإعلامي ، إنما المهم حقيقة هو الدين والخُلق والعمل والجدية. وموضوع القدوة هذا ليس موضوعًا جانبيًّا في حياة الشاب ، بل هو موضوع أساسي ومحوري ؛ فجميع الأمثلة التي ذكرناها من جيل الصحابة ، أو مَن جاء بعدهم ، كانوا يتخذون الرسول صلى الله عليه وسلم قدوةً في حياتهم بوضوح. فهم يتلمسون أقواله وأخباره وأفعاله ومواضع قدمه وكلامه وصمته وحركاته وسكناته وكل شيء في حياته. فكان لهم الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة عامة. ثم إن كل واحد منهم كان لهم قدوة خاصة في بيته ساعدته على الارتقاء والتقدم والنبوغ ؛ فأسامة بن زيد – مثلاً - رباه الصحابي الجليل زيد بن حارثة رضي الله عنهم أجمعين. وزيد بن ثابت ربته الصحابية الجليلة النوار بنت مالك رضي الله عنها. ومعاذ بن عمرو بن الجموح ربّاه الصحابي العظيم عمرو بن الجموح رضي الله عنه. وهكذا نشأ هذا الشباب الصالح في بيئة ساعدته على التقدم والارتقاء ، فكان هذا الإنجاز الراقي الذي قدّموه لنا وللبشرية).هـ. والحقيقة أن الكتابة عن الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله رحمة واسعة – ليس الهدف منها التدشين أو الإطراء أو المدح أو الإشادة. وإن كانت هي أهلاً لذلك كله. ولا نزكيها على الله تعالى ، ونحسبها كذلك. والله - عز وجل - حسيبها ووكيلها. وإنما الكتابة عنها من باب

تقديمها للناس وللتاريخ وللعالم كما هي ، بكل طبيعتها وبدون رتوش وبدون مبالغات. وذلك في محاولة متواضعة منا لتقديم النموذج الأمثل للشخصية النسائية المؤمنة الطاهرة بدلاً من الرقيعات الفاجرات عواهر السينما والتليفزيون! إن الكتابة عن الشخصيات الرائدة فن عظيم. وما أجمل أن تكون هذه الكتابة بطبيعتها وتتوفر فيها المصداقية. وما أعظم أن تقدم الإنسان للناس كما هو حتى يثق الناس فيمن كَتب وفيمن كُتب عنه. ومن هذا المنطلق كانت الكتابة الصادقة أسرع وصولاً إلى القلوب منها إلى الكتابة المتأنقة المبالغ فيها. وإن كل كاتب يوماً ما سيزول ، وتبقى كتابته فلتكن صادقة مخلصة. وكذلك كل مكتوب عنه يوما ما سيرحل ، فلتكن السيرة العطرة الصادقة الباقية من بعده ، والتي تصف مشوار الحياة بطبيعته ليكون قدوة للناس وأسوة لمن يريد أن يسير على ذات النهج. ومن هنا آثرنا المِصداقية منذ أول وهلة. إن الكتابة عن الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر من باب إنزال الناس منازلهم كما طلب النبي – صلى الله عليه وسلم - من أهل الإيمان والإسلام. وكم في أمتنا المسلمة من العبقريات المتفوقات المبدعات المتميزات في جميع مجالات الحياة الكريمة التي يحبها الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وكن قد حققن الأرقام القياسية في التفوق والتميز معاً. ممن عرفهن التاريخ والعالم وممن آثرن البعد عن الأضواء. ولكن العبقرية والتفوق والإبداع والتميز عند الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر اختلف كل الاختلاف عن الآخرين والأخريات. ومن هنا أدرك المُطالع لسيرتها أنه أمام قمة من الطموح الذي يتحدى الواقع المعاش حتى يمكننا القول بأننا – بدون مبالغة - أمام شخصية تعيش في غير زمانها وفي غير مكانها. وصدق من قال مادحاً:-

فلـــــو كـــــان الرجـــــال كمثـــــل هـــــذي لفضـــــلتِ النســـــاء علـــــى الرجـــــالِ

فمـــــا التأنيـــــث لاســـــم الشـــــمس عيـــــبٌ ولا التـــــــذكير فخـــــــرٌ للهـــــــلال!

إن كل خبر من أخبارها ، وكل ترجمة من ترجمات حياتها ، وكل منقبة من مناقبها لجديرة بالوقوف أمامها طويلاً. وليس هذا من قبيل التزلف والإنشاء وملء الأوراق بالكلمات الغضة المترنمة. بل سوف يدرك المُطالع لهذه السيرة الذاتية أن أعمالها تشهد بذلك. وإن المتصفح معنا لهذه الأوراق سوف يُدرك تمامَ الإدراك أنه أمام عبقرية من عبقريات الأمة المسلمة في عصر التابعين. بل أمام امرأة فذة جليلة القدر والمقام من عظيمات أمة الإسلام التي قل أن تجد مثلها في زمانها. ولا نزكي على الله أحداً. وهي معروفة مشهودة مشهورة على النطاق الإقليمي والدولي – ولا شك في ذلك – فلقد كانت محط اهتمام العديد من المستشرقين والباحثين الغربيين فضلاً عن العرب والمسلمين! فلقد توقفوا عندها طويلاً ، وحللوا شخصيتها بما خلف الكثير من المقالات التي تجلي حقيقة ما تمتعت به من عذب الخلال والخصال! ولكننا في هذه السيرة الذاتية المدعومة بالوثائق والمَشاهد والشهادات نحاول أن نضيف الكثير من المعلومات والأخبار مما لا يعلمه الناس عنها. وسوف نحاول أن نلقي الضوء على معالم شخصيتها ونشأتها وثقافتها المتنوعة والعوامل التي أثرت فيها وجعلتها من خِيرة النساء فيما نعلم والله حسيبها – عز وجل -. كما سنحاول في هذه الدراسة إحاطة القراء علماً بما تعمدت أن تخفيه عن الناس من سيرتها الزكية ومواقفها النبيلة المؤثرة للأجر الرباني. نفعل ذلك لحث الناس على جميل ما فعلت ، ومن باب: (لمثل هذا فليعمل العاملون) ، ومن باب: (وفي هذا فليتنافس المتنافسون) ، ومن باب: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين). وقد أجاز كثير من أهل العلم صدقة العلانية من هذا الباب ، أي

باب حمل الناس على الصدقة والتأسي بمن تصدق. إننا إذ نفعل هذا وفي عجالة من أمرنا على ضيق الإمكانيات والروافد (أعني إمكانيات الحصول على المعلومات الكافية) نحاول أن نسابق الزمن لنقدم للأجيال القادمة نموذجاً نسائياً يحتذي ، ومثلاً من البطولة والفداء والعمل الخيري يقتدى به في زمان غياب القدوات وضياع الأسوات. إن مثل هذا العمل المتواضع ليجسد شخصية جديرة بالحديث عنها طويلاً والوقوف على معالمها. وأمد الله أخواتنا الفضليات بالمقدرة على التأسي ، وبارك الله فيهن ، ورزقهن العمل الصالح ، وإننا لنخشى أن تمر الأيام ويدور الزمان دورته ، ونرحل عن دنيانا التي فيها معاشنا إلى أخرانا التي إليها يوماً معادنا ، وتسأل الأجيال عن عبقريات الأمة وقدواتها من النساء فلا يجدون سوى ربّات السقوط والتردي ، وقد دونت عنهن المجلدات وعن سقوطهن وهزلهن. ورأينا أن ندوّن سيرة ذاتية على شكل ترجمة تفصيلية عن هذه الشخصية المباركة بكل نزاهة وشرف ، وبكل حيدة علمية وبكل موضوعية مُحِقة للحق. ولسوف يجد المطالعون لهذه السيرة المواقف الداعمة والأنشطة الفعالة والكلمات الخالدة والشواهد الدالة على تلك المواقف ، في محاولة منا لإبراز هذه الشخصية للعالم. كما سنحاول إبراز معالم الطموح الذي يتحدى الواقع. حيث تمكنت الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله تعالى - في فترة وجيزة من إنجاز ما قد يعجز عنه رجال آخرون عندهم من الإمكانيات أضعاف ما عندها ، ولكنهم صدقاً قد يعجزون عن مثل عملها! مما يجلي صدق النية ونزاهة الإخلاص. والله نسال أن نكون موفقين فيما قلنا. إنها بركة الله ورحمته قد خص بها الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله تعالى - حتى تنجز هذه الإنجازات وتصل هذا الوصول نحو القمة من الإقليمية إلى العالمية. وهذا من فضل الله – عز وجل – عليها. إن الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله تعالى - بهذا العمل وبهذا الأداء تكون رائدة عظيمة من رائدات العمل الخيري والتطوعي في أمة الإسلام في عصر العباسيين - بل هي في طليعة قيادات العمل التطوعي والخيري ، إذ هي موضع اعتزاز وتقدير لدى الجميع هنا وهناك! فالغالب الأعم من المؤرّخين وكُتاب السيرة والتاريخ يعرفونها بمواقفها النبيلة الداعمة للعمل الخيري والتطوعي. وهي بذلك إحدى القيادات النسائية المسلمة الفذة التي جمعت في مواقفها الاجتماعية والإنسانية مكارم الأخلاق والفضائل والعلم والمعرفة ، تلك الداعية إلى الاحتكام إلى الدين والعقل والمنطق والتمسك بالحق والعدل والالتحام بقضايا الوطن وهمومه وحاجات الأسرة والطفل والمرأة المسلمة بوجه خاص: (وأنذر عشيرتك الأقربين) والعربية الإسلامية بوجه عام. (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين). نعم إن للأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله تعالى - اهتماماً فريداً بالمرأة العربية الإسلامية بوجه خاص وبالمرأة المسلمة بوجه عام ، ولكن اهتمامها بهموم المرأة المسلمة بوجه أخص. ومن هنا تتكامل شخصيتها فلا تكون قومية تهتم بالقضايا الإقليمية فقط ، ولا هي تهتم بالمرأة عالمياً وتنسى بنات بلدها. بل كانت وسطاً: تعيش تهتم بقضايا المرأة المسلمة بوجه خاص ، وتهتم كذلك بالمرأة العربية المسلمة في الديار العربية ، ثم تهتم بالمرأة المسلمة ولو في غير الديار العربية مما حدا بها إلى السفر يميناً وشمالاً إلى خارج مملكتها. حتى قال من العهدة عليه في الرواية: إن الأميرة زبيدة بنت المنصور بن جعفر – رحمها الله تعالى – بذلت الكثير والكثير دعماً للقضايا الإسلامية والإنسانية والخيرية. وتحت عنوان: (اعتذروا لزوجة هارون الرشيد!) يقول الأستاذ خلف الحربي ما نصه: (لا أعلم كيف أروي لكم الحكاية؟ هل أعود بكم إلى بداياتها قبل مئات السنين في قصر الخليفة العباسي هارون الرشيد؟ أم أختصرها وأبدأ من منتصفها قبل ثلاث أو أربع سنوات في منزل أبو الشيماء الأستاذ محمد سعيد طيب في جده؟ أم أبدأ من نهايتها المضحكة المبكية التي وجدتها في خبر صحفي نشر أمس حول ما حدث شرق منطقة القصيم؟! وما هو أهم من لحظة البدء

هو الهدف الذي يجب أن أركز عليه من خلال سرد القصة ، فهل أركز على قضية التفريط بمصادر المياه في بلد يعاني من شح المياه ، ويعتمد بشكل شبه كلي على تحلية مياه البحر؟ أم أصب تركيزي على قضية إهمال الآثار وإهانة التاريخ؟ ومن الأفضل أن أترك الأمر لكم كي تدلوني على الطريقة الصحيحة لسرد هذه الحكاية المتداخلة ، ففي عصر الخليفة هارون الرشيد قامت زوجته زبيدة بواحد من أهم الأعمال الخيرية في التاريخ ، حيث شيدت المشروع الجبار الذي يعرف اليوم باسم (عين زبيدة) لسقاية أهل مكة المكرمة وحجيجها ، ولم تغفل في مشروعها هذا الطرق التي يسلكها الحجاج للوصول إلى مكة المكرمة ، حيث شيدت محطات على امتداد الطريق إلى مكة المكرمة تحتوي على عيون ماء واستراحات للقوافل التي تعبر الجزيرة العربية باتجاه البيت ، وهي حكاية رائعة تستحق أن تطلعوا على تفاصيلها في بطون الكتب أو على شبكة الإنترنت. أما ما حدث في بيت أبي الشيماء العامر في جده فأذكر أنني قبل ثلاث أو أربع سنوات قمت بزيارة مجلسه الذي يضم نخبة من المثقفين والمفكرين وكانت هناك محاضرة للدكتور عمر أبو رزيزة عميد كلية الهندسة في جامعة أم القرى ، وكان يشرح من خلالها الإعجاز الهندسي في مشروع عين زبيدة ، مستعيناً في ذلك بالصور المكبرة والوثائق والحسابات الهندسية الدقيقة ، مؤكداً أن هذا المشروع العظيم لا يزال قادراً على توفير المياه الصالحة للشرب لسكان مكة المكرمة وحجيجها حتى يومنا هذا ، لقد كانت المعلومات مذهلة! فقد ضرب المهندسون الأوائل الذي أقاموا هذا المشروع حساباً لكل شيء ، وتعاملوا مع التضاريس والتشكيلات الطبيعية بما يخدم هدفهم ، ولكن ما يعيق عملية إحياء هذا المشروع العظيم من جديد هو فوضى البناء الحديث والحواجز التي أقيمت في طريق المياه المتدفقة من أعالي الجبال ، وكانت المعلومات مذهلة لكل من حضر تلك الجلسة ، وقد ذكر الدكتور أبو رزيزة أن طريقة التحكم بمسارات المياه كانت مذهلة أيضاً لوفد ياباني اطلع على تفاصيل هذا المشروع التاريخي. وأذكر يومها أنني سألت المُحاضر الكريم عن محطات وبرك مياه في منطقة القصيم تحمل الأسم ذاته (عين زبيدة) ، فأكد أنها مرتبطة بهذا المشروع الجبار وأن الهدف الأساسي بالنسبة لزبيدة أو حتى بالنسبة لمن ساهموا في تطوير المشروع بعد وفاتها كان سقاية الحجاج ، ولكنه يمكن أن يكون أحد الحلول الذهبية لمشكلة شُحّ المياه في الجزيرة العربية ، ومتى ما تمت إعادة إحياء المشروع الأساسي في مكة المكرمة ، ومن بعد ذلك إعادة إحياء المحطات المرتبطة به ، فإن ذلك سيؤدي إلى استغلال مصادر المياه بشكل مثالي. وبالأمس نشر خبر صحفي يقول: لم يتبق من آثار طريق الحاج القديم وتعرف باسم قصر زبيدة والبريكة الواقعة شمال غرب مركز الربعية – 50 كم شرق بريده – إلا لوحة وضعتها الهيئة العامة للسياحة والآثار للدلالة عليها ؛ وذلك بعد أن طمرت مياه الصرف الصحي كامل الموقع! أما بقية الخبر ففيه أن الآثار تعرضت لأضرار كبيرة ، وأن فكرة أحد أعضاء المجلس البلدي بالاستفادة من مياه البركة لم تجد أي اهتمام ، وأن كل ما فعلته هيئة السياحة هو (تشبيك) الموقع الأثري وها هو اليوم يغرق في مياه المجاري ، عذراً يا زبيدة. يا زوجة هارون الرشيد. فنحن لم نستفد من المياه ، ولم نحترم الآثار ، ولم نسلم من مستنقع الصرف الصحي. والآن أعيدوا ترتيب الحكاية كما تشاؤون لتتأكدوا أننا لا نتقدم إلى الأمام ولا نعود إلى الوراء. بل (نفحط) في مكاننا! فنفسد كل شيء جميل).هـ. وذكر ابن خلكان أنه كان لزبيدة مائة جارية يحفظن القران الكريم ، وقد عين الأمين 175هـ وليًا للعهد وهو أصغر سنًا من أخيه المأمون ، وكان ذلك بضغط من الهاشميين أخوال الأمين وبعض البرامكة ، وبالنسبة للمأمون كانت أمه جارية اسمها مراجل ماتت بعد الولادة ، فضمت زبيدة المأمون إليها بينما لم يبايع المأمون بولاية العهد بعد الامين إلا عام 183هـ. وقال: إن زبيدة أصدرت بعض الدراهم الفضية وعددها 7 نادرة ، وكان أول درهم أصدرته زبيدة عام 184هـ وضرب

بالكاملية ورفعت عليه اسمها (أم جعفر بنت أبي الفضل) ، وهذا الدرهم يثبت أهمية هذه السيدة سياسيًا ومكانتها ودورها في الأوضاع السياسية ، وكما هو معلوم فإن مباشرة العيار وإصدار العملة من شارات الملك والسلطة الثلاث ، لكن هذه السيدة كسرت القاعدة ، وأصدرت هذا الدرهم المختلف كليًا عن الدراهم العباسية الأولى ، ولغرض شخصي ودعائي لأحداث سياسية كنوع من الدعاية أو الفرحة بتوثيق الولاية بالعهد في سنة 185هـ. وقد سجلت الكتابات على وجهى الدرهم بالخط الكوفى على النحو التالى ، الوجه: ادخلوها بسلام / آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل ، والهامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم بحدائق ذات بهجة سنة خمس وثمنين ومئة ، والظهر: إخواناً على سرر متقابلين / لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ، والهامش: مما أمرتْ به أم ولي عهد المسلمين على يد ياسر بركة من الله ، ويعتبر هذا الدرهم من دراهم الصلة نظرًا لاختلاف كتاباته وتنوعها عن الدراهم الأخرى ، ويعبر عن مكانة السيدة زبيدة وتأثيرها السياسي ومشاركتها في صُنع القرار في الدولة. وأشار إلى أنه لم يتم العثور على مكان السك الحدائق ذات بهجة ، ولم يذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان ، وورد ذكر حدائق ذات بهجة في القران الكريم ويقول الله تعالى: (أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) ، والمعروف عن زبيده أنها ذات أملاك وإقطاعات وضِياع وربما كان هذا اسم ضيعة أو إقطاع ومن الاسم يدل على أنها ذات حدائق غناء تجلب الفرح والسرور والبهجة إلى النفس. أما آية (ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل) ، فربما تقصد الأخوين المأمون والأمين ، بأنهم اجتمعوا عندها في الحدائق وأنهم على وفاق رغم كيد المتآمرين من البرامكة وبعض الأمراء على إيقاد فتيل الفتنه بين الأخوين ، وأنه نزع الغل بتولية المأمون وليًا للعهد بعد أخيه الأمين المقبلة ، أما عبارة (إخواناً على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) ، فإن هذه الآية تؤكد أنهما أخوان مهما حاول الآخرون إثارة الفتن بينهما ، وأنهما لن يخرجوا من السلطة والملك ، وفي الهامش (مما أمرت به أم ولي عهد المسلمين على يدي ياسر بركة من الله) ، وهنا تؤكد زبيدة أنها صاحبة قرار وسلطة بإصدار هذه العملة وأثبات ولاية العهد لابنها الامين وياسر هو خادم زبيدة).هـ. وتحت عنوان: (هارون الرشيد ويمين بالطلاق!) يقول الأستاذ محمد الكيلاني ما نصه: (لقد كان الليث بن سعد في بغداد عاصمة الخلافة ، وحدث أن السيدة زبيدة أغضبت زوجها هارون الرشيد ، فحلف يميناً بالطلاق أن لا تبيت في بلدٍ يدخل تحلت سلطانه. فلما سكت عنه الغضب. وكان الرشيد مولعًا محباً لها بزبيدة. وعاد لرشده بعد يمين الطلاق ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، فاشتد الخطب وفدح الأمر فى بلاط الخلافة. ورفعت درجة الطوارئ في القصر. فالحاشية تخشى مصيرًا مجهولًا من الخليفة. ومع دوران الساعة. ذهبت الحاشية إلى الفقية أبي يوسف لتجد عنده المخرج والفتوى التي لا تفرق بين أمير المؤمنين وزوجته التي قد شغفها عشقًا وحبًا. وهنا خرج فقية مصر حاد الذكاء وسريع البديهة ليأت للبلاط والحاشية بالحل الأمثل الذي يريح جميع الأطراف ويزيل الغضب والطوارئ عن القصر فيقول أبو يوسف: فلتبتْ زوجة أمير المؤمنين بالمسجد. فإنه لا ولاية لأمير المؤمنين على المسجد ، والله سبحانه وتعالى يقول: «وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا». وما أن أفتى أبو يوسف فتواه حتى علت صيحات الفرح ، وامتلأ القصر بالزغاريد وانبعث الفرح والسرور على وجه هارون الرشيد. وأمر أن يحصل أبو يوسف على مليونين من الدنانير وأهدته زبيدة مليونًا آخر وقالت: والله لولا أنني استحيي أن تفوق هديتى هدية أمير المؤمنين لكنت قد ضاعفت ذلك).هـ. وإن كنا قد أوردنا ذلك الخبر ، وعزوناه لزبيدة نفسها من قبل ، ونحن نعرِّف بها في بداية: (السيرة والمسيرة) ، وقلنا بأن هذه الفتوى كانت من فقه وعلم وحنكة وحكمة زبيدة ،

والآن ها نحن نورد رواية أخرى للخبر بأنها فتوى الليث بن سعد ، ورواية ثالثة لذات الخبر بأنه من فتوى الإمام مالك واجتهاده بطلب من الرشيد أو من زبيدة! فكيف نوفق بين هذه الآراء وتلك الروايات؟ يمكن أن تكون زبيدة قد استشارت مالكاً أو الليث وأخذت الفتوى جاهزة وساقتها إلى هارون! ويمكن أن يكون الرشيد قد استشار واحداً منهما! ويمكن ألا يكون للإمامين أدنى صلة بالفتوى! ويمكن أن يكون ذلك خبراً شائعاً منسوباً لزبيدة تارة وللرشيد تارة ولليث بن سعد تارة ثالثة ولمالك تارة رابعة ، ولا أساس له من الصحة ولا تعرف الحقيقة له وجهاً! والله أعلم! المهم أنني حاولت تقديم الأميرة الخلوقة العظيمة زبيدة بنت جعفر بن المنصور للناس وللتاريخ مبيناً مناقبها وسؤددها وأخلاقها ، ومن هنا كانت الكتابة عنها نثراً وشعراً دَيناً يؤديه لها كل من علم عنها قصة الطموح الذي يتحدى الواقع ، لكي يقدم للتاريخ وللدنيا عبقرية مسلمة فذة متميزة في سطور معدودة ، وما أظنه قام بواجبه كما ينبغي ، وإن هو إلا جهد المقل المحاول. وتأتي هذه المحاولة الدقيقة ترجمة لما نكِنه لها من حب وتقدير وامتنان! وأيضاً نقدمها مثلاً يحتذى ومثالاً يقتدى في زمان غياب القدوات في زمان قلّ خيره وكثر بلاؤه وشره! سائلين الله العلي القدير أن يأجرها ويكثر من أمثالها ويبارك في عملها وجهودها ويغفر لها ذنوبها ، وأن يتجاوز عنا وعنها وأن يتقبل منا ومنها. ويجعل هذا العمل المتواضع في الحديث عنها متقبلاً عنده ، وأن يغفر لنا زلات هذا العمل ، وأن يبارك لنا شرف المحاولة ، ونشهد أن ما كان في هذا العمل من خير فمن الله وحده وبتوفيق منه وحده ، وما كان فيه من خطأ فمن أنفسنا ، والله غفور رحيم.

(المولد و النشأة)

في هذه الأرض من أجواء الجزيرة العربية ، تلك الأرض التي روّاها الصحابة الكرام بدمائهم وأقاموا عليها دين الله تعالى. في هذه الأرض التي شهدت المعامع والملاحم التي كانت من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل وتمكين شرع الله فيها. في هذه الأرض التي رزقها الله كل أنواع النعيم والخير ابتداء من نعمة الإسلام ، منذ فتحها للإسلام الحق على أيدي صحابة النبي – صلى الله عليه وسلم – الأبطال الفاتحين ، ومروراً بعهد الراشدين الأربعة الكِرام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم أجمعين – وعصور الذين تبعوهم من الأمويين والعباسيين ، وحباها الله كل أنواع النعيم والخير! في هذه الأرض ولدت (زبيدة)! في البداية والنهاية لابن كثير يقول عنها وبالنص: (إنها أم العزيز امرأة الرشيد وابنة عمه. وهي: زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، العباسية الهاشمية القرشية ، كانت أحب الناس إلى الرشيد ، وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر ، وكان له معها من الحظايا والجواري والزوجات غيرها كثيراً ، وإنما سُميت (زبيدة) لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يُلاعبها ويُدللها ويُرقصها وهي صغيرة ويقول: إنما أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها فلا تُعرَف إلا به ، وأصل اسمها: أم العزيز. وكان لها من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شيءٌ كثير. وروى الخطيب أنها حجّت فبلغتْ نفقتُها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم. ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت: هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده ، وما خسر من اعتاض مثلك ، ولا ثكلت أمٌ ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما عوّض. ثم قال الخطيب: حدثني الحسين بن محمد الخلال لفظاً ، قال: وحدّث أبا الفتح القواس ، قال: حدّثنا صدقة بن هبيرة الموصلي ، حدثنا محمد بن عبد الله الواسطي ، قال: قال عبد الله بن المبارك: (رأيت زبيدة في المنام بعد موتها فقلتُ: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لي في أول مِعْول ضُرب في طريق مكة. قلت: فما هذه الصفرة؟ قالت: دُفن بين ظهرانينا رجل يقال له: بشْر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة ، فاقشعر لها جسدي ، فهذه الصفرة من تلك الزفرة). وذكر ابن خلكان (أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم ، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ ، وكان يُسمع لهن في القصر دَويٌ كدوي النحل ، وكان ورد كل واحدة عُشْر القرآن. وورد أنها رؤيتْ في المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت: ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعنا إلا ركعات كنتُ أركعهن في السحر).هـ. إنها إحدى زهرات بني العباس ، تلك التي رضعتْ لبان طفولة طبيعة كريمة. إذ لا شيء بعد الإيمان بالله ورسوله يَعدل الأبوين في الدنيا ، ولا يُدرك ذلك كثيرٌ من الناس اليوم. والطبيعة العذبة في الديار العربية – حدّث ولا حرج – من الهدوء والصحراوية والبداوة والعصامية والشاعرية. ولعل هذه المعاني قد قلصها نسيم الحضارة اللافح اليوم. لكن الأميرة العباسية القرَشية شهدتِ المدينة هناك في عالم آخر من هدوئها ورونقها وطبيعتها غير المشوبة ، بأي لون من ألوان الماديات المزخرفة اليوم تلك التي غطت على كثير من حلاوة البادية. وإذن فنشأة الأميرة زبيدة نشأة بدوية في أحضان الطبيعة الخلابة على يد أب بدوي أصيل عربي مسلم كريم من البيت النبوي الهاشمي ، وأمٌ كذلك بدوية تُحب البداوة وكرمها ونبلها وشهامتها. تلك البداوة التي صوّرها أحمد شوقي في مسرحيته (مجنون ليلى) فقال حكاية عن ليلى العامرية مادحاً البادية العربية الأصيلة:- عندما كانت ليلى تنتصر للبادية ولأهلها ولعاداتها ولتقاليدها ، فتخاطب ابن ذريح قائلة له:-

أعرنـــي ســـماعك يـــا ابـــن ذريـــح ولا تســـمع الطفلـــة الهاذيـــة

أتيـــت لنـــا اليـــوم مِـــن يثـــربِ فكيـــف تـــرى عـــالم الباديـــة؟

أكنـــتَ مِـــن الـــدور أو فـــي القصـــور تـــرى هـــذه القَبَّـــة الصـــافية؟

كـــأن النجـــومَ علـــى صـــدرها قلائـــدُ مـــاسٍ علـــى غانيـــة

وطبعاً لم يُعجب هذا الكلام هنداً التي فتنت بحياة الحاضرة ولذا نقمت على البادية فتقول لليلى:-

كفـــى يـــا ابنـــة الخـــال! هـــذا الحريـــرُ كثيـــرٌ علـــى الرمّـــة الباليـــة

وتزيد الأمر وضوحاً فتخاطب ابن ذريح قائلة ، وهي معترضة على رؤية ليلى المادحة للبادية:-

تأمـــل تـــرَ البيـــدَ يـــا ابـــنَ ذريـــحٍ كمقبـــرةٍ وَحْشـــةٍ خاويـــة

ســـئمنا مِـــن البيـــد يـــا ابـــن ذريـــحٍ ومِـــن هـــذه العيشـــة الجافيـــة

ومَـــن مُوقِـــد النـــارِ فـــي موضـــعٍ ومِـــن حالـــب الشـــاة فـــي ناحيـــة

وراغيـــةٍ مِـــن وراء الخيـــام تُجيـــبُ مِـــن الكـــلأ الثاغيـــة

وأنـــتم بيثـــربَ ، أو بـــالعراق أو الشـــام فـــي الغـــرف العاليـــة

مُغَنِّـــيكمُ (مَعبَـــدٌ) و(الغـــريضُ) وقينتنـــا الضَّـــبُعُ العاويـــة!

وقـــد تـــأكلون فنـــون الطهـــاةِ ونأكـــلُ مـــا طهـــتِ الماشـــية!

فتعود ليلى إلى سابق فِكرتها من تبني فكرة الدفاع عن البادية وحياتها وعاداتها وتقاليدها:-

قـــد اعتَســـفَتْ هنـــدُ يـــا ابـــن ذريـــحٍ وكانـــت علـــى مَهـــدها قاســـية

فمـــا البيـــدُ إلا ديـــار الكـــرامِ ومنزلـــة الـــذمم الوافيـــة

لهـــا قِبلـــة الشـــمس عنـــد البـــزوغ وللحَضَـــرِ القِبلـــة الثانيـــة

ونحـــن الريـــاحينُ مـــلء الفضـــاء وهـــنَّ الريـــاحينُ فـــي الآنيـــة

ويقتلنـــا العِشـــقُ والحاضـــراتُ يقمـــن مِـــن العشـــق فـــي عافيـــة

ولـــم نصـــطَدِم بهمـــوم الحيـــاةِ ولـــم نَـــدرِ – لـــولا الهـــوى- مـــا هيـــه!

وآنـــــاً نخـــــف لصَـــــيْد الظبـــــاءِ وآنـــــاً إلـــــى الأسُـــــدِ الضـــــارية

فاختتمتْ هند المشهد بهذه السخرية الشعرية الخاطفة ببيت واحد تقول فيه:-

وفـــــي كـــــل ناحيـــــةٍ شـــــاعرٌ يُغَنِّـــــي بلـــــيلاهُ ، أو راويـــــة

ومن هنا يمكننا القول بأن هناك عوامل ساعدت على توجه الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - هذا التوجه. من البيئة التي تربت فيها ومن الأب والأم والعم والجد والجدة والعائلة والمجتمع بأسره. ولله الحمد. وهذه أخبار تكاد تصل إلى حد التواتر. فوالدٌ مسلم مؤمن موحد عربي بدوي هاشمي قرشي بطبيعته كثير التسامح ، كثير الإنفاق في سبيل الله ، كثير الإحسان والصدقات ، يعفو إن أسئ إليه ، ويعطف على المساكين والمحتاجين ويحب الخير. وهذه كلها شهادات من عاصروه عليه. وأمٌ كثيرة الصدقات والإنفاق من مالها الخاص ، كثيرة إقامة المساجد في ديار الإسلام ، كثيرة حفر الآبار ، كثيرة البذل في سبيل الله تعالى. كثيرة الحج والعمرة وصيام النافلة ، وتلك أشياء الدليل عليها أوضح من أن يتوضح لعلم الكثيرين بها. وجَدٌ جَنده الله لها منذ طفولتها مُوجهاً ومُرشداً وناصحاً وداعياً إلى الخير ، بل وقدوة عملية في الإنفاق والبذل والعطاء والسخاء والثقافة. وبيئة معينة ليست نشازاً. فبداوة طيبة وطبيعة خلابة ومجتمع مساعد متعاون متحاب. وبيت حكم وعائلة مترابطة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ والقِدم ، عربية أصيلة ليس فيها عرق واحد بعيد عن عروق ودماء وشرايين وأوردة وقلوب العرب الخلص. كل ذلك ساعد على تكوين شخصية الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - منذ الطفولة لتجد آثاره باقية في مستهل عقدها الأربعين بارك الله فيها ورزقها طول العمر وحسن العمل. وإذا كانت العرب قد اعتادت في الزمن الأول على إرسال أطفالها إلى البادية ، ليرضعوا لبان القيم والأخلاق وعادات وتقاليد العرب الأصيلة ويدفعون المال لمن يقوم لهم بذلك. إلى أن صار ذلك ديدن العرب وطابعهم في جميع القبائل والبطون . حيث أورد ابن إسحاق والواقدي وابن كثير وابن هشام وغيرهم أن قبيلة بني هاشم أرسلت بابنها محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - وهو طفل رضيع مع حليمة السعدية ليُربى في مضارب بني سعد ، دافعين لحليمة بالدراهم لفعل ذلك. إلا أن البادية سِيقت بقدر من الله للأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - ، وكان يمكن لها أن لا تفيد منها شيئاً ، ككل طفلةٍ في بيت حُكم هذا شأنه. فما لها وللصحراء؟ وما لها وللقحط والقيظ والرمال؟ وما لها كذلك وللصيد "صيد الظباء أو ما تصيده الصقور؟" وما لها وللخيل وركوبها؟ وما لها ولحياة البادية أصلاً؟ إلا أن الله أراد بها الخير ، إذ نهلت كما أسلفنا ، ونكرر أعذب ما في البادية. ونشأت نشأة بدوية حضرية طيبة إلي حدٍ بعيد. الأمر الذي أضفى بَصَماتِه على معالم شخصيتها فيما بعد ، حيث بدا ذلك كله جلياً وواضحاً في أشعارها وتصرفاتها وبذلها وعطائها. ونسأل الله أن يُبقي حبها هذا في قلوب ملايين المسلمين في الأرض اليوم! ويتحول هذا الحب إلى اتباع في الحق والبذل والعطاء والكرم والسخاء! ليعيش من يأتسي بها على الحق المبين عاملاً به داعياً إليه مكرماً أهله مُعادياً أعداءه مُضحّياً في سبيله باذلاً الغالي والنفيس من أجله إلى أن يلقى الله غير فاتن ولا مفتون. وعاشت مؤثرة ما عند الله عز وجل ، فهو خيرٌ وأبقى للذين آمنوا. وهذا الحال قد قرّره العلامة ابن خلدون – رحمه الله – في مقدمته ص 179 (الفصل الثالث عشر) حيث يقول: (فالترف مفسدٌ للخلق ، لما يحصل للنفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها ، فتذهب من الناس خلال الخير التي كانت علامة علي الملك ودليلاً عليه ، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر ، فيكون

علامة على الإدبار والانقراض ، بما جعل الله من ذلك في خليقته ، وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يُقضى عليها. وإذا اتخذوا الدّعة والراحة مألفاً وخلقاً ، صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها ، فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة ، وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها المُلك من شدة البأس ، وتعود الافتراس والقنص وركوب البيداء هداية القفر ، فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة ، فتضعف حمايتهم ، ويذهب بأسهم ، وتضعف شوكتهم ، ويعود وبال ذلك على الدولة والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها ، وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة ، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً ، وينسون خُلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة ، حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى إن كانت لهم).هـ. وأرى أن الله أنجي الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - من هذا الذي أشار إليه ابن خلدون. وإن كان كلام ابن خلدون قد عنى به الدول والأمم ، فلقد حافظت الأميرة زبيدة على مآثر البادية وأخلاقها وطبعَتها بطابع الإسلام والعروبة قلباً وقالباً ، فحافظت بذلك علي طبيعتها العربية والأصيلة والإسلامية السامية ، فحازت قصب السبق في الأصل والنسب والتدين. ومن هنا باتت شخصية مرهفة الحس بقضايا أمتها وبني جلدتها. وذلك كله كان منها في سن مبكرة. وتنامى ذلك الشعور عندها شيئاً فشيئاً ، إلى أن تبنتِ المشاريع الخيرية الكبرى ، إيماناً منها بوجوب القيام بحق إكرام الفقراء والأيتام. ولذلك لم يكن كثيراً عليها ولا غريباً إحساسها الكبير بالفقراء والأيتام. وكم صرحت أن اليتم بالنسبة لليتيم هبة من الله تعالى ، وليس ابتلاء كما يتوهم كثير من الناس ، هبة من الله إذ يفتح به أبواباً للخيرين الطيبين ، لكي يتصدقوا ويُكرموا الأيتام. وجعله طريقاً معبّداً لمرافقة رسول الله في جنات النعيم. ولقد شرّف الله الأيتام بجعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم - واحداً منهم ، حيث مات أبوه قبل أن يُولد وتُوفي جده عبد المطلب أيضاً ، وهو طفل فخلفه عمه أبو طالب على تربيته. واهتمت دولة الخلافة الإسلامية بالأيتام جداً ، وأنشأت لهم الجمعيات والمؤسسات الخيرية والصناديق التكافلية. والخيّرون والخيّرات في ديار الإسلام يَدعمون جميعاً هذه الإنجازات التي تُقام هنا وهناك تكفلها الدولة أو يقيمها الأفراد الصالحون. ولذا كان طبيعياً أن تكون الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - هكذا منذ نشأتها. ثم هي تُحوّل الإحساسَ إلى ترجمةٍ عمليةٍ في شبابها ، إيماناً منها بحق اليتيم والمسكين في الحياة الكريمة. فكانت الجمعيات والمؤسسات التي أقامتها ، وكانت الرحلات والأسفار هنا وهناك ، وكانت الإسهامات والتبرعات على مختلف قيمتها ونوعياتها من أجل دعم العمل الخيري والتطوعي. حتى يُمكننا القول بأنه باب من أبواب الخيرالقاصر الذي خص الله به هذه الموفقة الأميرة زبيدة. إن دور الآباء لا يمكن إغفاله في التربية أبداً. فهو دور عظيم سلباً أو إيجاباً. وكل والدٍ حريص يخاف الله فإنه يربي أبناءه وبناته على القيم والإيمان وفي هذا يقول الشاعر:

وينشـــــأ ناشـــــيءُ الفتيـــــان مِنـــــا علـــــى مـــــا كـــــان عـــــوّده أبـــــوه

ودور أبيها المنصور بن جعفر – رحمه الله – دورٌ عظيم في تنشئة ابنته الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - وهكذا كانت نشأتها. عاشت في البادية وإن كانت قد ترعرعت في بيت حكم وعز. ولكنها عاشت ألوان البداوة من مروءةٍ وشجاعةٍ ونبل وإكرام للضيف وفروسيةٍ وإغاثةٍ للملهوف والتزام بالتقاليد والعادات العربية البدوية. ونهلت من صفات البداوة العذبة وموروثاتها ، مثل الحلم والصبر والحكمة والحزم وحسن الاستماع والقدرة على اتخاذ القرار وصناعة الآراء والأفكار. ولعل والد الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها

الله - كان له النصيب الأوفر في تعليمها كل هذا. إلى جوار اصطحابها معه طفلة صغيرة إلى البادية في رحلات البر حيث الصيد والفروسية والاستمتاع بالطبيعة التي خلقها الله. فتعلمت منه الصفات التي عليها البدوي أصالة ونجابة وذوقاً وشهامة ، وجمعت بذلك بين القصر والصحراء. وبهذه النشأة نرى كيف أكرمها الله تعالى. فاجتمعت لها بفضل الله ورحمته عذوبة الحاضرة متمثلة في القصر ، وطلاوة البادية متمثلة في الصحراء. وقل أن تجتمع هاتان الخصلتان لإنسان. ومن فضل الله عليها أن تحمّلت الرحلات المُضنية في البر ، حيث صيد الظباء وما شاكل ذلك ، ورحلات القنص أيضاً ، ومشاهدتها الهجن وبيئتها ونظام حياتها ، وأيضاً رحلات البحر الممتعة برفقة مَن علمها كل هذه الأشياء ، وأعانها على استلهام العِبَر والعِظات والأسرار ، في النشأة التي ساهمت بنصيب الأسد في إثراء شخصيتها ، من الحزم والرحمة والعطف والبر في جانب ، ومن الإحساس بالفقراء والأيتام في جانب آخر. حتى كبرتْ وكبر معها إحساسُها المرهف ، وعاشت هموم من حُرم والديه ، وعاشت هموم من عَدِم من يقوم على تنشئته وتربيته والعطف عليه. ولا يمكن إغفال دور أمها سلسل بنت عطاء شقيقة الخيزران بنت عطاء ، ولا يخفى أن الخيزران التي هي زوجة الخليفة العباسي المهدي ، ووالدة الخليفة هارون الرشيد والخليفة الهادي ، كانت من ربات الفضل والعلم والأدب ، وإن كانت قد بدأت حياتها أمَة تُباع وتُشترى! وعلى هذا تكون الخيزران جارية عربية استُقدمت من اليمن ، اشتراها الخليفة المهدي وأعتقها وتزوجها ، واصطحبها معهُ إلى بلاد العجم ، وكان طبيبها الحكيم عبد الله الطيفوري ، ولم تلد امرأة خليفتين غيرها ، سوى ولادة أم الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان. ولقد تعلمت في بيت الخلافة علوم القرآن والحديث ، وروت الخيزران عن زوجها المهدي حديثاً مسنداً عن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم - ، حيث قالت: حدثني أمير المؤمنين المهدي عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله: (من اتقى الله وقاه من كل شيء). وفي شهر رمضان سنة 161هـ ، ذهبت الخيزران إلى مكة ، واشترت الدار المعروفة باسمها وأضافتها إلى المسجد الحرام ، وأقامت في مكة إلى موسم الحج وحجّت ، وقد استوحش الخليفة المهدي لفراقها فكتب إليها مع الحجاج يتشوق وهو يصور لوعة الفراق ولواعج الرحيل:

نحـــن فـــي غايـــة الســـرور ، ولكـــنْ لـــــيس إلا بكـــــم يـــــتم الســـــرورُ

عِيـــبَ مـــا نحـــن فيـــه يـــا أهـــل وُدي إنكـــــم غِيـــــبٌ ، ونحـــــن حضـــــور

فأجـــدّوا فـــي الســـير ، بـــل إن قـــدرتم أن تطيـــروا مـــع الريـــاح ، فطيـــروا!

فأجابته الخيزران ببيتين رائعين يدلان على تمكنها من العربية نحواً وشعراً وثقافة وقالت:

قـــد أتانـــا الـــذي وصـــفتم مـــن الشـــوق ، ولكـــن مـــا قـــدرنا نطيـــرُ

ليـــت أن الريـــاح يـــنقلن شـــو قـــي إلـــيكم ، ومـــا يُكِـــنّ الضـــمير!

ولقد كانت الخيزران ذات شخصية قوية ، ولها رأي وتدبير في أمور الرعية ، وكانت ترعى العلماء وتُشجعهم وتصلهم بالعطايا والهبات. ولقد تُوفيت الخيزران ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادي الآخرة عام 173هـ / 789م ، وخرج الخليفة هارون الرشيد خلف جنازتها ، وعليه جُبة وطيلسان ، قد شد به في وسطه ، وهو آخذ بقائمة السرير ، حافياً يمشي في الطين ، وصلى عليها ونزل في قبرها ، ودفنت في

الأعظمية في بغداد في المقبرة التي سميت باسمها مقبرة الخيزران. وتوفي يوم وفاتها إمام اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة. ولم تقلّ أختها سلسل بنت عطاء عنها في الفضل والحكمة! ولربما يقول قائلٌ بأننا نؤرخ لسلسل بنت عطاء أم زبيدة بنت المنصور ، فما بالنا نؤرخ للخيزران بنت عطاء أختها؟! والجواب هو أن جُل المؤرخين وكتاب السير أوردوا في غير مصدر بأن حياتها كانت شبيهة تقريباً بحياة أختها! حيث إنهما بيعتا وحُررتا ونهلتا من نفس المعين ، وعاشتا حياة شبه مماثلة. ومن هنا أبدعت سلسل بنت عطاء – رحمها الله – في تنشئة ابنتها الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - ، فلقد ربتها على الأخلاق العالية. واستكمالاً لفضل الوالدين وحسن التربية والتنشئة ، وإبرازاً لدور الأم في تعليم وتربية ابنتها ، أدركت الأم أن قلوب أطفالها الطاهرة جواهر نفيسة خالية تماماً من كل نقش وصورة ، وهم قابلون لكل ما ينقش عليها ، فإن عُوِّدُوا الخير والمعروف نشأوا عليه ، وسعِدوا في الدنيا والآخرة ، وشاركوا في ثواب والديهم ، وإن عُوِّدُوا الشر والباطل ، شَقُوا وهلكُوا ، وكان الوِزْرُ في رقاب والديهم ، ومن هنا لا يمكن إغفال دور سلسل بنت عطاء – حفظها الله – في تنشئة ابنتها الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله -! فلقد ربتها على الفضائل والقيم. حيث أزادت الأمر جمالاً وإحساساً منها بمسؤولية الأم تُجاه ابنتها. وعلمتها الصلاة والوضوء منذ الصغر ، كما علمتها الصيام من سن ست سنوات: (يعني قبل أن يفرضه الله عليها ويصير واجباً!) فكانت هذه الأم تكافئ من يصوم أطول فترة وبالهدية التي يحددها. كما كانت تكافئ على الصلاة وعلى القرآن. والجدير بالذكر أن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - قد مَنّ الله عليها ، فحفظت أجزاء من القرءان على حد ما ذكر المؤرخون وكُتاب التاريخ منذ الطفولة! إذ كانت أمها سلسل بنت عطاء تنتدب من يحفظها القرآن وهي طفلة ، وتُكافئ على ذلك. لما تعلم من أثر القرآن على نفس من يستظهره ، وكانت الأم تصطحب الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - ابنتها إلى رحلات الحج والعمرة. وذلك منذ الطفولة. فلقد اكتحلت عينا الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - بالكعبة ومكة ومِنى والحطيم وزمزم وعرفة والمزدلفة وهي طفلة مراتٍ عديدة. أثناء رحلات الحج والعمرة مع والديها. وإذن فكانت نشأتها جامعة بين بداوة العرب وأخلاق البادية قلباً وقالباً ، كما أخذت أفضل ما في الحاضرة والمدينة من خلال القصر الذي عاشت فيه. وكان رفيقاً لها كتابُ الله منذ الطفولة الناعمة. وصلت وصامت واعتمرت وحجّت وهي طفلة! فلله دَرّها من محظوظة. إذ جمع الله عليها كل هذه المناقب منذ الطفولة! وذلك بفضل الله – عز وجل – أولاً وآخراً ، ثم بفضل هذه الأم الكريمة كانت سبباً في هذه التنشئة الطيبة على مكارم الأخلاق وفضائل القيم. وهذا دورٌ عظيمٌ للأم ومثلٌ يُحتذي لها. وكما كان للوالدين دور عظيم في التربية والتنشئة ، كان للمعلم فيها دور كذلك عظيم. فلقد كان ذلك المعلم محسناً كبيراً ومناضلاً فذاً وعبقرياً ، ساق الله له المجد على يديه ولم يقدمه للناس أحد. بل صنع المجد صناعة ، ونحت الصخر بكلتا يديه وصولاً إلى القمة. ذلك أن زبيدة كتلميذةٍ تعلمت القرآن على يديه ، فهذا دليل على عبقريته وعطائه لهذا الشخصية المتميزة ، ويدل كذلك على إحساسه بقضايا الأمة المسلمة ، وإسهاماته العظيمة في تطوير أخلاقها التي حَباها الله إياها. وإن الذي يُتابع مسيرة عطائها لأهل الإسلام وغيرهم يُدرك أن هذا العبقري الكريم قد جاد بالكثير مما يملك من أجل المساهمة في مسيرة البناء والتنمية والعطاء الذي بذلته الأميرة في قابل أيامها. وهو رجلٌ غنيٌ عن التعريف. وكانت تنتقل بفضل الله عليها من مرحلةٍ إلى مرحلة ، ومن نجاح إلى نجاح ، ومن تفوق إلى تفوق ، يُساعدها على ذلك بعد الله من حولها من الأهل والمعلمات وما حباها الله به من الشخصية الكاريزمية (بلغتنا المعاصرة) ، تلك التي تجمع كل شيء من مواد التفوق والتميز: (الثبات – التكامل – الشورى – العقيدة – التدين – القدرة على اتخاذ القرار – والقدرة على صناعة المجد – والقدرة

على بلوغ القمة). إنْ هو إلا فضل الله عليها نسجّله عنها في هذه السطور من باب: (وأما بنعمة ربك فحدث) ومن باب: (وما بكم من نعمة فمن الله). ومن باب: (وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً)! فمن مجدٍ إلى مجد ، ومن نجاح إلى نجاح ، معتمدة في ذلك كله على الله وحده. ثم مستخدمة ما حباها الله إياه من الإمكانات والمؤهلات في سبيل الوصول للغاية المنشودة. ومحققة بذلك ما تصبو إليه نفسها من نفع الناس متمثلة قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: (أحب الناس إلى الله أنفعهم لعباد الله) ، وقوله: (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)! والله أعلم أنه لصدقها مع الله نفع الله بها ومكن لها وأعانها. ويُعلق الأستاذ فواز الطلحي قائلاً: طوبى لمن كان لحاجات الناس مقصداً ، وإذن فمدار السعادة الدنيوية والأخروية مبناها على أمرين: 1- الإخلاص للحق. 2- الإحسان للخلق. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ – شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَتَمَ غَيْظَهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ ، مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا ، أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ ، وَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ ، كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ». (السلسلة الصحيحة). اعلم أن مدار السعادة الدنيوية والأخروية مبناها على أمرين: 1- الإخلاص للحق. 2- الإحسان للخلق. وقد ورد في ذلك آيات عدة منها قوله عز وجل: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عن المجرمين مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ}. فأنت بابتسامتك هذه تُدخل السرور على قلب أخيك المسلم ، وكذلك بفعلك وعملك فتكسب الأجر والثواب من الله وقال - عز وجل -: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}. فأساس السعادة إذن أخلاص التوحيد للخالق والإحسان للخلق ، وهذا الحديث المذكورة يُقرِّر الجانب الثاني من هذه المسألة. ألا وهو الإحسان للخلق. فنبدأ مع أول نقطة في الحديث: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» ، وقد جاء في الحديث الآخر: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» ، فقرَّر هنا الأمر مُجملاً ثم بدأ يفصله بعدة مقاطع فذكر أن من أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم! فالابتسامة وسيلة دعوية أخوية وقد ورد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم "ما رُئي إلا مبتسِّماً". فأنت بابتسامتك هذه تدخل السرور على قلب أخيك المسلم وكذلك بفعلك وعملك فتكسب الأجر والثواب من الله ومن المعلوم أن هذه الدنيا لا تخلو من الهموم والغموم ، فأنت بفعلك هذا وبابتسامتك هذه تنفع أخاك المسلم. بحيث تُفرج عنه هذه الهموم ولو بعضها. وقد ورد عن أصحاب ابن تيمية شيخ الإسلام عليه رحمه الله أن أصحابه كانوا يقولون تكتنفنا المصائب والهموم والأحزان ، فإذا رأينا وجهه تكشف عنا الهم فالأمر ليس بالأمر الهين ، ولكن أين المتيقظ له؟! وهنا مسألة ينبغي أن تُطرح. ألا وهي هل التبسُّم والضحك ينافي الوقار والسكون والهيبة ، وأن المشغول بعظائم الأمور معذور في ترك التبسُّم؟! وجوابها سهل ميسور على من يسَّره الله عليه ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم مع كثرة مشاغله وهمومه وهو قائد الأمة ومرشدها والذي ينبغي بهذه الميزان ألا يبتسم ، ولكن الوارد أن النبي صلى الله عليه وسلم ما رأي إلا متبسِّماً فصلوات ربي وسلامه عليه وهو القائل: «وتبسُّمك في وجه أخيك صدقة». (رواه مسلم) ، فهذا الدليل وهذه الحجة تُبطِل ذلك التكلف. ثم بعد ذلك يذكر أمراً آخر مما يمكن للمرء أن ينفع به الناس ألا وهو كشف الكربة عنهم فقد تجد أخاك به كربه من كرب الدنيا إما لمصاب أصابه أو توفي قريب له أو... إلخ والحياة ليست صفواً بلا

كدر ، بل هي كدر وهمٌّ وحزن ، فنُدِبنا إلى التفريج من هموم إخواننا المسلمين وكل ذلك بأجره عند احتسابك الأجر ، فإنك عند تفريج كربته ومساعدته عند احتياجه تكون نعم الأخ فكأنك تسنده وتقوم معه ضد الدنيا بأسرها. ثم عقب بعد ذلك بذكر الدين وقضائه عن الأخوة ، وهذا من ذكر الخاص بعد العام ، ثم مثل بواحد منها أو من جنس العام ، فالدَّينُ كربة من الكرب فهو همٌ بالليل ذلٌ بالنهار. وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «اللهم فرِّج همّ المهمومين ، واقضِ الدين عن المدينين». وقد وردت القصة في شأن ذلك الرجل من بني إسرائيل أنه كان يُقرض الناس ثم بعد أن يحين السداد والوفاء يبعث غلامه إلى المدينين فيأمره بأن يقبض ممن عنده القدرة على الوفاء ، ويجاوز عمن لا يجد عنده شيئاً فغفر الله له بذلك. ومن المعروف أن الذي يأخذ الدَّين لا يأخذه إلا وهو محتاج قد سدّت أبواب الدنيا في وجه! وربما لا يجد سداده فنُدِبنا إلى قضائه عنه أو التجاوز عنه ، وهذا من التكافل الاجتماعي بين المسلمين. ثم ذكر بعد ذلك هناك أمر آخر يكون فيه نفع للناس وإحسان إليهم ألا وهو "وأن تطرد عنه جوعاً"! قال تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ}. وقال صلى الله عليه وسلم: «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن» ، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من بات شبعاناً وجاره جائع». (صحّحه الذهبي في التلخيص ، والألباني في صحيح الأدب المفرد). ثم ذكر أمراً آخر «وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِاً» ، وهذا هو السعي في نفع الأخوة المشهور عند الناس مهما كانت هذه الحاجة ومهما كان هذا الأمر بإطلاقه صغيراً أو كبيراً ، والحكمة من أن هذا الفعل هو أفضل من الاعتكاف في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم شهراً هي أن هذا الفعل وهو المشي في حاجة الأخ هو فعل متعد النفع ، فأنت تنفعُ غيرك وتكسب معه الأجر لنفسك وفيه من المصالح الشيء الكثير ؛ فربما يكون بمشيك معه في حاجته نفعٌ للمسلمين ، وربما يكون فيه دفعٌ للأذى عنهم ، ثم ثنّى بأمر ذكره في نصف الحديث ألا وهو: «وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا ، أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ» ؛ وهذا يدل على أهمية هذا الأمر ، ولذلك كرَّره الرسول صلى الله عليه وسلم. وهنا زادَ: (حتى يثبتها له) ، فهذا يحتاج إلى صبر ومصابرةٍ وهمةٍ عالية ، لذلك كان الجزاء من جنس العمل: «أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَام». ثم عقب وختم بالحديث عن سوء الخلق فقال: «وَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ ، كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ» ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقًا». (رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، والهندي). ومنفعة الغير أمر ارتأته الأميرة زبيدة جزءاً من عبادتها لله – تبارك وتعالى! الأمر الذي حدا بنا لكتابة هذه السيرة وتلك المسيرة! ولو كانت (زبيدة) شخصية أنانية تعيش عز الأميرة وبذخها وترفها وعنجهيتها ، تعيش لنفسها ولشهواتها ونزواتها ، كغيرها من الأميرات العربيات والعجميات في الغابرين والحاضرين ، لما خصصتها بهذه السيرة وتلك المسيرة متحدثاً عن مناقبها وجامعاً لسيرتها العطرة التي تفرقت في الكتب والمعاجم والدواوين هنا وهناك!

(الخلفية التاريخية لعصر الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله)

كلنا يذكر أن الدولة العباسية شهدت قلاقل ومشاكل إصر قيامها! فلقد قامت الدولة العباسية يوم قامت على أكتاف الفرس ، وهذا يعني أن الفرس سيكون لهم بعض القرار والتنفيذ فيها بعد قيامها! فقد كان "أبو مسلم الخراسانى" والي خراسان أول من بشر بخلافة العباسيين ، وقاد جيشًا تمكن من خلاله من هزيمة الأمويين ، وحُسم هذا الصراع لصالح بني العباس القرشيين الهواشم ، إذ يعود نسلهم للعباس بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام. ونتيجة لدور الفرس في تأسيس الدولة ، تولوا المناصب الرفيعة فيها ، وكانوا وزراء الرشيد ، ووزراء أبيه ، ووزراء أخيه الهادي ونجله المأمون. وفى وسط تلك الظروف كانت "زبيدة" بنت جعفر زوج هارون الرشيد وحبيبته وابنة عمه ، منذ أن كان أميرًا في قصر والده ، ثم تزوجته فلم تستطع الإنجاب مُبكرًا حتى باغتتها "مراجل" الجارية الفارسية بولادة "عبد الله المأمون" أول أبناء الخليفة. وكانت ولادة "المأمون" وَبالاً على "زبيدة" ، التي نذرتْ أن تذهب للحج سائرة على قدميها إن رزقها الله بطفل لا سيما إن كان صبيًا ، وقد حدث ، وحبلت "زبيدة" ، وأنجبت نجلها "محمد" الملقب بالأمين ، فمهدت طريق الحج بمالها كوفاء للنذر ، وبذلت الكثير من مالها. ومنذ ولدت "زبيدة" ابنها الأمين ، وقررت أن يكون نجلها ولياً لعهد الرشيد ، وكان ميلاده حدثًا نادرًا في بغداد ، فلقد وزع الذهب على العامة في الأسواق ، وسار منادي الخلافة مبشرًا: "ولد الأمير الهاشمي القرشي الصافي" ، وهو الحالة الفريدة التي لم تُتح إلا للأمين ، نجل الأميرين حتى أن نسبه أفضل من نسب والده "هارون الرشيد" ابن الجارية. وفي تلك الأثناء اشتعل الصراع بين العرب والفرس ، وتجسّد هذا الصراع بين الأمين الأمير العربي الخالص ، وشقيقه المأمون العربي الفارسي ، ثم تعقد الأمر حين ماتت "مراجل" أم الأمين الفارسية ، فتولت عائلة البرامكة تربيته وتنشئته على أصول الحكم ، حتى إنهم علموه اللغة الفارسية. وانقسم القصر بين عرب وفرس ، وأمراء بني هاشم يُحيطون "الأمين" وأمه زبيدة ، ووزراء الفرس يُحيطون المأمون باعتبارهم أخواله ، والرشيدُ في المنتصف يحاول أن يُقسّم الخلافة بين نجليه ، فيمنح ولاية العهد للأمين ويقتطع منها "خراسان" جيشها وخراجها ومالها وبريدها ، ويمنحُها للمأمون ، فيضمن ولاء الفرس وعدم ثورتهم عليه ، ثم يأخذ "الرشيد" ولديه ، للحج ويبايعهما على ذلك أمام الناس ويعلق البيعة فوق أستار الكعبة. وتستمر مواقفُ الصراع بين العرب والفرس حتى اللحظة التي يُقرّر فيها "الرشيد" التخلص من وزرائه البرامكة ، فيما عُرف تاريخيًا باسم "نكبة البرامكة" وقد كان لزبيدة دورٌ كبيرٌ في ذلك ، فهي لم تثق في ولاء الفرس لزوجها ، ولم تر فيهم إلا خطرًا يتهدد دولة أبيها وأجدادها. ونضرب الذكر صفحاً عن نكبة البرامكة ودور الأميرة زبيدة لنتحدث عن بعض معالمها الأخرى وثقافاتها المتعددة! إن العجيب في أمر الأميرة التقية زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - جمْعُها بين الثقافات المتنوعة والهوايات الشاقة بالنسبة للمرأة. فثقافاتها تنوعت بين العربية وغيرها. فهي تتحدث العربية بطلاقة ، وتُجيد الشعر والأدب. كما أن لها دراية بالكثير من ثقافات العالم ومعرفة تقاليد وأعراف وعادات الشعوب من خلال رحلاتها وأسفارها وقراءتها للكتب ، سواء في ذلك العربية أم المترجمة من غير العربية! فلقد استلهمت من القراءة علماً وأدباً ودراية بثقافات عربية وعجمية عديدة. لقد سافرت إلى كثير من بلاد الدنيا باذلة الخير والمعروف ، وباحثة عن العلم والثقافة ، وداعية إلى الله عز وجل ، وسفيرة لدينها وبلادها وتقاليدها وعاداتها في كل بلدٍ وَطئته قدمُها ، تقدّم للناس القدوة العملية للمسلمة التي تحمل هم الإسلام والعروبة في الأرض والناس. وأما عن الهوايات فيعجب الإنسان عندما يعلم أن الأميرة زبيدة بنت جعفر -

رحمها الله – كانت تهوى ركوب الخيل ، فهي فارسة كفارسات العرب الأوليات ، ورامية متميزة ، إلى جانب القراءة والشعر والتوغل وفي كل الثقافات. وتهوى السفر والرحلات في سبيل نشر الخير والمعرفة وبذل الصدقات والبحث عن العلم والفضل. وكأنما هي تتمثل وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما يقول مُوصياً: (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل)! ولعل أغلب هذه الهوايات قد استقتها من البادية. وهذا من فضل الله عليها ولا شك. ومن أسفارها ورحلاتها للحج والعُمرة. ولقد حجّت إلى بيت الحرام مرات عدة ، ومعتمرة أكثر من 20 عمرة. نسأل الله أن يتقبل منا ومنها صالح الأعمال. وتشعر وأنت تقلب صفحات حياتها عند المؤرخين المنصفين ، أنك أمام شخصية فذة لها أهداف تعيش من أجلها ، ولها غايات تتمنى لو حققتها يوماً. وتقضي الكثير من أوقاتها على حد ما ذكر المؤرخون في قراءة القرآن والحديث ، وتعيش بين الكتب ، فهي قارئة لا يُشق لها غبار ، وأوتيت في فهم النصوص واستحضارها عند الاستشهاد بها قدرة خارقة. ولقد كان لها في قصرها مكتبة تشمل كل ألوان الثقافات والعلوم. وقِيمة الكتب في اقتنائها إلى جانب قراءتها والانتفاع بما حوتْ من الخير. فضلاً عن أن نعلم أن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كانت تقوم على أغلب أمرها بنفسها ، فكثيراً ما تُرهق نفسها وتتجشم المشاق واللواعج في سبيل الوصول إلى أسرةٍ ما فقيرةٍ في باديةٍ ما ، وتطرق الباب بنفسها وتُوصّل صدقتها بنفسها ، وتدخل البيت على أنها امرأة مسلمة عابرة سبيل فاعلة خير ، لا تريد إلا وجه الله تعالى وتعطي ما شاء الله لها أن تعطي ، دون أن يعلم أحد أنها فلانة بنت فلان! أو أنها الأميرة زبيدة زوج الرشيد الخليفة ، فهي تتخفى لكيلا يضيع أجرها عند الله. وهذا الخبر قاله عنها كثير من الثقاة بكل أمانة ، وزادني علماً بها وبخبرها من قال: لقد كانت تطرق البيوتات خفية ، وتزور المرضى من الناس ، وتهدي إليهم هداياها على أنها امرأة عادية. وهي بذلك – رحمها الله – تذكّرنا بالصدّيق وبعمر – رضي الله عنهما - وتعمل بقول النبي – صلى الله عليه وسلم – في السبعة المظللين – في ظل الرحمن – يوم القيامة: (ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها لكيلا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)! إن عبقرية الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - في الاطلاع على الثقافات المختلفة ونشأتها الطيبة وبصمات أمها وأبيها وأهلها عليها وبيئتها العربية الإسلامية الأصيلة قد أثرت عليها ، فصنعت منها هذه الشخصية الكاريزمية التي لا نزكيها على الله! فلقد اجتمع لها بفضل لله عوامل ساعدتها على أن يكون لها قصب السبق في كثير من الأمور. ولعل هواية ركوب الخيل والرماية من بقايا آثار البادية عليها ، فمن خلال الصيد في البراري والقنص فيها ورؤية النوق والخيول والصحراء أجادت ما تجيده البدوية الحريصة على تقليد البداوة والمحافظة على التراث. وإلا فنحن لم نطالع أن امرأة عربية اجتمع لها ما اجتمع لأميرتنا العظيمة من العوامل التي تجعل منها شخصية سوية من فضل الله عليها! ولقد نسال اليوم الكثيرات ممن نشأن في البادية: هل كان للواحدة منهن ولعٌ وتوقٌ وشوقٌ لركوب الخيل وللرماية على حد سواء ، فلا نكاد نجد عدداً يتجاوز أصابع الكفين منهن يجيب بنعم؟ لأن قليلاً من النساء اليوم هذا تفكيرهن. أمام الحضارة المادية وبريق المدنية مِلن إلى الترف ، وابتعدن كثيراً عن البادية وتقاليدها وسلومها ، وأصبحتِ البادية في حَسّ الكثيرات من هذا النوع من النساء حِكْراً على العجائز فقط. أما الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - فنراها بذلك تُحافظ على تراث العرب ووصايا الأولين من تعلم السباحة والرماية وركوب الخيل. ونراها سخرتْ هواياتها في خدمة دار الإسلام ووطنها المسلم فجزاها الله خيراً كثيراً. وهناك وصفُ اليافعي لعين الشماش في القرن الثامن للهجرة فقال: "إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة ، مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة ، ذات بنيان مُحكم في الجبال تقصُر العِبارة عن وصف حُسنه ، وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذي درج كثيرة

جداً ، لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط كالبير ، وهم يُسَمّونه هكذا لظلمته! ويَفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهاراً فضلاً عن الليل. ومن الأطباء الذين كانت تعطف عليهم جبريل الذي منحته راتباً شهرياً ، وقدره خمسون ألف درهم. وكانت صاحبة اليد البيضاء بعطفها على الفقراء والمساكين. وقدّر لها مئة جارية يحفظن القرآن. ويُقال إنه من شدة قراءتهن للقرآن كان يسمع لهم في قصرها دويٌ كدويّ النحل. وقد كان لها الدور الكبير في تطور الزي النسائي في العصر العباسي. وهناك حادثة تدل على فصاحة الكلام. وهي أن بَعث إليها مرّة من أحد عُمالها كتاباً فردّته إليه وبه ملاحظة تقول: (أن أصلح كتابك وإلا صرفناك)! فتعجب العامل لذلك وأقلقه الأمر ، لأنه لم يستطع معرفة موضع الخطأ. وعرض كتابه على أصحاب الفصاحة والبلاغة فقالوا له: إنك تدعو لها في كتابك وتقول: أدام الله كرامتك ، وذلك دعاء عليها وليس لها ؛ لأن كرامة النساء بدفنهن فعرف العامل الخطأ وأصلحه. ثم عاد وأرسله لها فقَبِلته. وطبعاً لا يخفى أن قبولها للمرة الثانية للكتاب دليلٌ قاطع على قراءتها له قراءة واعية ، وبناءً على ذلك قبلته من مؤلفه! وكانت زبيدة أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر. وهي أول من اتخذ الشاكرية والخدم والجواري يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون برسائلها وكتبها. وهي أيضاً أول من اتخذ القِباب من الفضة والآبنوس والصندل والكلاليب من الذهب والفضة ملبسة بالوشْي والسمور وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق. ولقد عاشت السيدة زبيدة 32 عاماً بعد وفاة زوجها هارون الرشيد ، وتُوفيت في بغداد سنة 216هـ ، بعد أن عاشت في ظل المأمون معزّزة مكرّمة كما كانت في عهد أبيه الرشيد ، وكان المأمون يعاملها معاملة الأم ، وكثيراً ما كان يلجأ إلى مَشورتها في بعض أمور الدولة ، ويُقبّل رأسها ويَقبل برأيها حتى لو كان مخالفاً لما يراه هو شخصياً. وقد روى ابن خَلّكان في كتابه وَفَيات الأعيان عن الإمام عبد الله بن المبارك أنه رآها في المنام فقال لها: ما فعل الله بكِ؟ قالت: غفر الله لي بأول مِعول - أي فأس - ضُرب في طريق مكة. هذه زبيدة ابنة البوادي والقصور رحمها الله ، والتي هي خير نموذج وقدوة لكل امرأة في قصر حُكم وفي بيت إمارة ولكل سيدة ذات مال وذات مُلْك وسُلطة وذات حسبَ ونسبَ. وعموماً حياة البادية حياة قاسية صعبة ، حيث يعيش البدو على الرعي بشكل أساسي ، وتجارة المواشي والمؤن البرية المصنوعة يدوياً ، ويربي البدو بشكل خاص الجمال والأغنام. والحياة في الصحراء تتيح لهم ممارسة نمط حياتهم التقليدية بعيدًا عن مؤثرات التمدن. ولقد استمد البدو عاداتهم وتقاليدهم وخصالهم من البيئة والظروف المحيطة بهم. ومن أهم هذه الخصال هي الشجاعة والكرم ، تأثراً بطبيعة الصحراء الشاسعة القاحلة ، وما يتكبده المسافر في رحلاته الطويلة ، وما يستدعيه ذلك من حمل ما يلزمه من الطعام والمياه ، خاصة إذا كان ترحاله بدون راحلة مما يضطره اضطراراً إلى ارتياد أي نجع من النجوع ، عند نفاد الطعام أو الماء ، فيحل عليهم ضيفاً ، حيث يستقبلونه بكل الترحاب إذ الكرم والضيافة العربية تعد شيمة البدو الأولى التي لا يتنازلون عنها مهما شحَّت الموارد وتباعدت مواسم المطر. لقد ألفت الأميرة زبيدة رؤية هذه الأشياء ، وإن لم تعشها ، حيث تربت في بيت الخلافة وقصورها المنيفة! وخلاصة القول كما قال غير واحد عن البدو أنهم قوم بسطاء مساكين! فليسوا لوردات ولا قياصرة ، بل هم أكبر من ذلك ، هم ملوك أنفسهم بأخلاقهم ، والسرقة مثلاً فعل مشين والشين بعيد عن البدو ، ومن يسرق أو ينهب لن تتفاخر به القبائل ، لأن لها أخلاقاً وتعرف أن السرقة ليست من شيم البدو! والبشرية كلها والجاهل يعرف بأنه فعل مشين ، فكيف تقول بأن البدو يسرقون؟ فالبدو بعيدون عن هذا الفعل المشين! وإذا سرق شخص أو مجموعة أشخاص ، فهم لم يسرقوا بأمر من شيخ القبيلة ، بل بأمر منهم ولا أحد معصوم عن الخطأ ، ولكن لا يُنسب شيء مشين على القبائل على أنه فعل طبيعي ، لأن الإنسان الطبيعي حتى إذا لم يكن له دين

يعرف الصواب من الخطأ! وأعيد بأن السرقة لا تعرف قبائل أو غير قبائل ، فلا تنسب السرقة لكل القبائل ، وكأنها سمة جديدة عليهم ، فهم أشرف من ذلك! لقد كانت أمتنا المسلمة أمة عظيمة بالإسلام! امتدت شرقاً وغرباً ، وخشي قيصر الروم وكسرى فارس بأسها وعزتها وقوتها! خاصة في عصر الرشيد الذي عاشت فيه الأميرة زبيدة بنت جعفر! فما الذي حدث اليوم؟ ولماذا غابت الأمة الوسط وانحسر دورها وذهبت ريحها؟ والجواب: لتخليها عن الإسلام! تحت عنوان: (الأمة الإسلامية بين الحاضر والماضي) يقول الأستاذ أحمد المراغي ما نصه: (قال ـ تعالى ـ: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ). إن التحدِّيات التي تواجه الأمةَ الإسلاميَّة اليومَ تستوجب علينا دراسةَ واقع الأُمَّة بكلِّ موضوعيَّة وأمانة ؛ لأنَّ الواقع الآن لا يُمكن إغفالُه أو التهرُّب منه بحالٍ من الأحوال ، وحتى نستطيع أن نتكاتَف ونَجمع شَمْلنا للتصدِّي لهذه النَّكبات التي تواجِه أُمَّتنا اليوم. وإنَّ ما يحدث اليوم لتمزيق وَحْدة الأُمة يَدفعنا إلى التحرُّك السريع والمدروس ؛ لإعادة وتحقيق الوحدة للأُمَّة الإسلامية عملاً لا شعارًا ، ويَدفعنا لتعبئة كلِّ الجهود لمواجهة الخطر الذي يُمزِّق أوصال أُمَّتنا الإسلاميَّة ويُهدِّدنا جميعًا ، مع فتْح كلِّ الأبواب من أجْل التقدُّم العلمي للنهوض بالأُمة الإسلاميَّة ، وَفْقًا لَما نادى به دينُنا الإسلامي ، وما يتناسَب مع تعاليم شَرْعنا الحنيف. تعيش أُمَّتنا الإسلامية اليوم حِقبة من أشد الحِقَب حَرَجًا ، وتُعاني أشدَّ المعاناة ، من جرَّاء ما نزَل بها من الشدائد والمِحَن ، وعلى الرغم من جَسَامة هذه المحنة ـ أعني: تمزيق أوصال الأمة الإسلاميَّة ـ فإن الاستسلام لها لهو أشدُّ خطرًا من المحنة ذاتها ، بل إنَّ الذي يجب علينا في ظلِّ هذه الظروف ـ كأُمَّة لها أمجادٌ ـ أن نتكاتَف ونَجمع شَمْلنا ؛ لمواجهة هذه التحدِّيات ، واستعادة أمجاد أُمَّتنا ، ولنا أن نَعلمَ أنَّ في الاتحِّاد قوَّةً ، وفي التفرُّق ضَعْفًا ، لنا أن نجعلَ من ذلك دافعًا لأن نكون يدًا واحدة ، وأن نعملَ على نزْع الفُرقة والنزاع من بيننا ؛ حتى نستعيدَ أمجاد أُمَّتنا الخالدة ، وإنَّ الناظر لواقع الأُمَّة الإسلاميَّة اليوم ـ بكلِّ ما فيه من الأَسى ـ يتذكَّر حديث رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ الذي قال فيه: (يوشِك الأُمم أن تَدَاعى عليكم، كما تداعى الأَكَلة إلى قَصْعتها) ، فقال قائل: أمِن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: (بل أنتم كثير ، ولكنَّكم غُثاء كغُثاء السَّيْل ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن) ، فقال قائل: يا رسول الله ، وما الوهَن؟ قال: (حُب الدنيا ، وكراهية الموت) ؛ رواه الإمام أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير عن ثوبان ، وهذا هو واقع الأُمَّة الإسلاميَّة اليوم. إنَّ افتقاد الأُمَّة الإسلاميَّة للقوة والإرادة لهو من الأسباب التي أدَّت إلى السقوط الحضاري والسقوط السياسي والثقافي ، فتَفَتَّتت الأُمَّة وتبَعْثَرت ، وتمزَّقت رُقعة التفكير في الوَحْدة وإعادة أمجاد الأُمَّة، فما عاد واقعنا اليوم كماضينا ، وما أظنُّ أنَّ واقِعنا اليوم يحتاج إلى شواهدَ أو إسقاطات تاريخيَّة ، وعَجْز الأمة عن استعادة أمجادها وحماية تاريخها المؤصَّل ، كلُّ ذلك وغيره يشكِّل مواطنَ الضَّعف التي أُوتِينا من قِبَلِها ، وصِرنا هدفًا للغرب يُسيطر ويُهيمن عليه ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله ، وعلينا أن نعلمَ أنَّ العالَم الغربي بجميع طوائفه ليس له هدفٌ إلاَّ تفكيك العالَم الإسلامي ، وتشريد المسلمين ، وتقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة ، وذلك هو الواقع الذي يعمل من أجْله الغرب).هـ. لقد كانت الأميرة (زبيدة) محظوظة حيث عاشت عز الإسلام أمة وخلافة ودعوة وجهاداً! إن زبيدة التي نشأت في عز البوادي وترف القصور كانت مع ذلك كله زاهدة عابدة ، لا تشغلها دنياها عن طاعة ربها. تغمَّدها الله برحمتِهِ ورضي عنها وأجزل لها الثواب.

(زبيدة الأديبة والشاعرة المتمكنة من الشعر)

تزوجت الأميرة (زبيدة) من الخليفة هارون الرشيد سنة 165هـ ، وكان ذلك في خلافة المهدي ببغداد. وكانت تحب ابنها محمد الأمين كما أسلفنا حباً جماً. وهذا جعلها تُهيئ له الخلافة من بعد أبيه. لكن الرشيد كان يُهيئ ويريد أن يكون خليفة المسلمين من بعده ابنه المأمون. ولكن زبيدة لم تُوافق على ما كان يُريد الرشيد ، فغضبتْ منه وذهبت إليه تُعاتبه على هذا الأمر الذي كان يريد. وعندما أخذتْ تعاتبه قال لها الرشيد: "ويحكِ يا زبيدة ، إنما هي أمة محمدٍ – صلى الله عليه وسلم - ، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقاً بعنقي ، وقد عرفتِ ما بين ابني وابنك. ليس ابنك يا زبيدة أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعية". فقالت: ابني والله خيرٌ من ابنك ، وأصلح لما تريد ليس بكبير سفيه ولا صَغار فيه ، وأسخى من ابنك نفساً ، وأشجع قلباً. فقال الرشيد: ويحكِ إن ابنك لأحب إلي ، لكن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً وبها مستحقاً ، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ومأخوذون بهؤلاء الأنام ، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم وننقلب إليه بإثمهم ، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك. وأجرى هارون الرشيد الاختبار بين الأمين والمأمون! فاستدعى المأمون أولاً. ولما وصل إلى باب المجلس سلّم على أبيه ثم وقف طويلاً مطأطأ الرأس ، حتى أذن له الرشيد بالجلوس والكلام. فجلس وحمد الله تعالى ، ثم استأذن الرشيد بأن يقترب فأذن له بذلك. فاقترب وقبّل أطرافه (يديه ورجليه) وقبّلَ يدَي زبيدة ، ثم رجع إلى مكانه وحمد الله على رضى أبيه وحسن رأيه فيه. فقال الرشيد: يا بُني إني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة ، وأقعدك مقعد الخلافة فإني قد رأيتك لها أهلاً وبها حقيقاً. فبكى المأمون وصاح وسأل الله العافية لوالده. ثم قال: يا أبتاه أخي أحق مني وابن سيدتي ، ولا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني وأشدّ استطلاعاً ، ويعلم الله ما فيه من الرشاد والإخلاص ، والعِباد ينشدون فيه الخير والصلاح. ثم استأذن المأمون للخروج فأذن له الرشيد. وبعد ذلك استدعى الرشيد ابنه الأمين ، فكان أول ما فعله الأمين أن دخل على أبيه دون أن يستأذن ، ودخل وهو يتبختر في مِشيته حتى وصل إلى كرسي العرش إلى أبيه. فبدأ الرشيد بسؤاله: ما تقول يا بُني أن أعهد إليك. فرد على الفور: ومن أحق بذلك مني يا أمير المؤمنين؟ فصرفه أمير المؤمنين هارون الرشيد وقال لزبيدة: كيف رأيتِ؟ فقالت: يا أمير المؤمنين: ابنك أحق بما تريد. فرد الرشيد: فإذا أقررتِ بالحق وأنصفتِ يا زبيدة ، فأنا أعهد إلى ابني ثم إلى ابنك. وهناك أيضاً ما يدل على حبها الكبير لابنها ، فقد بعثت ذات يوم بجاريتها إلى مدرّس ابنها الكسائي الذي كان يقسو عليه. فقالت له الجارية ما أمرتها زبيدة أن تقوله وهو: ترفق بالأمين ، فهو ثمرة فؤادي ، وقرة عيني ، وأنا أرق عليه رقة شديدة. والدليل الآخر على حبها للأمين أنه عندما توفيت الفطيم زوجة الأمين حزن عليها حزناً شديداً ، وبلغ أم جعفر زبيدة بذلك فقالت: أنا ذاهبة إلى أمير المؤمنين. فذهبت إليه فاستقبلها. وقال لها: يا سيدتي ماتت فطيم. فقالت وهي تحاول أن تخفف من آلامه وتعالج أحزانه المريرة:

نفســـــي فـــــداؤك لا يـــــذهبْ بـــــك اللهـــــفُ ففـــــي بقائـــــك ممـــــن قـــــد مضـــــى خلـــــفُ

عُوّضـــــتَ (موســـــى) ، فهانـــــت كـــــل مُرزئـــــةٍ مـــــا بعـــــد (موســـــى) علـــــى مَفقـــــودةٍ أســـــف

وقالت له: أعظم الله أجرك ، ووفر صبرك ، وجعل العزاء عنها ذخرك! أما الأمين فكان يرد على حنان وعطف أمه بتعظيمها وتبجيلها. وكانت الشجاعة من صفات الأمين ، والدليل على ذلك ما قاله لزبيدة عندما

كان العدو محيطاً به: يا أمي إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عُقدت التيجان ، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع وراءك. وإذن فالأميرة زبيدة كانت شخصية واقعية تتمثل الواقع وتعايشه بمنتهى الجدية! حتى أغلب أشعارها كانت تتسم بالواقعية والجدية! وكانت ترى بأن الشاعر الذي يجنح كثيراً إلى عالم الخيال لا يمثل الواقعية والجدية! ومن هنا فلم يكن لها ولع لشعر الخيال ، كما لم يكن بها شوق إلى الإسراف الكبير في الصور الفنية! بل كانت الواقعية لها سجية! ولقد وقعتُ على تراجم شتى للأميرة زبيدة تصف شخصيتها بدقة في القديم وفي الحديث! ففي موقع أندلسيات على سبيل المثال ، وتحت عنوان: (سيدة بغداد الأولى مآثرها وأعمالها) ما نصه: (السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد سيدة بغداد الأولى ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه إذا ما ذكرت مظاهر ازدهار الحضارة في هذا العصر كان لزاماً أن تكون هذه السيدة الفاضلة من أبرز مظاهره ؛ فقد وضعت بصمات متميزة على العصر الذهبي الذي عاشت فيه ؛ وعكست أعمالها ومآثرها صورة حقيقية لما نالته المرأة العربية من حقوق ، وكيف شاركت في الحياة الاجتماعية ، فكان لها نشاط بارز في هذا المجال إضافة إلى مشاركتها في الحياة السياسية والأدبية. وقد ظل وضع صفة مميزة تلحق اسم هذه السيدة موضع اهتمام الكثيرين ، ولم أجد أنسب من وصفها بـ (سيدة بغداد الأولى) ؛ إشارة إلى نشاطها الاجتماعي المتميز في عهد الخليفة هارون الرشيد والأمين والمأمون ، فقد قامت بالإنفاق وبسخاء على المشروعات الاجتماعية في زمانها ، متحدّية بعزم وصبر الصعوبات التي قد تواجهها ، مرغبة في أعمال الخير. ولعل الواقف على حياة هذه الشخصية التاريخية النسائية البارزة يلمح أن بعض المبالغات قد لازمت بعض مظاهرالترف والبذخ ، الذي لا يؤثر في مُجريات الأحداث إنما ذكره من قبيل الاستئناس الداعم لوصف هذا العصر (بالذهبي) ، الذي سطعت فيه سيدة بغداد الأولى ، أما فيما يتعلق بالمبالغات التي قد لازمت الأحداث التي كانت طرفاً فيها ، فقد اجتهدت قدر الإمكان في ترجيح الصحيح منها ، إما بالنفي أو الإثبات. لقد كانت زبيدة سليلة بيت خلافة ، فهي ابنة جعفر الأكبر ابن الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور ولدت سنة 149هـ/766م ، بعد مولد ابن عمها هارون ببضعة أشهر ، بمدينة الموصل أثناء ولاية أبيها جعفر عليها ، وتحديداً في قصر حرب ، الذي يرجع بناؤه إلى حرب بن عبد الله ؛ أحد قواد المنصور ، وقد أهدى أبو جعفر هذا القصر إلى ابنه جعفر! ولأنها تربت في بيت الخلافة فلقد كانت أخلاقها وأشعارها من الطبقة الراقية! وقالت زبيدة في رثاء ولدها الأمين:

أودى بـــألفين مَـــن لـــم يتـــرك الناســـا ... فـــامنحْ فـــؤادك ـ عـــن مَقتولـــك ـ الباســـا

لمّـــا رأيـــت المنايـــا قـــد قصـــدن لـــه ... أصـــبن منـــه ســـواد القلـــب والراســـا

فبـــت مُتكئـــأ أرعـــى النجـــوم لـــه ... أخـــال سُـــنته ـ فـــي الليـــل ـ قرطاســـا

والمـــوت كـــان بـــه ، والهـــم قارنـــه ... حتـــى ســـقاه التـــي أودي – بهـــا ـ الكاســـا

رُزئتـــه حـــين باهيـــتُ الرجـــالَ بـــه ... وقـــد بنيـــتُ بـــه – للـــدهر ـ آساســـا

فلـــيس مَـــن مـــات مَـــردوداً لنـــا أبـــداً ... حتـــى يـــردّ علينـــا – قبلـــه ـ ناســـا

وذات يوم أمرت زبيدة أبا العتاهية بكتابة أبيات على لسانها للمأمون ، فأنشد يحكي عنها يقول:

ألا إن صـــــرف الـــــدهر يُـــــدْني ويُبعـــــدُ ويُمتـــــعُ بـــــالآلاف طـــــوْراً ، ويُفقـــــدُ

أصـــــابت بريـــــب الـــــدهر منـــــي يـــــدي فســـــلّمتُ للأقـــــدار ، واللهَ أحمـــــد

وقلـــــت لريـــــب الـــــدهر: إنْ هلكـــــتْ يـــــدٌ فقـــــد بقيَـــــتْ - والحمـــــدُ لله - لـــــي يـــــد

إذا بقـــــي المـــــأمون لهـــــا ، فالرشـــــيد لـــــي ولـــــي جعفـــــرٌ لـــــم يُفقـــــدا ومحمـــــد

وعند قراءة المأمون للأبيات أرسل في الطلب إليها وقال لها: من قائل هذه الأبيات؟ قالت: أبو العتاهية. قال: وكم أمرتِ له؟ قالت:عشرون ألف درهم. قال: وقد أمرنا له بمثل ذلك. واعتذر إليها مِن قتل أخيه محمد. وقال: لستُ صاصيه ولا قاتله علم الله؟ فقالت: يا أمير المؤمنين إن لكما يوماً تجتمعان فيه ، وأرجو أن يغفر الله لكما. وأخذ المأمون يزيد في كرمه على زبيدة وأسرتها ، فكان يعطيها كل سنة مائة ألف دينار وألف ألف درهم. وكانت تعطي أبا العتاهية مائة دينار وألف درهم. وحدث أن نسيته سنة فكتب إليها يقول:

خبرونـــــي أن فـــــي ضـــــرب الســـــنة جُـــــدداً بيضـــــاً وصُـــــفراً حَسَـــــنة

سِـــــككاً قـــــد أحـــــدثت لمارهـــــا مثـــــل مـــــا كنـــــتُ أرى كـــــل ســـــنة

فكانت ترد زبيدة وتقول: إنا لله أغفلناه فوجهتْ إليه بوظيفة ، وكانت كريمة معه أشد الكرم. إن تذوق الشعر ونقده ملكة وعاطفة ، وليست المسألة ارتجالاً! وشعر زبيدة مُدوّن في كتب السير والتراجم! وهو ناطقٌ بما كان لديها من ملكةٍ وتذوق! وكانت تستنشد الآخرين والأخريات لتستمع إلى الشعر وتتذوقه! ومن هنا نعلم أن النص الشعري عند الأميرة زبيدة كان ينبثق من تذوق وملكةٍ ومناسبةٍ وحالةٍ وجدانيةٍ وعاطفة! وفي مقالة طويلة عنوانها: (مقدمات في تذوق النص الأدبي) يشاركنا الأستاذ الشاعر الأديب فواز بن عبد العزيز اللعبون أستاذ الأدب والنقد في كلية اللغة العربية – رأينا ورؤيتنا فيقول في بعض سطور مقالته ما نصه: (إن طبيعة الإنسان العربي أنه مَيّال إلى الكلمة الجميلة ، سريع التأثر بها ، ولذا وجدنا الأمة العربية الإسلامية أمة بيان ، يؤكد ذلك دستورها الخالد القرآن الكريم ، وقبل ذلك تاريخها العريق الذي كان ولم يزل يؤكد أن من البيان سحراً. على هذا تتوفر مهارة التمييز الجمالي عند كثيرين ، غير أن صقل هذه المهارة اختصاص علمي ينمو بالممارسة والقراءة. وقد ظل تذوق الشعر بخاصة يميل إلى الأحكام الانطباعية طوال قرون ماضية ، فكنا نسمع ونقرأ أمثال هذه التوصيفات: أشعر بيت ، أجمل بيت ، أجود قصيدة ، أفضل شاعر ، وهذه أحكام انطباعية مرهونة بحالات انفعالية غالباً ، وقد جاء النقد القديم والحديث ليرسخ للتعليل ويقلل من هذه العموميات. وعلى سبيل المثال تبدو المرحلة العمرية مثالاً مناسباً للتوضيح ، فللفتيان نصوص تلائمهم ، وللشباب نصوص شعرية تبدو أكثر مناسبة من سواها ، وكبار السن ربما لاءمتهم مضامين أكثر وقاراً. إن من المناسب جداً أن ينتقي المتلقي ما يعينه حقيقة على التذوق من خلال مراعاة حالته العمرية أو حالته الشعورية ، إذ لا بد له من الإحساس بالنص إحساساً جليّاً ، وإلا فإن تواصله معه سيكون ضعيفاً. وفي تراثنا العربي نماذج تؤكد أن انقطاع التواصل بين المتلقي والنص يولد فجوة سلبية ،

ولعلكم تذكرون البيت الذي قاله أحد الشعراء في ممدوحه الأمير الذي كان متخوفاً من فشل يحيق به! (ولا شك أن الأميرة زبيدة تمتعت ومرت بكل هذا ، وعلمها للقرآن والسنة جعلها في مكانة تستطيع من خلالها تذوق الشعر ونقده) ، وعموماً هناك متذوقون يحفلون بالأداء الفني الذي يخدم الرؤية بعمق ، وهناك أيضاً من يفضل التناول المباشر ، لأجل ذلك يجب أن ينتقي المتلقي ما يلائم وعيه ، فقصائد ابن الرومي مثلاً تلائم أولئك الذين يحبون اعتصار المعاني ، والذين لا يحبون الاسترسال الممل والتطويل لن يروق لهم شعر ابن الرومي كثيراً ، والذين تستهويهم الحكمة سيفضلون شعر المتنبي على شعر البحتري ، ومن يروق لهم الشعر الغنائي المطبوع سيجدون في شعر البحتري ضالتهم. والطريف أن يتعصب بعض المعاصرين في رفض شاعر أو قبول آخر ، ومرد ذلك كله إلى اختلاف الأذواق ، فما يكون له قبول عند متلقٍّ ربما يكون محدود القبول عند آخر. وعلى هذا فإن مبدأ التذوق الشعري يُتيحُ للمتلقي أن يقرأ ويسمع لمن يجد في شعره مبتغاه الذي يُلائم معطياتِ تكوينه ووعيه. ويحاول بعض الهواة تذوق الشعر ، فيقعون في انفصام جمالي ، هذا الانفصام مؤداه الانقطاع عن المعاصرة ، والانغماس في التراث ، أو العكس ، وهذا من شأنه تشكيل ذائقة مغيَّبة مشوهة ، فالأساس في التذوق الجمالي للشعر أن يتربص المتلقي بالجمال البياني الحقيقي أيّاً كان ، ثم يترصد للجماليات الأدبية التي تشكلت في زمنه ، فكثيراً ما صادفنا متذوقين لا يجدون الجمال إلا في الشعر القديم ، ولا يعترفون أبداً بجماليات المعاصرة ، أو يقللون من شأن إنتاجها ، وأمثال هؤلاء يفرضون على أنفسهم وعلى من يؤثرون فيهم عزلة وغربة. ولنذكر على سبيل المثال موقف الشاعر صفي الدين الحلي أحد شعراء القرن الثامن الهجري ، فقد كان يدعو المبدعين إلى معايشة الواقع من حولهم ، ويسخر من أولئك الذين يتخاصمون مع المعاصرة ، ولا يرون إلا النموذج الأقدم! وأذْكر أيضاً أن طلاباً انقطعوا للشعر القديم يتذوقونه ويدرسونه ، وينظمون على منواله ، وهجروا الشعر المعاصر ، كما أذكر أيضاً زملاء آخرين تعصبوا للمعاصرة والتحديث ، واستنقصوا القديم ، وبسبب هذه الهوة من هؤلاء وأولئك تحوَّل بعضهم فجأة إلى الشعر العامي ينظم على منواله ، أو يوغل في دراسته وتحليله! والمضمون هو ما اشتمل عليه النص من موضوعات ورؤى ، ويجب التنويه إلى أن المضامين التي ترد بصفتها موضوعات يناسبها وصف: (الغرض) ، أما المضامين التي تكشف عن رؤية الشاعر وفكرِه فيناسبها وصف: (اتجاه) ، ويحسن التنويه هنا إلى أن معظم الشعر القديم يناسبه تصنيف الأغراض أكثر من تصنيف الاتجاهات! بخلاف معظم الشعر الحديث والمعاصر الذي يناسبه تصنيف الاتجاهات لا الأغراض! على أنه يمكن الجمع بين التصنيفين في القصيدة الواحدة ـ سواء أكانت قديمة أم حديثة ـ متى وجد الدارس حضوراً ظاهراً لهما. وعلى ذلك فالغرض هو موضوع القصيدة الرئيس الذي تكشف عنه ـ في العادة ـ مناسبة النص ، ومن أبرز الأغراض الشعرية: الغزل ، والمديح ، والرثاء ، والهجاء ، والوصف ، وما يتفرع من هذه الأغراض؛ كبكاء المدن والبلدان الذي يتفرع عن الرثاء. والاتجاه هو رؤية النص العامة! ومن أبرز الاتجاهات في الشعر الحديث والمعاصر: الاتجاه الوجداني ، والاتجاه التأملي ، والاتجاه الاجتماعي ، والاتجاه السياسي ، على أن كل اتجاه قابل لأن تنخرط تحته تفريعات أخرى ؛ فالاتجاه الوجداني مثلاً يدخل في إطاره شعر الغزل ، وشعر الحنين ، وشعر الشكوى ، وبعض أنواع الرثاء).هـ. ولا شك أن الأميرة زبيدة كانت تذكّرنا بالخنساء وهي تناظر شعراء الجاهلية وتعدّل لهم! وإن لم تبلغ درجة الخنساء في الإجادة ، ولكن لها ذات النفس وذات الرؤية وذات الحس الشعري!

(زبيدة بين الأمين والمأمون)

لقد رزق الله تعالى أمته زبيدة ولدها الأمين بعد طول ترقب وانتظار على أحرّ من الجمر! واعتادت أن ترفق به بصورةٍ مبالغةٍ لا تصفها الكلمات ، إلا أن رفقها به وحبها له لم يمنعها من أن تُجهد نفسها في تعليمه وتأديبه وتهيئته لتولي الخلافة بعد أبيه ، آخذة بجميع الأسباب التي توصله إلى الهدف الذي ترجوه له. وكانت السيدة زبيدة تحمل في طياتها شخصية جريئة شديدة الثقة بنفسها وبرأيها ، وتتمتع بروح الإصرار والتحدي والتطلع للإنجازات العظيمة ، وكان لها دورٌ كبيرٌ في تولية ابنها محمد الأمين ولاية العهد من بعد أبيه ، فقد أوعزتْ إلى أخيها عيسى بن جعفر أن يطلب مساعدة الفضل بن يحي البرمكي في تولية ابنها ولاية العهد الأولى ، على الرغم من صغر سِنه ومعارضة الكثير من الهاشميين ، فسار عيسى بن جعفر إلى الفضل بن يحيى وقال له: أنشدك الله أن تعمل على أخذ البيعة لابن أختي – يعني محمد بن زبيدة – فإنه ولدك وخلافته لك ، فوعده الفضل أن يفعل ، ولما سار الفضل إلى خراسان أعلن ولاية العهد لمحمد بن زبيدة ولقبه بالأمين ، وأخذ له البيعة من الخراسانيين قبل أن يتمكن الرشيد من فعل ذلك في بغداد (الطبري ، تاريخ ، جـ8 ، ص240- 241). وهناك رواية تاريخية تداولها كثير من المؤرخين المحدثين ، ومفادها أنه عندما نما إلى علم زبيدة أن الرشيد يهم بأخذ البيعة لابنه المأمون دخلت عليه معاتبة ، وقالت له: ابني والله خيرٌ من ابنك وأصلح لما تريد ، فرد عليها الرشيد: ويحك يا زبيدة! ما هي إلا أمة محمد ورعاية من استرعاني الله ـ تعالى ـ مُطوّقاً بعنقي ، وقد عرفت ما بين ابني وابنك ، ليس ابنك أهلاً للخلافة ولا يصلح للرعية! والمعروف تاريخياً أن الرشيد ولى ابنه الأمين ولاية العهد الأولى سنة 175هـ / 791م ، ولم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره (اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، (بيروت: دار صادر د ت) جـ2، ص408 ، الطبري ، تاريخ ، جـ8 ، ص240،241،545). والحقيقة أن حب السيدة زبيدة لوحيدها محمد الأمين وعاطفة الأمومة وحرصها على تميز ولدها ، كل هذه الأشياء جعلتها تستخدم جميع ما لها من تأثير ونفوذ على زوجها ، وبمساعدة إخوتها وبعض من أيدها من البيت العباسي ، لتتم البيعة بولاية العهد للأمين أولاً ، وبعد ثماني سنوات من بيعة الأمين وفي عام 183هـ/799م ولى الرشيد ابنه عبد الله (المأمون) ولاية العهد الثانية ، ويبدو أن ذلك حصل بتأثير من وزيره جعفر بن يحيى البرمكي ، الذي تعهد بتربيته (اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، جـ 2، ص 415، الطبري ، تاريخ ، جـ 8 ، ص269 ، 275 ، 360). ومما يؤثر عنها أنها دخلت على الرشيد يوما فقالت له: ما أنصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه فقال لها: إني وليت ابنك السلم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوجُ إلى رجال من المُسالم ، ومع هذا فأنا أتخوف ابنك على عبد الله ، ولا أتخوف عبد الله على ابنك إن بويع! (المسعودي ، مروج ، ج3 ، ص363) ، إلا أن هارون الرشيد برضوخه لتأثير زوجته زبيدة ، وتقديم الأمين على المأمون بولاية العهد على الرغم من أنه كان أصغر من أخيه وتقسيم البلاد بينهما ، يكون قد بذر بذرة الخلاف بين الأخوين وجر البلاد إلى كارثة حقيقية وصراعات حزبية وفتن داخلية أفضت إلى قيام الحرب الأهلية بينهما ، وأدت إلى مقتل الأمين مظلوماً في 25محرم 198هـ / أغسطس813 م. أما ما جاء عن دور السيدة زبيدة في هذه الحرب ، فهو أنها دفعت إلى علي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين لحرب المأمون ، عندما حضر إلى بابها ليودعها قيداً من فضة ليقيد المأمون به إذا انتصرعليه وقالت له: "يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي وإليه انتهت شفقتي ، فإني على عبد الله ، تعني المأمون ، منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، فاعرف لعبد الله حق ولادته ولا تجابهه

بالكلام ، فإنك لست نظيرآ له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد إذا ظفرت به ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، وإن شتمك فاحتمله ، فقال لها: سأفعل ما أمرت به". (الطبري ، تاريخ ، ج 8، ص 391 ، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا ، الفخري في الأدآب السلطانية ، (بيروت: دار بيروت 1385 هـ) ص214). ولا شك أن السيدة زبيدة قد جزعت على موت ابنها جزعاً شديداً ، وعانت بعد موته معاناة عظيمة ، ففي أثناء حصار جيوش المأمون - بقيادة طاهر بن الحسين - لبغداد أحاط طاهر بقصرها المعروف بالقرار بالخيول والسلاح ، إلا أن ابنها الأمين تمكن من إخراجها وولديه موسى وجعفر من الحصار ، ونقلهم إلى قصر أبي جعفر. (الطبري تاريخ ، ج8 ، ص474). وبعد مقتل الأمين أجبر طاهر بن الحسين السيدة زبيدة وحفيديها موسى وعبد الله على الانتقال من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد أيضاً في بغداد ، وأمر بحفظ باب القصر عليها وضيق عليهم ، ثم انتزع حفيديها موسى وعبد الله ، وأمر بإرسالهما إلى عمهما المأمون في خراسان. (الطبري ، تاريخ ، ج8 ، ص496). إلا أنها بحكمتها وحِنكتها السياسية استطاعت أن تستميل إليها المأمون ، وتستدر عطفه ووده الذي شملها به حتى وفاتها ، فعندما دخل المأمون إلى بغداد خليفة سنة 204هـ / 819م استقبلته استقبالاً يليق بمكانة أمير المؤمنين وقالت له: أهنيك بخلافةٍ قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنتُ فقدت ابنا ولدته خليفة ، لقد عُوضتُ ابناً لم ألده خليفة ، وما خسر من اعتاض مثلك ، ولا ثكلت أمٌ ملأتْ يدها منك! وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وإمتاعاً بما عوّض ، فلما خرجت قال المأمون لوزيره أحمد بن أبي خالد الأحول: ما ظننت أن نساءً جُبلن على مثل هذا الصبر. (محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تحقيق محمد عبد القادر شاهين ، ط2 ، (بيروت: المطبعة العصرية 1420 هـ - 1999م ، ج2 ، ص120 ، الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج14 ، ص 434 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ 2، ص316 ، سليمان البواب ، مائة أوائل ، ص 384). وقيل إن المأمون دخل عليها بعد قتل ابنها الأمين ، يعتذر إليها ويُعزيها فيه ويُسكن ما بها من الحزن ، فقال لها: يا سِتاه ، لا تأسفي عليه فإني عِوضه لك ، فقالت: يا أمير المؤمنين كيف لا آسف على ولدٍ خلف أخاً مثلك ، ثم بكتْ ، وأبكت المأمون حتى غَشِيَ عليه ، كما قالت له: إن لكما يوماً تجتمعان فيه ، وأرجو أن يغفر الله لكما! (ابن عبد ربه ، أخبار النساء ، ص 90 ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج2 ، ص 214). والله الذي بعث محمداً – صلى الله عليه وسلم – بالحق رسولاً نبياً إن الأميرة زبيدة لآية من آيات الله في الصبر والتصبر ، وفي العلم والتعلم ، وفي الحلم والتحلم! ومهما نحاول نحن اليوم - كما حاول قبلنا بالأمس وسوف يحاول غيرنا غداً - وصف حالة الأميرة زبيدة والوقوف على حقيقة شخصيتها بدقة ، ما استطعنا ولا استطاع غيرنا إلى ذلك سبيلاً! لقد كانت جبلاً في الصبر والمصابرة! كما كانت جبلاً في الحكمة والأناة! وكأنها تنطق كلماتها وتتصرف تصرفاتها بدراسةٍ متناهيةٍ لما صغر أو كبر من العواقب التي تُعقِب الكلمات والتصرفات! ولكأنها تزنها بميزان قبل أن تصدر عنها! مما حدا بالمأمون ذاته أن يُثني عليها وعلى كلامها!

(زبيدة والحركة الأدبية والعلمية في زمانها)

ولنطالع موقف زبيدة من الحركة الأدبية والعلمية ، فنقول: لم يكن دور سيدة بغداد الأولى في عهد الرشيد مقصوراً على دور الزوجة البارة المُحِبة لزوجها ، أو دور الأم المربية الحنونة على ابنها فحسب ، بل كان لها دورٌ نشط ولمساتٌ متميزة في الحركة الأدبية المزدهرة في بغداد في ذلك الوقت ، وساعدها على ذلك ما تتمتع به من رأي وفصاحةٍ وبلاغةٍ ، وثقافةٍ عاليةٍ وإحساس مرهف ، وكانت تنظِم الشعر لتعبر عما بداخلها ، ولم يكن ذلك بغريب عن عصر ازدهرت فيه الحركة الأدبية ، ولاقى الشعر والأدب اهتمامين بالغين من جميع طبقات المجتمع في هذا العصر ، وما القصيدة التي بَعثت بها إلى الخليفة المأمون بعد مقتل ابنها إلا دلالة واضحة على بلاغتها وفصاحتها ، فقد ذكر أنه لما قتل ابنها الأمين ، دخل عليها بعض خدمها فقال: ما يُجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد ، فقالت: ويلك وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت: اخسأ لا أم لك! ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟! ثم أمرت بثيابها فسوّدت عليها ولبست مسحاً من شعر ، ودعت بدواةٍ وقرطاس وكتبت إلى المأمون ، وقيل إنها أرسلت إلى أبي العتاهية ليقول أبياتاً على لسانها للمأمون ، وقيل أن خزيمة بن الحسن رثاه على لسانها ، والراجح أن هذه الأبيات من شعرها هي تصف حالها وتصبّر نفسها! (الطبري ، تاريخ ، ج8 ، ص 506 ، ابن عبد ربه ، أخبار النساء ، ص 89-90 ، المسعودي ، مروج الذهب ، جـ 3، ص423-424):

لخيـــــر إمـــــام مِـــــن خيـــــر عنصـــــرِ ... وأفضـــــل ســـــام فـــــوق أعـــــوادِ منبـــــرِ

لـــــوارث علـــــم الأولـــــين وفهمهـــــم ... وللملـــــك المـــــأمون مـــــن أم جعفـــــر

كتبـــــتُ وعينـــــي مســـــتهلّ دموعهـــــا ... إليـــك ابـــن عمـــي مِـــن جُفـــوني ومِحجـــري

أتـــــى طـــــاهر لا طهـــــر الله طـــــاهراً ... فمـــــا طـــــاهرٌ فيمـــــا أتـــــى بمطهـــــر

فـــــأبرزني مكشـــــوفة الوجـــــه حاســـــراً ... وأنهـــــب أمـــــوالي ، وأحـــــرقُ أدوُري

يعـــز علـــى (هـــارون) مـــا قـــد لقيتـــه ... ومـــا مـــر بـــي مِـــن نـــاقص الخلـــق أعـــور

فـــإن كـــان مـــا أســـدي بـــأمر أمرتـــه ... صـــبرتُ لأمـــر مِـــن قـــدير مُقـــدّر

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ، ثم قال: اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه - لما بلغه قتل عثمان: والله ما أمرت ولا رضيت ، اللهم جلل قلب طاهر حزناً! (المسعودي ، مروج الذهب ، جـ3، ص 424). وقيل إنها أرسلت إلى أبي العتاهية ليقول أبياتا على لسانها للمأمون وقد ذكرناها آنفاً! (ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج3 ، ص 206). وقد استمالت زبيدة إليها الشعراء ، ومن عطفها عليهم ما حدث به عمر بن بانة فقال: كنا في دار أم جعفر من الشعراء والمغنيين ، فخرجت جارية لزبيدة وكمها مملوء دراهم فقالت: أيكم القائل: (من ذا يعيرك عينه تبكي بها *** أرأيت عيناً للبكاء تعـارُ؟!) فأومئ إلى العباس بن الأحنف ، فنثرت الدراهم في حِجره ، فنفضها فالتقطها الفراشون ، ثم دخلت ومعها ثلاثة نفر من

الفراشين في عنق كل فراش بدرة فيها دراهم فمضوا بها إلى منزل العباس بن الأحنف (ابن عبد ربه ، أخبار النساء ، ص90). وأنشد أحد الشعراء مدحاً في زبيدة وهي تسمع فقال:

أزبيـــــــــدة ابنـــــــــة جعفـــــــــر طـــــــوبى لزائـــــــرك المثـــــــاب

تعطـــــــين مـــــــن رجليـــــــك مـــــــا مـــــا تعطـــــي الأكـــــف مـــــن الرغـــــاب

فوثب إليه الخدم يضربونه ، فقالت: لا تفعلوا فإنه إنما أراد الخير فأخطأ ، ومن أراد الخير فأخطأ أحب إلينا ممن أراد الشر فأصاب ، وإنما هو – يا قومنا - أراد حقيقة أن يقول على قول الشاعر الجهبذ ما معناه: (شمالك يا هذه أجود من يمين غيرك ، وقفاك أحسن عندي من وجه غيرك) ، فظن أنه إذا ذكر الرجلين أنه أبلغ في المدح ، أعطوه ما أمّل وعرفوه ما جهل ، وأمرت له بجائزة! (ابن عبد ربه ، أخبار النساء ، ص91، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ 2، ص 315). وكان المأمون يوجّه اليها في كل سنة مائة الف دينار ومليون درهم ، فكانت تعطي أبا العتاهية منها مائة دينار وألف درهم. (الأصفهاني ، أخبار النساء ، ص25 ، زينب العاملي ، معجم أعلام النساء ، ص 356). وأن مروان بن أبي حفصة قال أبياتاً ورفعها إليها يمتدح ابنها محمد الأمين وفيها يقول:

لله دَرُّكِ يـــــا عقـيلـــــة جعفـــــر مـــــاذا ولـــــدت مـــــن العـــــلا والســـــؤدَدِ؟

إن الخلافـــــة قـــــد تبـــــين نـورهـــــا للنـــــاظرين علـــــى جبـــــين محمـــــد

فأمرت – لفرط إعجابها بشعره - بأن يملأ فمه دُراً ، وقيل جوهراً ، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار! (ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج1 ، ص 237 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص316). وكما كانت السيدة زبيدة مرهفة الحس تتذوق الشعر ، كانت كاتبة وناقدة ، فقد وقعت في ظهر كتاب ورد إليها من أحد عمالها: أن أصلح كتابك وإلا صرفناك عن عملك ، فتأمله ذلك العامل بدقة فلم يظهر له فيه شيء ، فعرضه على بعض إخوانه فقرأ فيه: الدعاء لها وأدام كرامتك فقال: إنها تخيلت أنك دعوت عليها ، فإن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته! (كحّالة ، أعلام النساء ، ص26). وقد اختلفت مع الرشيد ذات يوم حول بيت شعر لجرير الذي يقول فيه:

إن العيـــــون التـــــي فـــــي طرفهـــــا حَـــــوَرٌ قتلتنـــــا ، ثـــــم لـــــم يحيـــــين قتلانـــــا

فكان الرشيد يقول (يحيين) وزبيدة تقول (يجنن) بالجيم والنون فتراهنا على ذلك بألفي دينار ، وأن يسألا أفضل من ببغداد من أهل العلم ، فإن صوب قول الرشيد أعطاه ألفاً ، وإن صوب قول زبيدة تُعطيه ألفها ، فاستفتيا الكسائي فصوبهما ، فأعطياه الألفين! وهذا يشبه اختلافهما على نوعين من الحلوى ، وقد أوردناه من قبل! ولا نكرر! (عبد المنعم الهاشمي ، الخلافة العباسية ص224). وكان يعقد في قصرها مجالس للعلماء والأدباء ، وكانت تُقدر أهل الفضل والعلم والأدب ، وتُسرف (أي تبالغ) في تقديرهم وإكرامهم واحترامهم. إن زبيدة صبرت الصبر الجميل على رحيل ولدها الوحيد محمد الأمين! وبدا ذلك الصبر واضحاً وتجسد في أبهى وأزهى معالمه في كلماتها للمأمون وفي شعرها! قال زهير بن نعيم – رحمه الله - : (إنَّ

هذا الأمر – يقصد أمر الثبات على الحق - لا يتمُّ إلا بشيئين: الصبر واليقين ، فإن كان يقين ولم يكن معه صبر لم يتمَّ ، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين لم يتمَّ ، وقد ضرب لهما أبو الدرداء – رضي الله عنه - مثلًا فقال: مثل اليقين والصبر مثل فَدادين يحفران الأرض ، فإذا جلس واحد جلس الآخر). وقال أبو عبد الرحمن المغازلي – رحمه الله -: (دخلت على رجل مبتلى بالحجاز ، فقلت: كيف تجدك؟ قال: أجد عافيته أكثر مما ابتلاني به ، وأجد نِعَمه عليَّ أكثر من أن أحصيها ، قلت: أتجد لما أنت فيه ألـمًا شديدًا؟ فبكى ثم قال: سلا بنفسي عن ألم ما بي ما وعد عليه سيدي أهل الصبر من كمال الأجور في شدة يوم عسير ، قال: ثم غشي عليه فمكث مليًّا ، ثم أفاق ، فقال: إني لأحسب أنَّ لأهل الصبر غدًا في القيامة مقامًا شريفًا لا يتقدمه من ثواب الأعمال شيء ، إلا ما كان من الرضا عن الله تعالى). وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (إنَّ أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أنَّ الصبر كان من الرجال كان كريمًا). وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: (ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس باد الجسد ، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له). وقال أيضاً: (الصبر مطية لا تكبو ، والقناعة سيف لا ينبو). وقال عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر – رحمه الله -: (ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه ، فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزع منه ، ثم قرأ: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ). وجاء رجل إلى يونس بن عبيد – رحمه الله - فشكا إليه ضيقًا من حاله ومعاشه ، واغتمامًا بذلك ، فقال: (أيسرك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا. قال: فبسمعك؟ قال: لا. قال: فبلسانك؟ قال: لا. قال: فبعقلك؟ قال: لا... في خلال. وذكَّره نعم الله عليه ، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفًا وأنت تشكو الحاجة؟!). وعن أبي ميمون – رحمه الله - قال: (إن للصبر شروطًا ، قلت -الراوي-: ما هي يا أبا ميمون؟ قال: إن من شروط الصبر أن تعرف كيف تصبر؟ ولمن تصبر؟ وما تريد بصبرك؟ وتحتسب في ذلك وتحسن النية فيه ، لعلك أن يخلص لك صبرك ، وإلا فإنما أنت بمنزلة البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك ، ثم هدأ فهدأت ، فلا هي عقلت ما نزل بها فاحتسبت وصبرت ، ولا هي صبرت ، ولا هي عرفت النعمة حين هدأ ما بها ، فحمدت الله على ذلك وشكرت). وقال أبو حاتم – رحمه الله -: (الصبر على ضروب ثلاثة: فالصبر عن المعاصي ، والصبر على الطاعات ، والصبر عند الشدائد المصيبات ، فأفضلها الصبر عن المعاصي ، فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة التي ذكرناها بلزوم الصبر على المراتب التي وصفناها قبل حتى يرتقي بها إلى درجة الرضا عن الله جل وعلا في حال العسر واليسر معًا). وقال زياد بن عمرو – رحمه الله -: (كلنا نكره الموت وألم الجراح ، ولكنا نتفاضل بالصبر). وعن إبراهيم التيمي – رحمه الله - قال: (ما من عبد وهب الله له صبرًا على الأذى ، وصبرًا على البلاء ، وصبرًا على المصائب ، إلا وقد أُوتي أفضل ما أوتيه أحد ، بعد الإيمان بالله). وعن الشعبي – رحمه الله - قال شريح – رحمه الله -: (إني لأصاب بالمصيبة ، فأحمد الله عليها أربع مرات ، أحمد إذ لم يكن أعظم منها ، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها ، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب ، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني). وقال ميمون بن مهران – رحمه الله -: (الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسن ، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي). وفي ضوء أقوال السلف عن الصبر والتصبر والاصطبار نستطيع القول بأن الأميرة زبيدة قد فجعت بابنها ولا شك ، وإذ فقدته إلى الأبد فلم تفقد إيمانها وتوحيدها طرفة عين ولا أقل من ذلك! فغلبت الإيمان على المصيبة فانتصر الإيمان فرزقها الله الثبات والتصبر!

(زبيدة رائدة العمل الخيري والتطوعي في العصر العباسي)

لقد كانت السيدة زبيدة تتفقد أحوال الأطباء وأرباب التقوى والصلاح والعلماء ، ومن هؤلاء الطبيب الشهير المعروف جبرائيل بن بختيشوع ، فقد عينتْ له راتباً شهرياً قدره خمسون ألف درهم! (كحالة ، أعلام النساء ، ص26) ، ورجل الفتوى العباسي أبو يوسف بن يعقوب بن إبراهيم القاضي ، وقد كتبت إليه تستفتيه في مسألة فأفتاها ، فجاءت فتواه ـ قدَراً ـ كما أحبت ، فبعثتْ إليه بعلبة من فضة فيها علب فضة مطبقات في كل واحدة لون من الطيب وفي جام دراهم وسطها جام ، فيه دنانير! فقال له جليس كان معه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها ، فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر ، لا في هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العين والورق وغيره ، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء! (المسعودي ، مروج الذهب ، جـ 3 ، ص351 ، عبد الله بن أسعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، (بيروت: دار الكتب العلمية) ج1 ، ص300). والحقيقة أنني لا أعول على (المسعودي) في مروجه ولا على (السهيلي) في روضه الآنف كثيراً لرافضية كل منهما! ولكن تقوم الحجة بخبرهما إذا ورد في كتب أهل السنة! كذلك عُرف عن السيدة زبيدة التقوى والصلاح والورع. فكانت لها مائة جارية يحفظن القرآن عن ظهر قلب ، ولكل واحدةٍ منهن ورد ؛ أي عُشر القرآن تقرأ منه ، فكان يسمع في قصرها دوي كدوي النحل من قراءة القرآن! (وهذا الأثر مشهور ، فلقد أورده ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ 2، ص314 ، والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ10، ص241، وابن وردان ، تاريخ العباسيين ، تحقيق د/ المنجي الكعبي ، (بيروت: دار الغرب الإسلامي) س 460 ، ومحمد كمال الدين الأدهمي ، مرآة النساء ، تحقيق: منى محمد زياد الخياط ، (دمشق: دار التوفيق 1420هـ 2000م) ص108). فماذا عن الأميرة زبيدة وتطوير الملابس والزينة النسائية: لقد نشأت السيدة زبيدة في عصر ذهبي ، شهد نهضة في الأوساط النسائية في جميع مناحيها ، وفي عهد خليفة اتسع ملكه ، لدرجة أن أمير المؤمنين كان يقول معها للغمامة حين تمر فوقه: اذهبي فأمطري أنى شئت ، فإن خراجك سوف يأتينا! فامتلأت خزينة الدولة بالأموال الطائلة! فقد أورد الجهشياري في كتابه الوزراء قائمة بهذه الأموال. (محمد بن عبدوس الجهشباري ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون ،(القاهرة: مطبعة مصطفى الباني د.ت) ، ص 281-288) ، كما ذكر الطبري أنه عند وفاة الرشيد كان في خزينة الدولة تسعمائة مليون ونصف مليون دينار (الطبري تاريخ ، ج8 ، ص364 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج 10 ، ص222) ، وفي عهد الخليفة الرشيد امتلأت خزائنه الخاصة بثروات ضخمة لا تقدّر بثمن ، فقد خلّف الرشيد عند وفاته من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء من الجواهر والأثاث والأمتعة إلى جانب الضِياع والدور ما قيمته مائة مليون وخمسة وثلاثون ألف دينار! (وذكر ذلك ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج10 ،ص222 ، ومحمد بهيم ، المرأة في حضارة العرب ، ط1 دار النشر للجامعين 1962 ، ص 208 ، ومحمد كمال الأدهمي ، مرآة النساء ، ص107)! وقد كان لزبيدة نصيب كبير من هذه الثروة ، يقول أبو الفرج الأصفهاني "وكانت لها ثروة عظيمة" (أبو الفرج الاصفهاني ، أخبار النساء في كتاب الأغاني ، ص24) ، وأيضاً لا أعول كثيراً على أبي الفرج الأصفهاني ، لا في أغانيه ، ولا في أي كتاب آخر له ، لرافضيته العاتية القاسية ولبغضه المكشوف للسنة وأهلها ولكذبه ولتدليسه ولوضعه ، تلك الأشياء التي ثبتت عنه بيقين ، وقد كتبت في ذلك قصيدة شرحت في مقدمتها تحاملي الشديد عليه! ولكن إذا أورد خبراً توافق عليه أهل السنة فأعتبره مقبولاً! وأعود إلى زبيدة فأقول: كان لها نصيب كبير جداً من هذه الثروة

المالية في عصر الرشيد! وما يدلنا على غِناها وكثرة ثروتها وتحكمها في ثروة زوجها ، أن الرشيد كان يوماً عندها ، فقدِمَتْ أموال من مصر تقدّر بثلاثمائة ألف دينار ذهب فقالت له: هبها لي يا ابن عمي ، فوهبها لها! (ابن كثير ، البداية ، ج10 ، ص 219) ، تُعضدها رواية أخرى ، وهي أن السيدة زبيدة عندما علمت بوفاة زوجها الرشيد بطوس سنة 193هـ/809م ، وكانت هي بالرّقة ، حملتْ جميع ما كان في خزائن الرشيد وما كان عندها من التحف والنفائس إلى بغداد ، وفي الطريق عند الأنبار تلقاه ابنها الأمين ومعه وجوه الناس. (ابن كثير ، البداية ، ج10 ، ص 223). ومما لا شك فيه أن هذا الثراء كان عاملاً من عوامل اهتمامها بمظاهر الترف والزينة ؛ التي كانت من سمات هذا العصر الذهبي ، فقد بالغت السيدة زبيدة في استخدام الخدم والحشم والآليات في قصرها ، فكانت أول من اتخذ الشاكرية والخدم الجواري يسيرون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها ، وكانت أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المرصعة بالجواهر. (ابن عبد ربه ، أخبار النساء في العقد الفريد ، ص91) ، كما كان لها أثر كبير في تطور الزي النسائي ، وإدخال بعض التغييرات على ملابس النساء ووسائل الزينة ، حتى أصبحت أنموذجاً للمرأة في عصرها ، فقد عممت رؤوس الجواري وجعلت لهن الطرز والأصداغ الأفعية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، وقد أسرفت في شراء ملابسها وزينتها ، وقد صنع لها الرفيع من الوشي حتى أنها اتخذت ثوباً من الوشي ، يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، وكانت أول من ابتكر اتخاذ الخِفاف والنعال المرصعة بالجواهر وشمع العنبر والقباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمّور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأزرق ، وتشبهت النساء في بغداد بها! وطبعاً لا يخفى أن هذه الزينات كانت في بيوت النساء للأزواج وللأبناء وللمحارم ، وليست أبداً في الطرقات والأماكن العامة ، أو للأجانب من غير محارم المرأة! (ابن عبد ربه ، أخبار النساء في العقد الفريد ،ص91). وقد ألبست السيدة زبيدة (بوران بنت الحسن) يوم زفافها من الخليفة المأمون بيدها قسماً من ملابسها ومن بينها البدنة الأموية التي أهداها لها زوجها الرشيد يوم زواجها. (ابن الساعي ، نساء الخلفاء ص67) ، ومما يدل على استحسان بوران بنت الحسن ورداً للجميل الذي قدمته لها السيدة زبيدة من هدايا ثمينة ، أنها سألت زوجها المأمون في نفس الليلة الإذن للسيدة زبيدة بالحج فأذن لها! (ابن الساعي ، نساء الخلفاء ، ص67.Hugh Kennedy ,When Baghdad ،p.170). والآن لنتابع زبيدة بين الأنشطة الاجتماعية والمشروعات العمرانية: لقد كان للأنشطة الاجتماعية نصيب كبير من ثروة سيدة بغداد الأولى ، ففي مجال الرعاية الاجتماعية انتفع بها عامة الناس خير انتفاع ؛ فقد أقامت ملاجئ للغرباء وتكايا للفقراء وحمامات مجانية وأروقة وميضات على باب أجياد الكبير ومساجد ؛ منها: مسجد زبيدة في بغداد ومسجد بذي طوى عند ثنية المدنيين المشرفة على مقبرة مكة. (الأزرقي ، أخبار مكة وما فيها من أثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، ط7 ، (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة 1415هـ /1995م) ج2 ، ص203 ، محمد بن إسحاق الفاكهي ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق: عبد الملك بن دهيش ، ط2 ، (بيروت: دار خضر للطباعة 1414 هـ-1994 م) ، ج4 ، ص33 ، ابن عبدربه ، أخبار النساء في العقد الفريد ، ص91 ابن كثير ، البداية ، ج10 ، ص222 ، أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ط6 ، (مكة: مطبوعات نادي مكة الثقافي 1404هـ/1984م) ، ج 1، ص157) ، ودور للسبيل بمكة والثغر الشامي وطرسوس ، حتى قال بعضهم: ولها من الصدقات والأوقاف ووجوه القربات الشئ الكثير! (المسعودي ، مروج الذهب ج4 ، ص316 ، ابن وردان ، تاريخ العباسيين ، ص 460). ولم تقتصر عنايتها في هذا الجانب على المسلمين ، بل شملت رعايتها النصارى في العراق ؛ منطلقة من تعاليم الدين الإسلامي المطهر الحنيف الذي يأمر

برعاية حقوق غير المسلمين ؛ فقد تفقدت أحوالهم ، وكانت تعاملهم بكثير من الرفق ، وتستعين بهم ، وقد حصلت على إذن رسمي من الخليفة هارون الرشيد لإعادة بناء ما تهدم من كنائس البصرة ، كما كانت تُكرم طيماثاوس الجاثليق النسطوري الذي انتخب جاثليقاً في بغداد في عهد الخليفة المهدي في مايو سنة 780م! وظل مقرباً للبلاط العباسي في زمن الخليفة هارون الرشيد! (جان موريس فييه ، أحوال النصارى في خلافة بني العباس ، نقله إلى العربية: حسني زينه ، (بيروت: دار المشرق 1990م) ص96). أما مجال العمران فقد نال منها هذا الجانب اهتماماً بالغاً ، وأنفقت عليه بسخاء وسجل لها التاريخ أعمالاً عمرانية عظيمة تفوق مقدرة العظماء ، فابتنت قصوراً ومنها قصر القرار ، ويسمى أحياناً (قصر زبيدة) ، وهذا القصر كان موجوداً أيام المنصور ، نزله في آخر أيامه ، إلا أنه لم يكن ذا بناء ضخم! والسيدة زبيدة هي التي زادت في عمارته في عهد ابنها الأمين ، وقد بنى للأمين فيه مجلس لم تر العرب والعجم مثله ؛ صورت فيه كل التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة وفرش مثل ذلك من الفرش! (محمد مكية ، بغداد ، ط1 ، (بغداد : دار الوراق 2005م) ص 29). وهو القصر الذي حاصرها فيه طاهر بن الحسين عند حصاره لمدينة بغداد. وكان العمران الذي يختصّ بإصلاح الطرق وحفر الآبار على قائمة اهتماماتها ، فقد وهبت الكثير من وقتها وجهدها إلى أمور الحج والحجاج ، فجهزت طريق الحج الكوفة – مكة بكل ما يحتاج إليه المسافرون والحجاج من برك وآبار ومنازل وصهاريج مياه ومصانع (أي أحواض لحفظ الماء) حتى أطلق على هذا الطريق اسم درب زبيدة على اسمها. وفي الواقع لا توجد كتابات مفصلة ومستقلة في المصادر القديمة عن هذا العمل الضخم الذي قامت به السيدة زبيدة ، ماعدا بعض من الروايات المتناثرة في كتب المؤرخين والجغرافيين ، فقد ذكرالإمام أبو إسحاق الحربي المتوفى سنة 285هـ / 898 م المواقع على هذا الطريق من محطات ومنازل وقصور للراحة ومساجد للصلاة مدت جميعها بالمياه مثل البرك والأحواض والصهاريج والآبار ، وينسب ما هو من عمل السيدة زبيدة على هذا الطريق لها بقوله: قصر لأم جعفر أو بركة لزبيدة أو بركة لأم جعفر وأغلبها كما ذكر كانت على شكل دائرة (بركة زبيدية مدورة ولها مصفاة). وهذه المواقع وما بها من آثار للسيدة زبيدة هي: الهيثم ؛ موضع بين القاع وزبالة على ستة أميال من القاع ، يوجد به بركة وقصر لأم جعفر. (الإمام أبو إسحاق الحربي ، المناسك ، تحقيق حمد الجاسر ، ط 2 ، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر 1401هـ / 1981م) ص 283). الشقوق يوجد بها بركة زبيدية مدورة لها مصفاة ، وعلى ثلاثة أميال من الشقوق قصر لأم جعفر ، وعلى ستة أميال يمنة الطريق بركة زبيدية وقباب (مظلات) (الحربي ، المناسك ، ص 288). وعند البريد من بطان يوجد قصر لأم جعفر. وبعد التناهي ، بركة أمر بحفرها موسى بن عيسى ويقال إنها لزبيدة مدورة ولها مصفاة ، وعند مفترق الطريق إلى المنازل قصر لأم جعفر ، وعلى ثمانية أميال من الأجفر ، يوجد بها بركة زبيدية يقال لها: البلة. بتوز يوجد بها بركة مدورة زبيدية تعرف بالطارفية. بركة العنابة وهي بركة زبيدية مدورة غليظة الماء على أربعة أميال من توز يسرة الطريق. بركة زبيدية مدورة ولها مصفاة بسميراء. بركة لأم جعفر وقصر ، وبئر عذبة رشاؤها نحو أربعين ذراعاً عند قرورى ، موضع بين المعدن والحاجر على اثني عشر ميلاً من الحاجر. بركة لأم جعفر خلف قرورى بميل. بركة لأم جعفر مدورة قبل المشرق على بركة يقال لها فرعون. بركة لأم جعفر في أفيعية على بعد ستة وعشرين ميلاً ونصف من المعدن. بركة زبيدية مدورة بذات عرق. ومن القصيدة التي نظمت من قبل شخص يدعى (أحمد بن عمر) ، الذي رافق السيدة زبيدة في إحدى حجاتها ، وألحقها ابن الحربي في كتابه (المناسك)! ونحن يمكننا فعلاً تحديد تلك المواقع التي شيدتها زبيدة. أما ياقوت الحموي المتوفي

سنة626هـ /1228م ، فيحدد في كتابه معجم البلدان ، مواقع شيدتها السيدة زبيدة بعضها ذكر من قبل الحربي ، وهذه المواقع: المحدث ، وهو منزل لأم جعفر في طريق مكة على ستة أميال من النقرة! (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت دار صادر 1399هـ/ 1979م) ج 5 ، ص10). العنابة ، موضع على ثلاثة أميال من الحسنية في طريق مكة فيها بركة لأم جعفر بين توز وسميراء وماؤها ملح غليظ! (أبو الحسين محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، (بيروت دار الشرق العربي دت) ص 154 – 160). القنيعة بركة بين الثعلبية والخزيمية بطريق مكة لأم جعفر. الحسني بئر على ستة أميال من قرورى قرب معدن النقرة ، وهي لأم جعفر زبيدة بنت جعفر المنصور. قرورى ، موضع بين معدن النقرة والحاجر على اثني عشر ميلاً من الحاجر ، فيها بركة لأم جعفر وقصر وبئر عذبة الماء ، رشاؤها نحو أربعين ذراعاً ، وبقرورى يفترق الطريقان طريق النقرة ، وهو الطريق الأول عن يسار المصعد وطريق معدن النقرة وهو عن يمين المصعد. الزبيدية ، اسم بركة بين المغيثية والعذيب ، وبها قصر ومسجد عمرته زبيدة أم جعفر فنسبت إليها. الهيثم ، موضع ما بين القاع وزبالة بطريق مكة على ستة أميال من القاع فيه بركة وقصر لأم جعفر ومنه إلى الجريس ثم زبالة. بركة الخير ، وهي بركة عذبة لزبيدة بنيت على ميلين من التناهي ، وهو موضع بين بطان والثعلبية من طريق مكة على تسعة أميال من بطان. أما الرحالة ابن جبير المتوفى سنة 614هـ /1217م فقد ذكر جميع المواقع التي نزل بها على طرق الحج من المدينة المنورة إلى الكوفة ابتداء من وادي العروس إلى الكوفة ، دون تحديد لأعمال السيدة زبيدة التي شيدتها عليها مكتفياً بقوله: "وهذه المصانع والبرك من آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر زوج هارون الرشيد وابنة عمه ، انتدبت لذلك مدة حياتها ، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن! ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق ، والله كفيل بمجازاتها ، والرضا عنها". أما ابن بطوطة المتوفي سنة776هـ/ 1374م ، فيذكر تقريباً جميع المواقع على الطريق إلى الكوفة كما ذكرها ابن جبير ، وينسب جميع الصهاريج وأحواض المياه والآبار على أنها من إنجازات السيدة زبيدة رحمها الله بقوله: "وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها ، جزاها الله خير الجزاء ووفى لها أجرها ، ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكه أحد". ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،(دار الكتاب اللبناني د ت) ص 117-119). أما ما ذكره المسعودي من إنجازات السيدة زبيدة على طريق الحج بقوله: "وكان أحسن الناس وأنفعهم للناس في أيام الرشيد فعلاً أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور ؛ لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروفة إلى هذه الغاية وما أوقفت على ذلك من الوقوف". (ابن خلكان ، وفيالت الأعيان ، ج 2 ، ص314). أما ابن خلكان عند ترجمته للسيدة زبيدة في كتابه وفيات الأعيان يذكر: "إن لها آثاراً كثيرة في طريق مكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من مصانع وبرك أحدثتها". وهذه الإنجازات التي شيدتها السيدة زبيدة في طريق الحج ـ كما يراها كثير من أهل الرأي ـ مشروع عملاق في مقاييس عهده وأنه مشروع سبق عصره ، وهو عبارة عن برك مائية واستراحات من العراق حتى مكة المكرمة ، ولا يفصل بين كل موقع وآخر سوى بضعة أميال ، وقد بنيت لتتوسط نصف الطريق بين المحطات القديمة والمدن من أجل راحة الحجيج ، خاصة الحجاج الفقراء والأتقياء الذين كانوا يقطعون الطريق على أقدامهم إما لفقرهم وإما لتقاهم لكسب الأجر والمثوبة من الله (Saad A .Al Rashid،Darb Zubaydah (Riyad ; university Libraries 1980 p33). وفكرة المشروع قائمة في الأساس على حفر برك مائية ضخمة وعميقة تطلى جدرانها بمادة تمنع تسرب المياه التي تملأها

عن طريق مياه الأمطار والسيول ، ولا شك أن التنظيم الهندسي لهذا المشروع كان في غاية الدقة ، فقد اختيرت مواقع البرك بعناية خاصة ، إذ يتم تحديد مواقعها من خلال اشتراطات هندسية خاصة تسمح بانسياب المياه من الأودية والشعاب إلى تلك البرك حتى تملأها تماماً ، وتظل كذلك حتى يرد إليها الحجاج ، فيأخذوا حاجتهم منها ويواصلوا سيرهم إلى المواقع التالية. كما صممت الاستراحات هي الأخرى بطريقة هندسية رائعة تؤكد كفاءة مصمميها ، إذ كانت عبارة عن مجموعة غرف بنيت من الحجارة الصلبة التي تم كساؤها بمادة الجص قوية التحمل ، وقيل إنها بنت حائطاً من بغداد إلى مكة ، وقيل حائطين بحيث كان الأعمى إذا أراد الحج لمس الحائط وسار ، وإذا عطش شرب من الآبار التي حفرتها ولا يقربه من الحيوانات والأسود ، لأن الطريق محصّن بالحيطان! (ياسين بن خير الله العمري ، الروضة الفيحاء في تواريخ النساء ، تحقيق: د/ رجاء محمود السمرائي ، ط2، (بيروت: الدار العربية للموسوعات 1420هـ/ 2000) ص 265). وقد وجه المأمون من ذرع الطريق فوجده بالأميال 712 ميلاً! (Saad A .Al-Rashid - Darb Zubaydah، p21). أما أجل أعمالها وآثارها فقد كانت أثناء حجاتها العديدة إلى مكة ، ولكن ـ وللأسف الشديد ـ المصادر التي بين أيدينا لم تحدد السنوات التي حجت فيها السيدة زبيدة إلا النزر اليسير منها ، فقد ذكر الطبري أنها حجت في سنة 176هـ / 792م ، ومعها أحد إخوتها (الطبري ، تاريخ ، ج 8 ، ص254 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج 10 ، ص 169). ويبدو أنها الحجة التي بلغت نفقاتها في ستين يوماً أربعة وخمسين مليون درهم ، صرفتها على إقامتها وعلى وجوه الخير ، وعندما رفع إليها وكيلها حساب النفقة نهته عن ذلك وقالت ثواب الله بغير حساب (ابن الخطيب ، تاريخ بغداد ، ج 14 ، ص 434 ، ابن كثير ، البداية ، ج 10 ، ص271 ، ابن وردان ، تاريخ العباسيين ، ص 460 ، Hugh Kennedy,When Baghdad ، p65). ومنها ما ذكره اليعقوبي أنها حجت سنة 190هـ /806م فنال الناس عطش شديد ، وغارت زمزم حتى لم يوجد فيها من الماء إلا القليل ، وكان رشاء زمزم ثماني عشر ذراعاً ، فأمرت السيدة زبيدة بحفرها فحفر فيها تسعة أذرع ليزيد ، فكان أول ماحفر في زمزم! (اليعقوبي ، تاريخ ،ج 2، ص 428). أما عن تاريخ بدء العمل بإجراء مشروعها الضخم بجلب الماء إلى مكة المكرمة من وادي حنين ، ففيه من الاختلاف وتداخل المعلومات الشئ الكثير، فقد ذكر الأزرقي أنها أمرت بإجراء ذلك العمل في سنة 194 هـ / 809م (88) ، بينما أشار الفاسي على أنها كانت في 174هـ /790 م (89) ، في حين ذكر الفاكهي عندما تحدث عن البرك والعيون التي أجرتها السيدة زبيدة إلى مكة المكرمة بقوله: وكُتب على وجه البركة كتابٌ قائم إلى اليوم: "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، بركة من الله ، مما أمرت به أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور – رضي الله عن أمير المؤمنين – بإجراء هذه العيون ، سقاية لحجاج بيت الله وأهل حرمه ، طلب ثواب الله وقربة إليه ، على يد ياسر خادمها ومولاها ، سنة أربع وتسعين ومائة". (الفاكهي ، أخبار مكة ، ج3 ، ص153). وبالنظر إلى الأحداث ودراستها يبدو أن نهاية العمل بهذا المشروع كان في سنة 194هـ 809م ، وليس بدايته ، لأنه من المعروف تاريخياً أن السيدة زبيدة قامت بمشروعها هذا في أثناء خلافة زوجها هارون الرشيد (170– 193هـ/ 786-809 م) ؛ لذا يمكن القول إن فكرة المشروع اختمرت لديها أثناء حجتها في العام 174هـ/790 م ، كما أشار إلى ذلك الفاسي ، وقد تكون هذه هي الحجة التي رافقت فيها السيدة زبيدة زوجها الخليفة هارون الرشيد إلى مكة ، فاستقبلهم أهالي مكة بالحفاوة والترحاب وكانت تبسط أمامهم الدرانك (نوع من البسط له خمل) وتطوى خلفهم (91) ، وبعد أن قضت السيدة زبيدة مناسك الحج ، ورأتْ ما يُعانيه الحجيج وأهل مكة من قلة الماء ومتاعب الحصول عليه ، وأن

راوية الماء تبلغ في الموسم عشرة دراهم أو أكثر(92) ، حز في نفسها وحزنت حزناً شديداً ، فأمرت بحفر بركتها التي بمكة فأجرت لها عيناً من الحرم (الحرم ويقصد به مكة وما حولها من جميع الجهات ، وحدوده من الشرق عرفة (من بطن نمرة) والجُعرانة ، ومن الشمال التنعيم من عند بيوت غفار وتسمى إضاءة بني غفار (والإضاءة الماء المستنفع من سهل وغيره) ، ومن الغرب الحديبية من عند منقطع الأعشاش ، ومن الجنوب جبل إضاءة لبن. الأزرقي ، تاريخ مكة ، ج2 ، ص130 ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج1 ، ص ص87- 105 ، سعد الدين أونال وزميله ، دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة (بحث تاريخ – ميداني) مكة المكرمة: مركز أبحاث الحج 1413 هـ) ص9) ، فجرت بماء قليل لم يكن فيه ري لأهل مكة ، وقد غرمت في ذلك غرماً عظيماً ، فلما بلغها ذلك أمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيناً من الحل (الحل: هو خارج الحرم من جميع الجهات). وكان الناس يقولون: إن ماء الحِل لا يدخل الحرم ، لأنه يمر على عقاب وجبال! (الأزرقي ، تاريخ مكة ، ج2 ، ص231 ، الفاكهي ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ج3 ، ص 152 ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج1 ، ص 553 ، عمر بن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق: فهيم محمد شلتوت (القاهرة: سفنكس للطباعة 1404هـ /1983م) ج2 ، ص249). فقررت ـ مهما كلفها من أموال ومشقة و وعورة الطريق ـ أن تحفر نهراً جارياً يتصل بالماء ومساقط المطر ، وما يدل على عظمة هذا العمل كما ذكر الأستاذ عبد الله عفيفي: أنه لم يسنح بخاطر أحد منذ عهد إسماعيل صلوات الله عليه ، حتى عهد زبيدة مثل هذا الخاطر الوثاب ، خاطر إجراء نهر بين شعاب مكة ، بل لم يتمنه متمن ، لأنه أبعد من حد التمني (عبد الله عفيفي ، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، ط2 ، (بيروت: دار الرائد العربي 1402هـ 1982م) ج 2 ، ص 232). فدعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال الأكفاء من جميع أنحاء البلاد لهذا الغرض ، وعندما استعظم خازنها الأمر وما سيكلفه مشروعاً كهذا من الأموال قالت له كلمتها الشهيرة الجهيرة التي أوردناها في بحثنا هذا غير مرة: قالتها في إصرار وعزم: اعمل ولو كلفت ضربة الفأس ديناراً! (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 2، ص 314). بهذا العزم وهذا الإصرار بدأ المهندسون والعمال عملهم ووصلوا بين منابع الماء في الجبال فبدأوا بإجراء عين حنين التي تنبع من جبل شاهق يقال له (طاد) ، يقع بين جبال سود عاليات تسمى جبال (الثقبة) الذي يقع بين مزارع الشرائع في الطريق من مكة إلى الطائف ، وكانت عين حنين يسقى بها نخل ومزارع مملوكة للناس تسمى (حائط حنين) ، فاشترت السيدة زبيدة هذا الحائط وألغته ، وجعلت في ذيل كل جبل سداً (شحاذ) لاجتماع الماء عند نزول المطر ، وجعلت فيه قناة متصلة إلى مجرى هذه العين ؛ ليحصل منها المدد حتى صار بعد ذلك كل سد منها عينا مستقلة عرفت باسم (عين المشاش) و(عين ميمون) و(عين الزعفران) و(عين البرود) و(عين الطارقي) و(عين ثقبة) و(عين الجرينان) ، وكل مياه هذه العيون تصب في قناة حنين وتمدها بالماء حسب كثرة الأمطار وقلتها فوصلت المياه على هذا الشكل إلى مكة ، وبنيت من أجل هذا الغرض في أحياء مكة بازانات: (صهاريج) وبرك لسقاية أهلها وحجاج بيت الله الحرام. (الأزرقي ، أخبار مكة ، ج2 ، ص321 ، الفاسي ، شفاء الغرام ، ج1 ، ص533 ، عمر بن فهد ، إتحاف الورى ، ج2 ص249 ، إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، (بيروت: دار المعرفة د.ت) ج1 ، ص210 ، سعد الدين أونال ، دراسة توفير المياه في المشاعر المقدسة ، ص 10) ، وسميت هذه العين بعد ذلك بـ (عين زبيدة)! وكان جملة ما صرف على هذه العيون ـ مما ذكر وأحصي ـ مليوناً وسبعمائة ألف دينار ، وقد بلغ طول هذا العين عشرة أميال (المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص317 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص 314 ، علي عبد القادر الطبري ، الأرج المسكي ، ج5 ، ص83 ، أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ص 156 ،

ابن وردان ، تاريخ العباسيين ، ص460). وقد ذكر اليافعي في كتابه مرآة الجنان ، واصفاً تلك العين بقوله: "إن آثارها باقية حتى اليوم (أي حتى القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه اليافعي) ، مشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة ، ذات بنيان محكم في الجبال ، تقصر العبارة عن وصف حسنه ، وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذي درج كثيرة جداً لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط (كالبير) لظلمته ، يفزع بعض الناس إذا ترك فيه وحده نهاراً". (اليافعي ، مرآة الجنان ج2 ، ص48). وأجرت السيدة زبيدة عيناً أخرى من وادي نعمان شمال عرفة إلى عرفة وباقي المشاعر المقدسة ، عندما لمست معاناة الحجيج من المشقة والجهد العظيمين في الحصول على الماء ، وقد أغفل كثير من المؤرخين ذكر هذه العين واكتفوا بذكر (عين حنين) ؛ لأنها هي التي أوصلتها السيدة زبيدة إلى مكة المكرمة. (رشدي الصالح ملحس ، ملحق رقم (4) من كتاب الأزرقي ، أخبار مكة ، ص327). و(عين نعمان) التي تنبع من ذيل جبل (كرا) في منتهى وادي نعمان المعروف (على طريق مكة – الطائف الهدى) ، وهو جبل شامخ صعب المرتقى ، فتنحدر المياه من ذيل الجبل في قناة تصل إلى عرفة ؛ لذلك سميت بـ (عين عرفة) ، وقد وردت في بعض المصادر والنقوش الكتابية والوثائق باسم (عين عرفة) و(عين عرفات) و(عين زبيدة) ، بينما وردت في المصادر المتأخرة باسم (عين وادي نعمان) و(عين نعمان) و(عين زبيدة) ، ونظراً لتسمية عين حنين باسم عين زبيدة ، فإن تسمية عين عرفة بعين زبيدة قد يؤدي فعلاً إلى تضارب المعلومات! والحقيقة أنني لا أعول على المسعودي كما أسلفت ، وأوضحت الأسباب! (الأستاذ الفاضل عادل محمد نور غباشي ، جهود الملك عبد العزيز العظيمة في عمارة عين عرفة ، الموقع www.uqu.edu.sa/ majalat/shariaramag/mag20 ، ص 2). ومن ثم تمتد القناة من عين عرفة لتلتف حول جبل الرحمة من جهاته الشمالية والجنوبية والغربية ، وقد مدت منها قنوات فرعية تصب مياهها في خزانات ثم أحواض وبرك ، خصص بعضها ليتزود الحاج منها بالماء وبعضها الآخر للدواب ، كما بني بهذه القنوات الملتفة حول جبل الرحمة حنفيات صخرية ؛ لتجميع مياه الوضوء وصرفها للمزارع! ثم تسير القناة على النحو الآتي: – من عرفة نحو الشمال وعلى بعد 1378 متراً عمل بازان (بئر) في الأرض قاعه مجرى العين وينزل اليه بدرج سمي (فقير الذئب الأعلى). – وعلى بعد 405 من البازان الأول عمل بازان آخر سمي (فقير الذئب الثاني). – ثم تنعطف القناة نحو الغرب في وادي المغمس وتنتهي إلى (حوض البقر الأول) على بعد 1420مترا من البازان الثاني ، وأقيمت على القناة فيما بين عرفة وحوض البقر هذا 25 خرزة أو ما يسمى في العصر الحديث (غرف التفتيش). – ثم تسير القناة في باطن الجبل إلى موضع يقال له (الخاصرة) بقربه أراض زراعية ، ثم ترجع منه يميناً إلى بازان (المعترضة). – بعد ذلك تسير القناة في سفح المأزمين على يسار القادم من عرفات ، إلى خلف طريق ضب المعروف اليوم باسم (القناطر) فإلى (مشعر مزدلفة) ، حيث يوجد مقر لعين زبيدة مجاور للمشعر الحرام ، لتصب العين في برك وأحواض خصص بعضها لسُقيا الحجاج والأخر للدواب. – ثم تمتد القناة فوق سطح الأرض إلى منطقة العزيزية المتاخمة لمنى فوق سلسلة من الجبال لتزويد مشعر منى بالماء وتصب أيضاً في برك عديدة لتروي العطشان ، ومنها حوض لسقيا الدواب يسمى (حوض البقر الثاني). – وتستمر هذه القنوات حتى تصب في بئر كبيرة مطوية بأحجار عظيمة تسمى بئر زبيدة في وادي عرنة المعروفة اليوم باسم (محبس الجن) ، إليها ينتهي امتداد قناة عين زبيدة أو (عين عرفة) ، وهنا ينتهي عمل السيدة زبيدة (علي عبد القادر الطبري ، الأرج المسكي في التاريخ المكي ، تحقيق أشرف أحمد الجمال. (مكة المكرمة: المكتبة التجارية 1416هـ / 1996م) ، ج5 ، ص 83 ، إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ،ج1 ، ص212 ،

أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ص156 ، عمر سراج أبو رزيزة ، عين زبيدة التاريخية تجري من جديد بالماء النقي العذب ، الموقع pr.sv.net/aw/january/Arabic / populating.htm ص 2-3). وتخترق القنوات خرزات بعضها ظاهر فوق سطح الأرض يسمى بـ (الخرزات الظاهرة) وأخرى مدفونة حدد مكانها دون أن تظهر على سطح الأرض ، وتستخدم الظاهرة منها في الصيانة الدورية ، وتستخدم الثانية عند الحاجة إلى صيانة كبيرة نتيجة مداهمة سيل ألحق خراباً أو كسر بعض القنوات أو امتلائها بالتراب. (إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ج1 ، ص 212 عمر أبو رزيزة ، عين زبيدة التاريخية تجري من جديد ، ص 4). انتهى عمل السيدة زبيدة عند هذه البئر ، وقد أرادت إيصال مياه هذه العين إلى مكة إلا أن العمل توقف هناك ، لوجود منطقة صخرية حالت دون وصول مياه العين إلى مكة ، وهكذا أصبحت عين وادي النعمان خاصة بالمشاعر المقدسة ، (عرفة والمزدلفة ومنى) ، بينما صارت عين حنين خاصة بمكة لسقاية أهلها وحجاج بيت الله الحرام وصار الناس في راحة من جهة الماء. وبعد الانتهاء من هذا العمل رفضت السيدة زبيدة أن تسمع أرقاماً صرفت أو أنفقت على مشروعها الخيري وأمرت بإلقاء الدفاتر والأوراق في نهر دجلة من قصرها المطل عليه ، وقالت لعمالها الذين اجتمعوا لديها بعد الانتهاء من العمل لعرض تفاصيل الحساب: "تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقى عنده شيء من مال فهو له ومن بقى له عندنا شيء أعطيناه" وألبستهم الخلع الثمينة فخرجوا من عندها شاكرين (إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ج1 ، ص214 ، رشدي ملحس ، ملحق (4) من كتاب الأزرقي ، أخبار مكة ، ص327. الهاشمي ، الخلافة العباسية ، ص219). والسبب فيما يبدو بطرح دفاتر وأوراق الحسابات في نهر دجلة حتى لا يتم الرجوع إلى هذه الأرقام مرة أخرى طالما تحولت إلى إنجاز عظيم لا يقدر بثمن. وفي سنة 210هـ /825م كتب أمير مكة صالح بن العباس إلى الخليفة المأمون يشكو نقص الماء وتذمرأهالي بعض الأحياء لعدم وصول ماء حنين إلى أحيائهم ، ويستأذن الخليفة في بناء بعض البرك في مختلف أنحاء مكة ، حتى لا يتعنى السكان في الحصول على الماء ، فأذن له الخليفة ببناء برك في مواضع مختلفة من مكة ، فأنشأ خمس برك تغذى من عين حنين مباشرة ، فجعل الأولى عند شعب ابن يوسف ، والثانية عند الصفا ، والثالثة عند سوق الخياطين ، والرابعة عند سوق الحطب ، والخامسة عند ماجل أبي صلابة (تعرف اليوم ببركة ماجل أو ماجد) ، فلما انتهى العمل من هذه البرك وخرج الماء منها ، ووصل الخبر إلى السيدة زبيدة حزنت حزنا شديداً ؛ لأنها أرادت أن تكون هي من يستكمل هذا العمل ، وعندما حجت في السنة التالية 211هـ/ 826م لامت صالح بن العباس على ذلك بقولها: "هلا كتبت إليَّ حتى كنت أنا أسأل أمير المؤمنين أن يجعل ذلك إليَّ ، فأتولى النفقة فيها كما أنفقت في هذه البركة ، حتى استتم ما نويت في أهل الله؟ فاعتذر لها صالح!" (الفاكهي ، أخبار مكة ، ج3، ص 153- 154 ، ابن فهد ، إتحاف الورى ج2 ، ص284-285). وهكذا عاشت سيدة بغداد الأولى في عهد زوجها الرشيد عيشة مرفهة تتمتع بقسط وافر من الحرية والكلمة المسموعة وصاحبة قرار ؛ مُسَخرة تلك الإمكانيات في أعمال البر ؛ فكانت تنفق الأموال في وجه الخير دون حساب ، وقد عاشت بعد الرشيد 23 عاماً مكرمة معززة في كنف ابنها الأمين ، ومن بعده في كنف ابن زوجها المأمون الذي لم يبخل عليها بشيء ، وكان يرسل إليها في كل سنة مائة ألف دينار وألف ألف درهم حتى تُوُفيت قبله بسنتين ببغداد في جمادى الأولى سنة 216هـ/831م (الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج14 ، ص434 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص 317 ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج 2 ، ص 214) ، ودفنت رحمها الله في مقابر قريش ، ولما أحرقت هذه المقبرة أثناء فتنة العامة ببغداد سنة 443هـ / 1051م ، احترق فيها قبر السيدة زبيدة وقبر ابنها محمد الأمين وقبر أبيها جعفر بن أبي

جعفر المنصور وقبور كل من من دفن بالقرب منهم ، فلا أثر له اليوم (ابن الأثير الكامل ،ج8 ، ص59).هـ.
لقد كانت الأميرة زبيدة طرازاً فريداً بين النساء! وهي امرأة من نوع خاص حيث كانت قوية الشخصية يهابها الرجل ويفكر كل من تعامل معها أو تحدث إليها بحذر شديد ، ويراقب أفعاله جيداً بل ويدرسها مسبقاً قبل أن يقوم بها عند التعامل معها ، ترى من هي هذه المرأة العباسية؟ ولماذا كان الرجال يهابونها؟ هذه المرأة هي التي تجمع بين طيبة القلب ، والحكمة والرزانة ، وقوة الشخصية ولها نصيب كبير جداً من القبول لدى الآخرين ، مفعمة بالأنوثة والجمال الروحي الذي هو زينة المرأة الأساسية ، فنجدها حنون طيبة تملك قلب طفل ، وتفكر بعقل رجل حكيم ، وتجذب الآخرين بأنوثتها ورقتها. والمواقف التي ذكرناها وسوف نذكرها تبين ذلك كله بما لا يدع مجالاً للشك ولا للطعن! يهابها الرجال ، لأنها لن تخدع بأي حيلة أو مكر ، فهي تملك القدرة على التمييز بين ما هو حقيقي وما هو مزيف ، دليلها في ذلك حكمتها التي تزين عقلها ، وكأنها امرأة قرآنية ربانية ترى بنور الله تعالى ، ولا نزكيها على الله! لقد وقرت الرشيد وأحبته ولم تكسر له شوكة ولم ترد له طلباً ، بل عاشت يحبها ويهاب أن يرد لها كلمة أو يكسر لها خاطراً ، وكانت تجعله محل تقدير واحترام كل من حولها ، تجذب إليها الأنظار لقوة شخصيتها وتمكنها ، فهي دوماً قادرة على مواجهة ما يعتريها من مشكلات ، سلاحها الاستعانة بالله تعالى والإرادة القوية والتحدي فيا لها من إمرأة! وهيبة الرشيد منها لا تقلل من قدره ، ولا تدل على ضعف شخصيته ، وإنما تنبع من فكرة عالقة بالأذهان وهي أن المرأة مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، يبحث عن الرجل ليحتمي فيه ويعيش في ظله كما يقولون ، فالرشيد كان يراها مختلفة تماماً وبعيدة كل البعد عن هذه الفكرة ، فيعجب بها وينجذب لها بشدة ولكن بحذر شديد ، فهو لا يعي جيداً كيف يخدع امرأة مثلها ، ومن الصعب أن تذوب شخصيتها في شخصيته كما توهم بعض أصحاب التراجم ، ومن المستحيل أن تكون الأميرة زبيدة قد تكلفت هذا كله في حياة الرشيد ، بل كانت هذه طبيعتها! وفي هذا الصدد نستطيع القول بأن الرشيد كان يتمتع بالاستقلابية في إدارة شؤون الدولة ، وإنما كانت زبيدة مستشارة فقط! وليست أبداً من النساء صاحبات النفوذ والشخصية القوية في الباطل! والرشيد اعتاد أن يستشيرها في قضايا كثيرة. وتحت عنوان: (الشورى في نظام الحكم الإسلامي) يقول الدكتور فهد بن صالح العجلان ما نصه: (إن شورى الحاكم فيها خلاف كبير في المدرسة الفقهية التراثية في حكم شورى الحاكم: فجمهور الفقهاء على أن الشورى مستحبة. ومذهب المالكية الشورى واجبة. وإذا قيل أن الشورى واجبة فهل إذا استشار الحاكم فأشير عليه بشيء هل يلزمه أن يأخذ برأي من أشار عليه؟ وعند تتبع كلام المعاصرين فيما ينسب لكلام المتقدمين وقد نسبوا أن من قال: أنها ملزمة للطبري والجصاص ، ومن نسب إليه القول بأنها ملزمة ينص صراحة أنها معلمة. فالقاضي في النهاية يقضي بالعدل وبشرع الله ولا يتدخل الحاكم في حكمه لكن القضاء في النهاية تحت سلطة الحاكم أما في الدولة الحديثة فالسلطات موزعة ومنفصلة ، فالسلطة مقيدة ليس هناك سلطة تستطيع أن تتدخل في القضاء أو تتدخل الجانب التشريعي ، كون هذا أمر محدث لا يعني أنه محرم ، فثمة أدلة شرعية تقتضي الجواز وصحة ذلك. إن الطاعة في الشريعة مقيدة بالمعروف ، والمعروف هو عدم مخالفة الشريعة وأن يكون وفق المصلحة العامة ، فالحاكم في الإسلام يتصرف وفق المصلحة العامة فإذا رأى المسلمون في زمان أو مكان أن من مصلحتهم العامة أن تقيد السلطة ويحصل في ذلك نفع وخير لهم ، فهذا من جنس تقييد السلطة بالمصلحة العامة. والأصل هو الإباحة ، والأصل في شروط العقود الإباحة ، فالولاية عقد والأصل صحة دخول الشروط على العقود. وأيضاً فما لا يتم الواجب به فهو واجب فإذا حصل في زمان أو مكان فرأى المسلمون تقييد السلطة خشية مظالم معينة أو لأجل تحقيق واجبات معينة فلا إشكال في ذلك

لأنه من قبيل مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ومقاصد الشريعة العامة تقتضي صحة هذه الشروط إذا كانت لمصلحة المسلمين وكذلك الولاية الخاصة لأن الشريعة لما وضعت ولايات معينة مثل ولاية القضاء ، هي وضعت لمصالح فأي شيء يحقق المصلحة والتطبيق الأمثل لهذه الولاية يكون سائغاً. ومنهج الصحابة رضي الله عنهم ، فثمة تطبيقات الصحابة رضي الله عنهم تقتضي أن الصحابة كانوا يضعون شروطاً على الولايات. من ذلك مثلاً: أن عبدالرحمن بن عوف عندما بايع عثمان رضي الله عنه اشترط في البيعة على سنة أبي بكر وعمر ، فلم يجعل بيعة عثمان مطلقة بل قيدها على وفق سنة أبي بكر وعمر ، كذلك الحسن بن علي رضي الله عنه بايع معاوية واشترط عليه عدداً من الشروط وغيرها. فالشورى عند الفقهاء تكون في الموضوعات المباحة ، المحرمات ليس فيها شورى أساساً ، بمعنى لو شاور الحاكم الناس في محرم واتفقوا كلهم على تأييده ماذا يقول الفقهاء عنه؟ محرم سواء كان الأكثرية أو الأقلية معه ، أساساً تصور المسألة أن الشورى مرتبطة بمظالم ليس لها علاقة ، الشورى في أمور مباحة أما المظالم والتعديات فهذه خارج نطاق الشورى. والذي يقول أن الشورى مندوبة لا يتحدث عن شورى فيها ظلم أو تعدٍ أو أهواء يتحدث عن صورة حاكم عدل إمام بايعه الناس فشاور الناس في قضية مباحة. لنفترض أن الحاكم قال نريد أن نوزع على الناس أموالاً ، فاختلف الناس عنده ، مثلا عنده سبعة من الوزراء: فأربعة قالوا: افعل هذا ، وثلاثة قالوا افعل الرأي الأخر ، ما الذي يوجب عليه شرعاً؟ هل يجب أن يؤخذ برأي الأربعة؟ الفقهاء يتكلمون عن هذه الصورة ، لا يتكلمون عن صورة معاصرة أنت تعيشها وتعيش همومها ، فتسقط إشكالاتك على هؤلاء الفقهاء فيترتب عليه بغي وظلم).هـ. والنبي – صلى الله عليه وسلم – استشار أصحابه وأزواجه فقال: (أشيروا عليّ أيها القوم! وقال لأم سلمة - رضي الله عنها - : هلك القوم ، عصوا أمر نبيهم! فأشارت عليه بحلق رأسه وسوق الهدي! ونزل النبي – صلى الله عليه وسلم – على رأيها! وإذن فالرشيد عندما يستشير زوجه الحكيمة الحصيفة الراشدة ، فلا بأس! وكانت جديرة بمشورته بالقدر الذي جعله في كثير من الأحايين ينزل على رأيها!

(الأميرة زبيدة بنت جعفر ربة الجود والكرم)

لقد كنا اتفقنا في مستهل هذه الدراسة عن السيرة الذاتية للأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - على أن نتجنب المدح والإطراء ، وحاولنا جاهدين ، وأظننا نجحنا نسبياً. ذلك أننا نحاول أن نجعلها دراسة وثائقية ، الهدف منها التعريف بالأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - وحث الآخرين على بذل الجهد في العطاء والجود والكرم والعمل على إسعاد ذوي الحاجات مثلها. وكنا قد دعّمنا ما نقول بما تيسر من الدليل. ونزيد الأمر وضوحاً فنقول بأن مناقبها من فضل لله عليها كانت كثيرة. غير أن الطابع المميز أو مفتاح شخصيتها هو العطاء. والعطاء كما يحدده أستاذنا المحترم/ عبد العزيز بن علي النعيمي (العطاء كلمة إنسانية المعاني والقيم. وكذلك الإيثار كلمة إنسانية العطاء. فالعطاء في الغالب يكون جزءاً من شيء كأن تعطي شخصاً جزءاً من مالك وتحتفظ بجزء آخر ، ولكن الإيثار هو تفضيل الآخر أو الآخرين على نفسك. وهو عطاء لكل الشيء لا لجزء منه فقط. وقد ذكر الله عز وجل أصحاب الإيثار في القرآن الكريم بقوله تعالى:- (ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة) فلندرك).هـ. وهذا هو الذي اعتادت أن تفعله الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - بالفعل ، ألا وهو التفضيل والإيثار والعطاء ولو على حساب النفس والأهل. والتطوع الذي ساد مجتمعات أمتنا المسلمة منذ الأزل وتجسّد بوضوح في الفترة الأخيرة هو جزء من وتيرة عطاء أكبر منه ، وهو في أجزاء كثيرة منه إيثار وتفضيل ، (والمتطوع هو من يوجّه تطوعه في أحد الطريقين إما التفضيل والعطاء وإما الإيثار عن النفس. وقد خلق الله الإنسان ضعيفاً صغيراً باكياً لا يملك شيئاً ، ووهبه بعد ذلك الصحة والقوة والمال وكافة النعم الحياتية ، وفي حقيقة الأمر تبقى كل تلك النعم أمانة أعطاها الله للإنسان ، وسيتم سؤاله عنها في يوم الحساب. فالمال الذي يهبك الله إياه هو عبارة عن أمانة خاصة بأشخاص آخرين ، ففيه رزق بائع المواد الغذائية وفيه رزق الخادم وفيه رزق اليتيم والمسكين وذي الحاجة وغيرهم ممن تتعامل معه. والإنسان الناجح المتفوق في الحياة هو الذي يقوم بتوزيع الأمانات والمسؤوليات على أهلها. قال الله عز وجل:- (والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم)! وعلى المسلم أن يؤدي الأمانة إلى أهلها. وكلنا رأى وعاين الموتى وهم يذهبون إلى قبورهم والأيدي قد غسلت وكفنت ، بعد أن نفضت غبار المال وأنفقت آخر درهم لها في الحياة)! كل ذلك أدركته الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - فراحت تكرِّس مالها ، وتجعله في سبيل الله ، ثقة بأن ما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا ، وثقة بأن الله سوف يُخلف عليها بالخير في الدنيا والآخرة. ومن هنا راحت تحتسب الأجر. وكانت الأسفار والرحلات في سبيل تلك الغاية. إن مفتاح هذه الشخصية إذن هو العطاء والإيثار! شأن المؤمنة المسلمة الموحدة. وتأكدها من وصول المال أو الصدقة لمستحقيها هو ترجمة عملية عندها تنبع من إحساسها بما يُعانيه الفقراء واليتامى والمساكين في زمانها. ولعل عطاءها كان انعكاساً كذلك لما كان عليه أبواها من الجود والكرم والسخاء والبذل بدون حدود ، كما يعرف ذلك القاصي والداني. وإن كنا لا نعوّل كثيراً على ثناء الناس ، ولكن الواقع يشهد بأن الوالد – رحمه الله - كان له أكبر الأثر على ابنته الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله -. حتى لقد تعوّدت هذه الابنة على الأخذ من مال أبيها لتعطي الفقراء والمساكين ، ويفرح الوالد الأمير لذلك ويأذن ويبتهج ، فكان يعطي ولا ينتظر شيئاً من أحد ، ورسّخ هذه العادة فيها. وأحسن روكيلان حيث يقول موضحاً: (لا تعطوا أبناءكم شيئاً على الإطلاق إذا كان هدفكم أن يُعيدوه إليكم في يوم من الأيام)! وقديماً قال جان جاك روسو الفرنسي:- (أب واحد خير من عشرة معلمين)! وقال فريدريك نوفاليس في فضل تربية الأب:- (ليس هناك مكان ينام فيه الطفل بأمان مثل

غرفة أبيه). هنا يبرز هذا الفيلسوف دور كنف الأب وحضنه ورعايته ، وأثر ذلك على تربية الابن. وأيضاً هناك مثل فيتنامي يقول:- (أب حنون مشعل للأجيال)! وإذا تجاوزنا مفتاح شخصية الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - ، فلندلف إلى المنقبة الثانية وهي الإحسان. وكم أحسنت إلى الأيتام وأقامت في بيوتهم المآدب. وكأنها تتمثل قول الرسول – صلى الله عليه وسلم -: (خير بيتٍ بيتٌ فيه يتيم يحسن إليه). واعتادت على أن لا تنسى معروفها الذي يُسديه أحدٌ إليها ، في حين تنسى معروفها الذي تسديه هي بنفسها للآخرين. وكأنها تتمثل قول ابن المقفع: (إذا أنت أسديت جميلاً إلى إنسان فحذار أن تذكره. وإن أسدى إنسانٌ إليك جميلاً فحذار أن تنساه). وهكذا تكون أخلاق المؤمنة. فلقد اعتادت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - في إحسانها إلى الناس على أن لا تريق ماء وجوههم في الطلب ، بل يكفيها علمُها بهم ودراستها عنهم أو رسول تحدث عن أحد منهم فعلمت بحالهم. فتذهب بنفسها وتُحسن وتتصدق وتُشارك. وكأني بها تعمل بقول إبراهيم طوقان:- (الإحسان هو أن تصون وجه السائل من ماء المذلة). وقول جورجي زيدان:- (ليس الإحسان غذاءً ولا شراباً ولا كساء بل مشاركة الناس في آلامهم). حقاً (الحكمة ضالة المؤمن التقطها أنى وجدها)! ولعل هذا كله هو الذي جعل الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - تطرق الأبواب بنفسها ، وتزور المرضى في بيوتهم بنفسها! وحدثني من أثق بكلامه أن المؤرخين ذكروا أن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - قامت غير مرة بدفع حُر مالها لأناس فقراء لا تعلمهم ، ولكن تعلم أن أيديهم قد قصرت عن الإنفاق على ذويهم! وغير ذلك من المَكرُمات التي نسأل الله أن يأجرها عليها. ويكفي كلامها مع الناس مراراً وتكراراً على أنها امرأة مسلمة عادية ، بعيداً عن كونها (الأميرة) وما يتطلبه ذلك اللقب من مراسيم. فكانت بذلك آية في التواضع! (وكأني بها تتمثل قول النبي – صلى الله عليه وسلم-: (من تواضع لله رفعه)! ومن هنا كان يألف الناس حديثها ويُحبونها ، لأنها بذلك تضرب أروع المثل في التواضع لعباد الله ، وتعتبر نفسها منهم وإليهم ومسئولة عن أحوالهم. وكأني بها تتمثل قول الله – سبحانه وتعالى – لنبيه – صلى الله عليه وسلم -: (واخفض جناحك للمؤمنين)! وقوله: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً). وتمتثل الحكمة العظيمة القائلة: (أيها الناس ، إن أفضل الناس عبدٌ تواضع عن رفعة ، وزهد حقاً عن غنية ، وأنصف عن قدرة ، وحلم عن قوة)! وأرى أن هذا الخلق في الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله - هو نتاج الشبع والري والعز والكرم ، تلك الأشياء التي رُبيت عليها أصلاً:

مـــــلأى الســـــنابل تنحنـــــي بتواضـــــع! والفارغـــــاتُ رؤوســـــهن شـــــوامخ

وأصاب الشاعر العبقري عندما أنشد يُحيّي المتواضع من الناس ، ويسخر من المتكبر المتعالي على الناس بغير حق له في ذلك:

تواضـــــعْ تكـــــن كالبـــــدر لاح لنـــــاظر علـــــى صـــــفحات المـــــاء ، وهْـــــو رفيـــــع

ولا تـــــكُ كالـــــدخان يعلـــــو تجبّـــــراً علـــــى صـــــفحات الجـــــو وهـــــو وضـــــيع!

فلما تواضعت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – والله بها عليم – رفعها بين قومها. ولما تواضعت للناس أحبوها واحترموها ودعوا لها. ويصدق هذا السلوك العماد الأصفهاني عندما يقول: (ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم يطيعوك)! والعرب تقول في مثلها المعروف المشهور: (كلما ارتفع الشريف تواضع ، وكلما ارتفع الوضيع تكبر)! وتحت عنوان: (خواطر وتأملات في إصلاح البيوت) يقول الأستاذ خالد عبد اللطيف ما نصه: (في صحيح البخاري عن الأسْود ، قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة). وفي رواية في مسند أحمد: قالت رضي الله عنها: كان بشراً من البشر ، يَخيط ثوبه ويَحلب شاته ويَخدم نفسه. وهذا قبس آخر من بيت النبوة يُضيء الطريق أمام أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُصحح فهماً مُظلماً مغلوطاً لدى كثيرين يرون أن بسط الوجه ولين القول ومعاونة الأهل يُجرّئ أهل البيت عليهم ، أو ينقص من هيبتهم. أو آخرين يرون في الانشغال بالملاطفة والمداعبة والممازحة في البيوت مضيعة للوقت ، وكأن خيرهم للناس كلهم إلا بيوتهم! وهلم جراً من التصورات الفاسدة ، فخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم! والتواضع خلق إسلامي قويمٌ ثابتٌ في القرآن والسنة ، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ، وقال عز وجل: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} وقال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} ، وقال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يَفخر أحد على أحد ولا يَبغي أحد على أحد». وعن عمرو بن قيس أن علياً - رضي الله عنه - رُئي عليه إزارٌ مرقوعٌ فعوتب في لبسه ، فقال: يقتدي بي المؤمن ويخشع له القلب. وعن فضيل بن عِياض قال: رُئي على سلمان جُبة من صوفٍ ، فقيل له لو لبست ألين من هذا؟ فقال: إنما أنا عبد ، ألبس كما يلبس العبد ، فإذا عتقت لبست ثياباً لا تبلى حواشيها. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال - صلى الله عليه وسلم -: (يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب ، جاءني ملك إن حُجْزته لتساوي الكعبة ، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً ، فنظرت إلى جبريل عليه السلام ، فأشار إلي أن ضع نفسك ، فقلت: نبياً عبداً). قالت: وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك لا يأكل متكئاً: يقول: (آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد). وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم. وعنه أيضاً قال: إن كانت الأمَة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتنطلق به حيث شاءت. وعن سهل بن حنيف قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم. وعن الحسن البصري أنه ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فقال: لا والله ما كانت تُغلق دونه الأبواب ، ولا يقوم دونه الحجاب ، ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزاً من أراد أن يلقى نبي الله لقيه ، وكان يجلس بالأرض ، ويوضع طعامه بالأرض ، يلبس الغليظ ، ويركب الحمار ويُردف عبده ويَعلف دابته بيده - صلى الله عليه وسلم -. قسم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بين الصحابة - رضي الله عنهم – حُللاً ، فبعث إلى معاذ حُلة ثمينة فباعها واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم ، فبلغ ذلك عمر فبعث إليه بعد ذلك حُلة دونها ، فعاتبه معاذ. فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال

معاذ: وما عليك؟! ادفع لي نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك ، فقال عمر: رأسي بين يديك ، وقد يرفق الشاب بالشيخ. قال ابن الحاج رحمه الله: «من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى ، فإن العزة لا تقع إلا بقدرِ النزولِ ، ألا ترى أن الماءَ لما نزلَ إلى أصلِ الشجرةِ صعدَ إلى أعلاها؟ فكأن سائلاً سأله: ما صعدَ بِكَ هنا ـ أعني في رأس الشجرة ـ وأنت تحت أصلها؟ فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ثلاث هن رأس التواضع: أن يبدأ بالسلام على من لقيه ، ويرضى بالدون من شرف المجلس ، ويكره الرياء والسمعة». وعن الإمام أحمد يقول المروزي: لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله ، كان مائلاً إليهم مقصراً عن أهل الدنيا ، وكان فيه حِلم ولم يكن بالعَجول ، وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر يقعد حيث انتهى به المجلس. إذا كانت الهداية إلى الله تعالى مصروفة ، والاستقامة على مشيئته موقوفة ، والعاقبة مغيبة ، والإرادة غير مغالبة ، فلا تُعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره! فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره ، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير ، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم فأصبحت وزهرها يابس هشيم ، إذ هبت عليها الريح العقيم! كذلك العبد يُمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم ، فيصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم ذلك من فعل العزيز الحليم الخلاق العليم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملكٍ فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته» ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يُخيّره من أي حُلل الإيمان شاء يلبسها». قال الجنيد رحمه الله: التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب. وسئل الحسن البصري رحمه الله عن التواضع ، فقال: التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً. وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: يخضع للحق ، وينقاد له ، ويقبله ممن قاله ، ولو سمعه من صبي قبله ، ولو سمعه من أجهل الناس قبله. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَة بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته). لقد عاشت زبيدة الأميرة العباسية متواضعة هينة لينة محبوبة! ولعل هذا التواضع هو الذي جعلها مرفوعة القدر عالية الشأن مهيبة الجناب حية وميتة! ولا نزكي على الله أحداً! رحمها الله رحمة واسعة ، وتجاوز عن ذنوبها وسيئاتها!

(الأميرة زبيدة بنت جعفر زوجة لهارون الرشيد)

الحقيقة أن زبيدة كانت نعم الزوجة المخلصة لزوجها ولأمتها ولدينها! يقول الأستاذ أزهري أحمد محمود وتحت عنوان: (زبيدة بنت جعفر ساقية الحجيج!) ما نصه: (كانت الفرحة شديدة وتلك الجموع تشهد ذاك العُرْس المهيب! ولم تعهد تلك الجموع عُرْساً مثل ذاك العُرْس. فترى الدنانير والدراهم تنثر على تلك الجموع الغفيرة بغير حساب! وترى المسك وثياب الوشي المنسوجة تتخاطفها أيدي تلك الجموع! حقاً لقد كان ذاك العُرْس أعجوبة من الأعاجيب! ولقد كان العروسان أسعد من تلك الجموع. وأعظم بهجة بالتلاقي! ذاك عُرْس كان أحلى ما فيه ؛ أنَّه جمع بين بحرين في الجود. ونجمين للسَّارين! الزَّوج: سليل المكارم. وحفيد الشَّرف التَّليد. هارون الرشيد. بدر الخلافة العباسية! وعُرْسه: كريمة العنصر. ودُرَّة نساء بني العباس. وأصيلة الرَّأي. زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور. فرعان ناضران من فروع تلك الدوحة الباسقة. والشجرة الرَّيَّانة بماء المكارم. وطِيب الفضائل! لقد اختار هارون الرَّشيد عروسه بعد أن خَبِر شمائلها. وأبصر فضائلها. ولم تكن الأميرة زبيدة بتلك المرأة ضعيفة الرَّأي واهنة الهمَّة ؛ بل كانت المتزيِّنة برفيع الخصال. بعد زينة الحسب. والمتجمِّلة بجميل الخُلُق بعد جمال الخَلْق. تأدبت بأدب الدين. وشَبَّت على سُنن الصَّالحين. ولقد كانت ربَّة ذاك القصر الكبير. وسيدته الآمرة والنَّاهية. وأعجب لهذه النجيبة. لم تنشغل ببحبوحة ذاك القصر. بل كانت فيه السيدة الصالحة. المتزوِّدة ليوم معادها. فهي التَّالية لكتاب ربّها تعالى في صباحها ومسائها. حتى كان قصرها مَحطاً لنفحات القرآن الزَّاكية! كان لزبيدة مئة جارية يحفظن القرآن! وورْد كلّ واحدة منهنَّ عُشْر القرآن. فكان قصر هذه السيدة ؛ يُسمع منه كدّويّ النَّحل بقراءة القرآن! حقاً إنَّه لا أعلى همَّة ممن صدف عن اللَّهو وهو قادر أن يلهُو! ولا أعلى همَّة ممن وَلِعَ بحبّ العزائم. وترك الشهوات مع حبّ النفس لها! ولقد كانت هذه المصُونة سخيَّةً. محبّةً للنَّدى. شديدة الكرم. لا تردّ حاجة وإن عظُمت. وإليك هذه الآبدة من لطيف كرم هذه السيدة النجيبة. لتقف على السماحة والندى. حبس وكيلها ذات مرّة رجلاً كان يشرف على ضِياعها ، وجب عليه مائتا ألف درهم. فكتب المحبوس إلى صديقين له يسألهما سؤال الوكيل في أمره ، فخرج الرجلان إلى الوكيل ، فلقيهما الفيض بن أبي صالح. فقال: إلى أين؟ فقالا: نمضي إلى كذا وكذا. فقال: أتحتاجان أن أساعدكما؟ قالا: نعم. فمضى معهما وكتب الوكيل إلى زبيدة يُخبرها بالحال. فقالت: لا سبيل إلى إطلاقه حتى يؤدي ما عليه. فأراد الرجلان الانصراف. فقال لهما الفيض: كأننا إنما جئنا لنؤكّد حبس الرجل! فقالا: وماذا نصنع إذن؟! قال: نؤدي عنه المال ، ونخرجه من الحبس ، ونكشف عنه ضائقته. ثم إنَّ الفيض أخذ الدواة وكتب إلى وكيله في حمل المال عن الرجل! ثم دفع الكتاب إلى وكيل زبيدة وقال: قد أزحنا عِلّتك في المال ، فادفع إلينا صاحبنا. فكتب وكيل زبيدة يُخبرها بما حدث. فلما وصل الكتاب إلى زبيدة ، أخذتْها أريحية النَّدى ، ولم تشأ أن ترى الفيض أكرم منها يداً. فوقَّعت على ظهر الرّقعة: (نحن أولى بهذه المَكْرُمة من الفيض ، فاردُدْ إليه حظّه وسلِّم إليه الرجل)! وهكذا بكلمتين من قلمها. سمحت نفس هذه الكريمة بمائتي ألف درهم! فلله درُّك أيتها الماجدة! وهل الكرم إلاَّ هذا؟! تلك أريحية امرأة شربت من معين المكارم. وغُذِيَتْ بلِبان الفضائل! وأي عجب في ذلك؟! أليست هي المنفقة في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف دينار؟! ولما رفع إليها وكيلها حساب النفقة مستكثراً ومستعظماً لها ؛ أنَّبته تأنيب اللَّبيبة. وزجرته زجر المرأة الحصيفة. فقالت له: ثواب الله بغير حساب! فلله درُّك أم جعفر! سليلة الأماجد. وحفيدة الأشاوش من بني العباس! كرمٌ لم يعرفه إلاَّ السُّمَحاء. ولم تَجُدْ به إلاَّ نفوس الكُرَماء. وكانت هذه النَّجيبة إذا حجَّت. أنعشت الملهُوف.

وجبرت الضَّعيف. وجادت بالنَّفيس والطريف. فكانت لحُجاج بيت الله سحاباً دافقاً. وربيعاً نافعاً. لا تزال تعطي الجزيل منذ خروجها من بغداد. إلى وصولها بيت الله الحرام! وما تقطع مرحلة إلاَّ وتأمر بحفر بئر. أو بناء المرافق للقاصدين بيت الله الحرام. ولما رأت – رحمها الله – ما يُعانيه أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من قِلة المياه. عزمت عزم المرأة الحازمة. أن تكون حائزة شرف سِقاية حجاج بيت الله الحرام. وسمت همتها إلى بذل الطريف والتليد في تحقيق هذه الأمنية. فدعت خازنها وأوعزت إليه بأن يأتي بأهل الصِّنْعة ليشقوا قناة من وسط الجبال ، حتى يصلوا بها إلى وسط مكة! فأحضر الخازن أهل الصِّنْعة في ذلك وبدأ العمل ، ولم يكن بالعمل السّهل ، حيث شقّت تلك القناة الجبال والصخور مسافة عشرة أميال! ولما جاءها خازنها وقال لها: يلزمك نفقة كبيرة! أجابت جواب أهل الحزم: اعملها ولو كانت كل ضربة فأس بدينار! وشاء الله تعالى أن يُحقّق لهذه المصُونة أمنيتها. فتدفَّقت تلك القناة على أهل مكة وقاصدي بيت الله الحرام. فارتوى النَّاس بعد الظمأ. وأخصبوا بعد الجَدْب! فكانت تلك حسنة زبيدة العظمى. ومنقبتها الكبرى! فكم من ألسنةٍ بالدّعاء لصاحبتها لهجَتْ. وكم من أكُفٍّ رُفِعَتْ! ألفا ألف دينار صبّتها هذه الصالحة في حفر هذه القناة! فما أكرم هذه الحسنة! وتالله تلك هي التجارة الرَّابحة! تلك همة امرأة لم تر الذُّخْر إلاَّ في اصطناع المعروف. وإدمان الصَّالحات. وحبّ الطاعات. وبعد اكتمال هذا العمل الجليل ، جاء وكيلها وأحضر معه العمال لكي يكتبوا الحساب أمامها. فقالت لهم: خلُّوا الحساب إلى يوم الحساب! ثم أمرت بغسل الدفاتر والأوراق! فهنيئاً لك أم جعفر بهذا الشرف الخالد. أبيْتِ إلاَّ عزماً وهمَّة! إنَّها التجارة مع الله تعالى! تجارةٌ لا تعرف الخسارة! ذاك هو الذُّخْر الخالد والرّبح الباقي! وزبيدة هي أمّ الأمين بن هارون الرَّشيد! والذي ولِي الخلافة بعد أبيه هارون الرشيد. وقد نشأ الأمين في حضن هذه السيدة النجيبة. فتربَّى على الأدب السامي والسَّمْت الرَّفيع. فكان نجيباً سيداً عظيماً. ولما آلت إليه الخلافة خلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، فخلعه أخوه المأمون ، واشتعلت نار الحرب بين الأخوين! فأين كان موقع تلك السيدة يومها من هذه الأحداث؟ لقد كانت زبيدة ـ رحمها الله ـ امرأة حازمة لبيبة ، فها هي تُوصي علي بن عيسى بن ماهان قائد ابنها الأمين. وكانت الوصية وصية امرأة حكيمة نجيبة الرأي. وها هو ابن ماهان يقف عند باب هذه السيدة مستمعاً لنُصْحها. فقالت له – رحمها الله -: (يا عليّ إنّ أمير المؤمنين وإنْ كان ولدي ، وإليه انتهت شفقتي ، فإني على عبد الله – أي المأمون – منعطفة مشفقة ؛ لما يحدث عليه من مكروهٍ وأذىً ، وإنما ابني ملك نافسَ أخاه في سُلطانه ، وغارَّه على ما في يده ، والكريم يأكل لحمه ، ويميقه غيره ، فاعرف لعبد الله حقّ ولادته وأخوَّته ، ولا تجبهه بالكلام ، فإنَّك لست له بنظير ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا تُوهنه بقيد ولا غلّ ، ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً ، ولا تعنِّف عليه في السَّير ، ولا تساوه في المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه)! ثم دفعت إليه بقيد من فضَّة. وقالت له: إن صار إليك فقيِّده بهذا القَيْد. فقال لها: سأفعل مثلما أمرتِ. فتأمل همَّة هذه المصُونة. لم يثْنها حبّ الولد عن قول الحق. والإنصاف في القول والفعل! هكذا يكون السُّؤدد والشَّرف! ولكن رياح الأحداث انقلبت ، فانهزم ابن ماهان وقُتل ، وحاصر المأمون بغداد ، ثم كان بعدها قتل الأمين. ابن تلك السيدة زبيدة بنت جعفر. فقدت تلك السيدة وحيدها وفلذة كبدها. ودخل قلبها ما يدخل قلب كلّ أمّ! وحزنت. وكيف لا تحزن؟! وابنها الأمين كان عظيم النَّفس شهماً فريداً في طرازه! حُزْنان لزما قلب هذه السيدة ؛ فَقْد الولد وفَقْد الشَّهامة! ولكن زبيدة – رحمها الله – وهي العاقلة اللَّبيبة دفعت حَرّ المصيبة بصبر الحُرَّة المُوقنة بالخَلَف الرَّاجية للثواب الباقي. فلم تجزعْ جزع الضَّعيف. بل أبدتْ من الصبر والجَلَد ما حيَّر الألباب! فها هو المأمون يدخل عليها بعد دخوله بغداد. وهو يظن أن الحزن قد هدَّها بعد مقتل ابنها. ولكنها قالت له بجنان ثابت: (أهنيك

بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك ، قبل أن أراك! ولئن كنتُ قد فقدت ابناً خليفة لقد عُوِّضتُ ابناً خليفة لم أَلِدْهُ! وما خسر من اعتاض مثلك قط ، ولا ثكلت أمّ ملأت يدها منك! وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وامتناناً بما عوَّض)! ليت النساء يتعلَّمْنَ منكِ تلك المكارم الرَّفيعة. ويحتذين تلك المفاخر السَّنِيَّة. لم يُقعدها عن المكارم ضعفُ النساء ولا حبّ الدَّعَة! وفي مشهد آخر لتلك الحُرة المَصُونة. أخضعت فيه القلوب لفضلها. فهي مُذعنة لها بشرف المنزلة. ونُبْل الفِعَال! دخلت على المأمون في مرَّة من المَّرات. فقالت له: (الحمد لله الذي ادّخرك لي لمّا أثكلني ولدي! ما ثكلت ولداً كنت لي عِوضاً منه)! فلما خرجت. قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: (ما ظننت أن نساءً في الأرض جُبِلْن على مثل هذا الصَّبر)! حقاً! لقد حَيَّرت هذه المصُونة بصبرها كلّ لبيب ؛ حتى غدت بصبرها ذاك النموذج الفريد! وحريٌّ بكل مُصاب أن يقف عند عتبات هذه المدرسة الفريدة في الصَّبر ، وحُسْن العزاء! عاشت زبيدة ـ رحمها الله ـ أيامها عاكفة على الطاعات ومغتنمة للقربات. وغدت تُقدِّم بين يديها أغلى ذُخْر ؛ ليوم لا تنفع فيه سوى الحسنات الباقية! وفي شهر جمادى الأولى من سنة 216 للهجرة ودَّعت الدنيا السَّيدة المصُونة والدُّرّة المكنُونة ساقية الحجيج وربيع الملهوفين والصَّابرة اللَّبيبة الصَّالحة النَّجيبة أمّ جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور. لتُطوى صحيفة أنصع من مُزْن السَّحاب! وأنضر من التِّبْر المسبُوك! وإن ودَّعت الدنيا فقد بقيت آثارها. شاهدة بفضلها الجزيل. ومقامها الزَّاكي النَّبيل. مع دعاء الخلائق لها إذا قصدوا تلك الأركان الطاهرات. ولبّوا بالحج في تلك الأيام الزَّاكيات. فأنزل الله تعالى زبيدة منازل السُّعداء. وأكرم نُزُلها في دار الحُبُور والهَنَاء).هـ. لقد كانت الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله ـ تدرك ما للصدقة من أثر عظيم في نفوس الفقراء والمحتاجين ومن دفع لغائلة الحقد والحسد والغل في نفوسهم تجاه إخوانهم الأغنياء. وكأني بها تعيش في أبيات خليل مطران إذ يبين قيمه الصدقات لمن يتصدقون محتسبين الأجر عند الله تعالى فقال:

يـــا محســـنون جـــزاكمُ المـــولى بمـــا ... يرجـــو علـــى مَســـعاكم المحمـــودِ

كـــم ردّ فضـــلكمُ الحيـــاة لميـــتٍ ... جوعـــاً! وكـــم أبقـــى علـــى مولـــود!

كـــم صـــان عِرضـــاً طـــاهراً مِـــن ريبـــةٍ ... ونفـــى أذىً عـــن عـــاثر منكـــود!

طبعاً للصدقات أثرها في النفوس وعلى الناس وفي المجتمعات. إنها فوق كل هذا تُطفئ غضب الرب. وليقارن القارئ لمناقبها – رحمها الله ـ بين موقفها وصدقتها على قوم لا يستطيعون الإنفاق على ذويهم ، وصدق من قال مُحَذراً الناس من الظلم والشح وأكل الحقوق والتجبّر:-

لا تظلمـــن إذا مـــا كنـــت مقتـــدراً ... فـــالظلمُ ترجـــع عُقبـــاه إلـــى النـــدمِ

تنـــام عينـــاك ، والمظلـــومُ منتبـــهٌ! ... يـــدعو عليـــك ، وعـــينُ الله لـــم تـــنم!

أسلفنا القول من قبل أن الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – والله بها عليم – كانت تميل إلى صدقة السر تُوصلها بنفسها إلى الفقراء ، طارقة الأبواب عليهم دون أن تُعْلمهم من هي؟ ولا لماذا جاءت؟ وكأني بها تستوحي هذا المبدأ العظيم من قول الله عز وجل: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تُخفوها وتُؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويُكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير)! وتستوحيه من قول الرسول –

صلى الله عليه وسلم - فيما خرّج الإمام الطبراني من حديث أم سلمة – رضي الله عنها - أنه – صلى الله عليه وسلم - قال: (صنائعُ المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة خفياً تطفئ غضب الرب. وصلة الرحم تَزيد في العمر وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف)! فعسى أن يكون للأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – ما وعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم - من الخير لمن يتصدق في السر. وجزاها الله على ما أنفته في العلانية! والكل ممدوح عند الله (سراً وعلانية)! وإن كان السر أحب إلى الله وأجدر بكرام الناس وأستر على الفقراء والمساكين الذين من عفتهم (لا يسألون الناس إلحافاً). كذلك دعمت الأميرة العلم والتعليم وطلاب العلم والمعلمين! فإن دعم العلم والتعليم من أهم الركائز التي يرتكز عليها بناء مجتمع طيب صالح متحضر يأخذ بأصالة الماضي وحضارة المستقبل. وبعد أن تبرّعت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – والله بها عليم – في سبيل العلم التعليم بالكثير من الدنانير ، وكان ذلك الدعم من الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – للعلم والتعليم ينبع من إيمانها ، بأن العلم لا غنى للمجتمع عنه ، فهو كالماء والهواء بالنسبة للناس. وهو كالشمس للدنيا وكالعافية للجسم. وقد تعلمت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – وأدركت ما للعلم بنوعيه من أهمية (العلم الشرعي: كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم – والعلم المادي والتكنولوجي). أدركت ذلك من الواقع المحسوس المُعاش. فالغرب اليوم يشهد تقدماً مادياً تِقنياً حضارياً ملموساً ولا شك. وإن كان في أغلبه قد قام على علم أسلافنا العرب الأولين أمثال: (الرازي وابن سينا وابن النفيس وابن بطوطة وابن جبير وابن خلدون وابن العوام والكندي والفارابي والزرنوجي أبو التربية والتعليم وابن قرة والإكويني وغيرهم من العباقرة العرب والمسلمين)! كان أجدادنا العرب من العلماء الجهابذة قد دونوا أبحاثهم وشاركوا ركب الحضارة بمخترعاتهم ونظرياتهم. واليوم تقدم الغرب بما حاز من علم أجدادنا وخبراتهم ومهنهم وأبحاثهم وآلاتهم. على حين استجدينا منهم الآلات والصناعات والمخترعات! إن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – وهي تدعم العلم وطالب العلم لترجو الله سبحانه وتعالى القبول! وثمراته أن يخرج من هذا الجيل - الذي ضحّت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – من أجله - العلماء والأدباء لكيلا يضيع المال سُدى (بلا فائدة). وإنا لنسال الله أن تُثمر هذه الأموال عطاء لها ولمن أعانها في الآخرة. إلا أن (صراع الحضارة) اليوم كما يحلو للغرب أن يُسميه هو صراعٌ قام على العلم ، ونحن نسميه تلاقي وتمازج ودمج الحضارات. إن كانوا قد تقدموا في الماديات فما أحوجهم إلينا. لا من أجل المال فقط ، إذ أنعم الله علينا بالثروات ، بل إن عندنا حياتهم الحقة (منهج الإسلام والإيمان) الذي هو الحياة للناس. ولا حياة لأحدٍ بدونه. وإلا فماذا حقق الغرب بالعلم المادي هذا؟ لقد كان نِقمة في عُمومه بشهادة عقلائهم وأدبائهم وشعرائهم وكُتابهم. إن العلم المادي بدون رصيدٍ من القيم سمح باكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء عندهم ، كما تنبأ بذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – وعدّه من أشراط الساعة. إن الأميرة زبيدة حرصت على الدعوة إلى الله في دار الإسلام وخارجها! وكانت تُوصي بتعليم أهل الكتاب الإسلام وحضهم على الدخول فيه إن أرادوا ذلك طواعية ، إذ لا إكراه في الدين! بل من باب: (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)! وذلك نابعٌ عندها من أن التقدم المادي دون التقدم الروحي والقِيمي لا يُعد تقدّماً بل هو رَجعية وظلامية وتخلفٌ وعودة بالإنسان إلى عبادة الأصنام والأوثان في أطوار وأشكال جديدة ليس إلا! يقول الأستاذ أحمد حسين الشيمي مُعرّجاً على هذه القضية من انحطاط الأخلاق والقيم في الغرب ، وأنه بحاجة إلى حضارتنا الروحية القيمية الأخلاقية متناولاً كتاب جيمس بيرنهام "موت الغرب": وهو مفكر أمريكي يؤكد انهيار أوروبا وأمريكا وإسرائيل وصعود الإسلام

يقول ما نصه: (ومثلما كتب السياسي والمفكر الكبير جيمس بيرنهام منذ ما يزيد على ثلث قرن مضى: "لا أعرف سبب انحطاط الغرب بسرعة غير عادية ، وهو ما يظهر أبعد ما يكون غوراً في تعميق فقدان قادة الغرب ثقتهم بأنفسهم وبالصفة الفريدة لحضارتهم الخاصة ، ويظهر بتلازم ضعف الإرادة الغربية للبقاء. السبب أو الأسباب لها صلة بانحلال الدين وبالإفراط بالترف المادي ، وأفترض أن لها علاقة بالوصول إلى التعب والإعياء ، مثلما يحدث للأشياء الدنيوية". أما الكاتب باتريك جيه بوكانن فكان مستشاراً كبيراً لثلاثة رؤساء أمريكيين ، وخاض سباق تسمية المرشح لمنصب الرئيس عن الجمهوريين مرتين في العام 1992م وفي العام 1996م ، ثم كان مرشحاً لانتخابات الرئاسة عن حزب الإصلاح في العام 2000م. وهو مؤلف لخمسة كتب أخرى ، من جملتها كتابان من أفضل الكتب مبيعاً هما: "مُحِق من البداية" ، و"جمهورية لا إمبراطورية" وهو كاتب لعمود صحفي ينشر في عدة صحف ، وعضو مؤسس لثلاثة من أشهر برامج التليفزيون العامة في محطة إن بي سي ، وسي إن إن. يذكر باتريك جيه بوكانن في كتابه (موت الغرب) أنه مثلما كان تنامي عدد السكان طوال وقتٍ مديدٍ علامة على أن الأمم تتمتع بالصحة ، فإن هبوط عدد السكان صار سمة للأمم والحضارات التي تعيش حالة انحطاط! وإذا ما كان هذا صحيحاً ، فإن الحضارة الغربية تكون ، مع وضع القوة والثروة جانباً ، في حالة حرجة. ففي الوقت الذي تضاعف فيه عدد سكان العالم إلى ستة بلايين نسمة في غضون أربعين عاماً ، توقفت الشعوب الأوروبية عن التكاثر ، وبدأ عدد السكان بالتوقف ، بل وفي العديد من البلدان ، بدأ عدد السكان في الهبوط ، ومن بين الأمم الأوروبية السبع والأربعين ، هناك أمة واحدة فقط وهي ألبانيا المسلمة ، كانت ما تزال تحتفظ في العام 2000 م بمعدل مواليد كافٍ ليبقيها حية إلى أجل غير محدد ، أما بقية أوروبا فقد بدأت تموت. والتنبؤ بالحالة المحتملة للوضع متجهم ، وبين العام 2000 م والعام 2050 م سوف ينمو عدد سكان العالم بأكثر من ثلاثة بلايين نسمة ليصل إلى ما يزيد على تسعة بلايين نسمة ، ولكن هذه الزيادة التي تبلغ 50% من سكان المعمورة سوف تأتي بكاملها في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بينما سوف يتلاشى عن ظهر الأرض مائة مليون نسمة من الأصول الأوروبية. ففي العام 1960م كان السكان المنحدرون من أصول أوروبية يُشكلون ربع سكان العالم ، وفي العام 2000م كانوا يُشكلون السُدس ، أما في العام 2050م فسوف يُشكلون عُشر سكان العالم. هذه هي الإحصاءات عن جنس يتلاشى ، وقد حرض الوعي المتنامي بما تعنيه هذه الحالة من نذر مشؤومة إحساساً بتوجس البشر ، بل بالذعر في أوروبا. ثم يطرح المؤلف سؤاله الرئيسي الذي يدور حوله الكتاب وهو: هل موت الغرب أمرٌ لا مناص منه؟ أو مثله مثل كل التنبؤات السابقة عن انحطاط الغرب وموته فإن هذا الكأس أيضاً سوف يبتعد ويمر ويكشف جميع الذين قالوا لا بد لنا أن نشرب هذا الكأس بوصفهم حمقى؟ ويجيب المؤلف بأن موت الغرب ليس تنبؤاً بما سيحدث ، إنه تصوير لما يحدث الآن ، إن أمم العالم تموت ، وهي تواجه أزمة مميتة ، لا بسبب شئ ما يحدث في العالم الثالث ، بل بسبب ما لا يحدث في الوطن وفي بيوت العالم الأول. فقد مضى على معدلات الخصوبة الغربية عقودٌ وهي تهبط ، وخارج ألبانيا المسلمة ليس هناك أمة واحدة أوروبية تُنجب ما يكفي من الأطفال لتُعوض النقص في سكانها ، ومع مرور السنوات فإن معدل الولادة لا يستقر إنه يهبط ، وفيما يقارب 20 بلداً فإن المسنين يموتون منذ مدة بأسرع مما يجري إنجاب الشباب ، فليس هناك أي إشارة للعودة عن ذلك ، وقد بدأت الآن الأرقام المطلقة للأوروبين بالهبوط. يوم أوروبا قد انتهى ، والهجرات الضخمة القادمة من العالم الإسلامي سوف تُغير التركيب العرقي للقارة القديمة بحيث سيكون الأوروبيون أكثر شللاً بخطر الإرهاب من أن يتدخلوا في شمال أفريقيا أو في الشرق الأوسط أو في الخليج العربي. وما يعتقده الناس حقيقة حول الصواب والخطأ يمكن أن

يتحدد من خلال الكيفية التي يعيشون بها حياتهم على نحو أفضل مما يتحدد ويعرف من خلال ما يقولونه باستطلاعات الرأي ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن النظام الاخلاقي القديم في حالة موت. وحتى وقت متأخر في الخمسينيات من 1950م كان الطلاق فضيحة ، وكان "العيش معاً بلا زواج" يوصف بأنه الكيفية التي تعيش بها " القمامة البيضاء"، وكان الإجهاض مقززاً ، وكان اللواط هو "الحب الذي لا يجرؤ أحد على أن ينطق باسمه". أما اليوم ، فإن نصف كل الزواجات تنتهي بالطلاق ، والعلاقات هي ما تدور الحياة حولها والحب الذي لا يجرؤ أحد على أن ينطق باسمه لا يغلق فمه! ويقول عالم السكان البلجيكي رون لسثايغي إن انهيار الزواج والخصوبة الزوجية يعود إلى "تحول في نظام تشكيل الأفكار الغربية" ، ابتعد على أمد طويل عن القيم التي أكدتها النصرانية ـ التضحية والإيثار ، وقدسية الالتزام ـ وتوجه نحو "فردية علمانية" محاربة تركزت على الذات. وعندما أصدر البابا بول السادس في العام 1968م تعميمه الكنسي ضد منع الحمل ، فإن العداوة الشاملة التي أُستقبل بها ذلك التعميم ، حتى بين الكثيرين من الكاثوليك أعطت شهادة على التغيير الهائل في المجتمع. ولكن مع انتشار الزنا المتعدد غير المنضبط والطلاق على نطاق واسع وانفجار الكتابة العارية وشيوع فلسفة الانحلال والعبث في التيار العام ، وقيام دافع الضرائب بتمويل الإجهاض ، وفي يوم نستطيع فيه أن نقرأ في أمريكا عن فتيات في العشرية الثانية من أعمارهن يرمين مواليدهن الجُدد في حاويات القمامة وسط الجليد ، تُذكرنا بالعالم القديم لروما الوثنية ، حيث تُترك المواليد الغير مرغوب فيها على سفوح التل ليموتوا من التعرض للعوامل الطبيعية. ويقوم أطفال وسط أمريكا الآن برحلات متناوبة واجبة في الثورة الجنسية ، تحت شعار "اعمل الشئ الذي يخصك" ، هو الآن عرف أخلاقي ، وكل إمرأة أمريكية في سن حمل الأطفال كان لها إجهاض كمرجع تعود إليه والملايين منهن لن يرجعن عنه ، يردنه موجوداً لأنفسهن ولبناتهن وسوف يصوتن ضد أي سياسي أو حزب يهدد بانتزاع الإجهاض منهن. والغرب لا تعوزه القدرة أو القوة على صد المخاطر ، ولكن الغرب على ما يبدو ، تعوزه الرغبة أو الإرادة لإستدامة نفسه بوصفه حضارة حيوية منفصلة فريدة. ومثلما كتب السياسي والمفكر الكبير جيمس بيرنهام منذ ما يزيد على ثلث قرن مضى: "لا أعرف سبب انحطاط الغرب بسرعة غير عادية! وهو ما يظهر أبعد ما يكون جداً غوراً في تعميق فقدان قادة الغرب ثقتهم بأنفسهم وبالصفة الفريدة لحضارتهم الخاصة ، ويظهر بتلازم ضعف الإرادة الغربية للبقاء. السبب أو الأسباب لها صلة بانحلال الدين وبالإفراط في الترف المادي ، وافترض لها علاقة بالوصول إلى التعب والإعياء ، مثلما يحدث للأشياء الدنيوية").هـ. ومن هنا كانت دعوة الأميرة زبيدة إلى الأخلاق والقيم وجعلها أهم الأولويات!

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يُتوّج ربه بخلاق!

إن النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه). والأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – قد تأثرت بهذا المبدأ العظيم! والذي ينظر إلى تاريخ الأئمة العظام وغيرهم من أعلام هذه الأمة يجدهم قد بدأوا بالقرآن: الشافعي وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل وغيرهم كانت بدايتهم بالقرآن! وصفه الرسول فيما رواه الترمذي حيث قال – صلى الله عليه وسلم -: (إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً ، وسنة خالية ، ومثلاً مضروباً ، فيه نبأكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول الرد ، لا تنقضي عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم ، من طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن

حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يقوم فيعوج ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد). لقد كانت الأميرة (زبيدة) نعم الزوجة المستشارة لزوجها هارون الرشيد! حيث كان يرجع إليها في مسائل كثيرة لما كان يأنس فيها من الذكاء وسعة العلم والفهم والفقه! وكانت تُسعفه بحلول ناجعة حاسمة للمشكلات التي تطرأ ويحتار الرشيد ماذا يفعل فيها! لقد أشارت بآراء تدل على عمق شخصيتها وسعة فهمها! وفوق ذلك كله كانت كما أسلفنا زوجة محبة وادعة مطيعة لزوجها! وما ذاك إلا بفضل الله تعالى عليها أولاً وآخراً ، ثم بفضل تربية أبيها وجدها المنصور لها على القيم والمروءة والأخلاق ، ثم بفضل اهتمامها الشديد بالقرآن حفظاً وتلاوة وتطبيقاً وممارسة! ومن هنا كان اهتمام الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – بالقرآن الكريم. إنها ثمرات جهود متتابعة ورحلات متتالية وأسفار وراءها أسفار. ما تكاد تنزل بأرض وتمنح رعاياها وتوصي وصاياها ثم تعيد الكرة بأرض أخرى ، فمن صقع إلى صقع ، ومن دولة إلى دولة ، ومن بقعة إلى بقعة.

عمـــــلٌ بـــــلا ملـــــل وكـــــدحٌ دائـــــمٌ والفضـــــلُ فضـــــلُ العامـــــل الكـــــدّاح!

وكأني بها – رحمها الله – لم يكن يقر لها قرار ولم تهدأ لها جارحة ولا تسكن لها نفس ، إلا وهي تُسافر وتُعطي وتمنح وتُوصي وتدعو. وفوق ذلك كله ترى أن الذي بذلته دون ما يستحق من تبذل له ودون ما تحب نفسها أن تبذل. شأن كبار النفوس في كل زمان ومكان ، يبذلون ويستقلون ما يبذلونه ويرونه دونما يشتهون. ولها من وصف أحد أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – نصيب حيث وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: "إنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر" ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: (أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً)! والأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كان لها بذل منقطع النظير للأيتام والأرامل والمحتاجين! وهذا كان متصوراً منها ، وذلك لما تحمل في صدرها من قلب شفيق عطوف يشعر بالمحتاجين ، ويتألم للمنكوبين ، ويتمنى لو أعطى كل محتاج مسألته وكل مسكين حاجته! وحدثني من أثق في كلامه عنها أنه درس في سيرتها أنها كانت تستقصي عن الأيتام بنفسها ، وتمسح بيديها على رؤوسهم ، وتمنحهم عطفها وحنانها ، وكأني بها تتمثل قول الله - عز وجل -: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين). وقوله تعالى من سورة البقرة: (يسألونك ماذا ينفقون؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم). وقوله من سورة الإنسان: (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً). فراحت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – تنفق من مالها الخاص وتحمل الآخرين من إخوانها وأخواتها وغيرهم على الإنفاق ، وترغب الناس في الإنفاق على الأيتام الذين فقدوا الآباء فأصبحوا يُعانون ضيق ذات اليد. وتجمع الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كل هذه التبرعات والهبات والمكرمات وتُوصلها بدورها إلى مستحقيها من الأيتام. وكأني بها تريد أن تحوز شرف الالتزام فعلاً بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في الوصية باليتيم والحض على الإحسان إليه والبر به! والترغيب في كفالته والإنفاق عليه. (عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما)! وأيضاً فيما رواه أبو يعلى (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (من ضم يتيماً بين مسلمين في طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة)! وكأني بها – جزاها الله عن الأيتام خيراً – تعمل بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي رواه ابن ماجه: (من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره وغداً وراح شاهراً سيفه في سبيل الله ، وكنت أنا وهو أخوين كما أن هاتين أختان. وألصق إصبعيه السبابة والوسطى). فعسى أن تكون الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – يوماً ما رفيقة النبي – صلى الله عليه وسلم – ببذلها للأيتام وكفالتها إياهم. والآن لنتصور رقة قلبها ودفء مشاعرها وهي تمسح بيدها على رأس اليتيم الذي فقد أباه لتمنحه عطفها وحنانها. أخرج الإمام أحمد أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال: (من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له في كل شعره مرت عليها يده حسنات. ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمةٍ عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين). وأيضاً روى الإمام أحمد – رحمه الله - من حديث أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – قسوة قلبه ، فقال: (امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين). وكذلك خرج الإمام الطبري من حديث أبي الدرداء أن رجلاً شكا قسوة قلبه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك

يلن قلبك وتدرك حاجتك). وخرّج الطبري من حديث أبي هريرة قال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (والذي بعثني بالحق لا يُعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ، ولان له في الكلام ، ورحم يُتمه وضعفه ولم يتطاول على جاره بفضل ما أتاه الله تعالى). والحقيقة أن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – نحسبها عملت هذا كله من أجل مصلحة الأيتام وأرادتْ من الله عز وجل الأجر والثواب. وسارت على هدي المصطفى في رعاية اليتيم والاهتمام به وعملتْ بسنته. إن هذه المشاعر الأخاذة الحساسة والعواطف النبيلة لتجعلنا فعلاً ندرك ما تمتعتْ به الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – من شخصية طيبة قد حباها الله الإحساس بالآخرين. إذ لم تقف مكتوفة الأيدي حِيال أوجاع الآخرين من حولها. ولا نزكّيها على الله ، لقد كانت مثالاً عظيماً يُحتذى وقدوة رائعة في البذل والسخاء والعطاء. وكأني بها تستشف مساعيها من قوله تعالى: (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) ، وقوله عز وجل في وصف من سوف يُجنبه الله النار يوم القيامة: (وسيُجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى). وكأني بها تستلهم الدروس في الإنفاق والبذل والعطاء من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (إنما الدنيا لأربعة: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي الله فيه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ بعمل فلان فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهو أخبث المنازل! وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت به عمل فلان فوزرهما سواء). فلقد هدى الله بفضله ورحمته الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – إلى الإنفاق في سبيله وعلى عباده المعوذين والمحتاجين ومن نزلت بهم النوازل وأحاطت بهم الكوارث من كل صوب وحدب ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه! فجزاها الله عن أهل العوز والفقر والحاجة كل خير. أخرج الإمام الطبراني – رحمة الله تعالى عليه - بإسناد لا بأس به أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (إن الصدقة لتُطفئ عن أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته). فهنيئاً لك يا أميرتنا زبيدة بنت جعفر ظل صدقتك يوم القيامة ، وعسى الله أن يتقبل دعاء الملايين في الأرض في زمانك لكِ آمين. ولا تزال الناس تدعو لك بالرحمة والغفران مذ مت وإلى يوم الناس هذا وحتى قيام الساعة! ويذكر لي أحد الصالحين أن بعض صدقات الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – العينية كان من بينها التمر والماء. وكأني بها تعمل بقول الرسول: (أفضل الصدقة الماء) وقوله كذلك من رواية البخاري ومسلم – رحمهما الله -: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة). وأيضاً أوصى النبي عائشة بقوله: (يا عائشة ، استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان). رواه أحمد. والله نسأل أن يأجرها على هذه المكرمة العظيمة ، وأن يجعل عملها خالصاً لوجه الكريم ، وأن يأجرها الجنة. كذلك تمتعت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – بقلب رحيم يحمل في سويدائه عبء ما يعتور المسلمين بصفةٍ خاصةٍ والناس بصفةٍ عامةٍ من المحن والكوارث. وكأنها تحلم بمجتمع (المدينة المؤمنة الفاضلة) ، تلك المدينة التي يعيش فيها الناس جميعاً في سلام ووئام وإيمان وإسلام ، وكفاية وعدل ، وعلم وفكر ، وشبع وري كما أحل الله وشرع. وتصطدم أمانيها بالواقع الذي يحياه الناس ، شأنها في ذلك شأن كل المصلحين والمصلحات والخيريين والخيرات في الدنيا بأسرها. ومن خلال مطالعتي لسيرة الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – ومن خلال حديث من كتبوا عنها عن كثب ، ثبت أنها كانت تعيش

أكثر ما تعيش لغيرها ، فجزاها الله خيراً! وتهوى وتتمنى لو رأت الناس سعداء ، ينعمون بحياةٍ كريمةٍ هانئةٍ سعيدةٍ بعيداً عن آفات ثلاث (الفقر والجوع والجهل) وهي كما نرى على ترتيبها.

الآفة الأولى (الفقر)

فقاعدة هذه الآفات وآفة الآفات إن صح التعبير هو الفقر. ذلك أنه يقود تِباعاً وبالضرورة إلى كل آفة ، فهو سببٌ رئيسٌ في الجوع وطريق مؤدٍ إلى الجهل. وكم بسبب الفقر بيعتْ ضمائر وذِمم ، وكم هتكت أعراض ، وكم أزهقت أرواح ، وكم سُفكت دماء ، وكم حِيل بين قوم وبين ما يشتهون! وكم بالفقر سقطت همٌ وهانت قيمٌ ، وكم ضاعت أصولٌ وعقائد. وكم بالفقر جاع قومٌ جوعاً أذهب طاقاتهم! وإن كان الفقر محموداً من وجه ، حيث يصنع العِصامية في الإنسان. ولكنه بصفةٍ عامةٍ ممقوت. ولعل هذا الذي جعل الرسول يستعيذ بالله منه بقوله: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر). ولقد عرّف البنك الدولي الدول المنخفضة الدخل بأنها تلك التي ينخفض فيها دخل الفرد عن 600 دولار سنوياً. وعددها 45 دولة معظمها في أفريقيا وحدها منها 15 دولة يقل متوسط دخل الفرد عن 300 دولار سنوياً. وأما برنامج الإنماء للأمم المتحدة فيضيف معايير أخرى ، تعتبر مباشرة عن مستوى رفاهية الإنسان ونوعية الحياة! وأشار إلى أن 45% من الفقراء يعيشون في مجتمعات غير منخفضة الدخل ويذكر أن 30 مليون فرد يعيشون فعلاً تحت خط الفقر 0 وفي أمريكا 15%من الفقراء. وأشار تقرير الأمم المتحدة لعام 2010م إلى أن دائرة الفقر تضم بليون فرد في العالم يقل دخل الفرد عن 600 دولار سنوياً ، ومنهم 630 مليون في فقر شديد (حيث إن متوسط دخل الفرد يقل عن 275 دولار سنوياً. وإذا اتسعت الدائرة وفقاً لمعايير التنمية البشرية لشملت 2بليون فرد من حجم السكان في العالم البالغ حوالي 6 بليون فرد منهم بليون فرد غير قادرين على القراءة والكتابة ، وكذلك 1.5 بليون لا يحصلون على مياه شرب نقية. وهناك طفل من كل ثلاثة أطفال يعاني من سوء التغذية! وهناك بليون فرد يعانون الجوع وحوالي 13 مليون طفل في العالم يموتون سنوياً قبل اليوم الخامس من ميلادهم ، لسوء التغذية والرعاية ، أو ضعف الحالة الصحية للطفل أو للأم نتيجة الفقر والمرض. وأشار تقرير دقيق لمنظمة الصحة العالمية عام 2009م أن الجوع يلتهم أكثر من مليار من فقراء العالم ومُعْدميه. وأن الجوع هو مرحلة متقدمة من مراحل الفقر. ووفقاً لتقارير الأمم المتحدة أيضاً بينهم حوالي 300 مليون أفريقي تصلهم المساعدات التي تقدر بأكثر 50 مليار دولار حتى عام 2015م ، حتى يمكن تجاوز آثارها بحسب اعتقاد المسؤولين في البنك الدولي. فأين الرشيد وزوجه زبيدة لفقراء ومساكين زماننا؟! ولنعد إلى عصر الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – بعد هذا التحليق المعاصر ، لندرك أن عصرها كان عصر الخير والنماء للجميع ، وذلك حتى كان زوجها الخليفة العباسي المسلم المؤمن الموحد هارون الرشيد ، كان يُخاطب السحابة قائلاً: (أمطري أو لا تمطري ، فأينما أمطرتِ فسوف يأتيني خراجك أينما أمطرت!) فلم يكن للفقر طريق لدار الإسلام وذلك بسبب بسيط هو تطبيق الإسلام في حياة الناس ودنيا الله تعالى! الفقر ذلك الشبح المرعب الذي ما إن يُخيّم على أرض قوم حتى يُبتلوا بأبشع المحن والإحن! ولعل هذا الذي جعل الإمام علياً بن أبي طالب رضي الله عنه يقول كلمته المشهورة عن الفقر: (لو كان الفقر رجلاً لقتلته)! ولذلك أمر الله المؤمنين بأنهم إذا ذبحوا بهيمة الأنعام أن يأكلوا ولا ينسوا الفقراء من طعامهم فقال: (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير). وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن شر الطعام الذي يدعو الناس لأكله من كان مستغنياً عنه وقادراً على شراء أضعافه فقال: (شر الطعام طعام الوليمة ، يُدعي إليها الأغنياء ويُحرم منها الفقراء). وما ذلك كله إلا لقِصَر يد الفقير عن شراء الطعام.

وخصّ الله ابن السبيل ، وجعل له حقاً لفقره ولانقطاع السبيل به فقال: (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً). ولما اطلع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل الجنة في رحلة الإسراء ، وجد بأن الفقراء من أكثر أهل الجنة. وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ القائل: (اطلعت في أهل الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء). ووصّى علي بن أبي طالب المؤمنين بأن يجدّوا في أداء حق الفقير في أموالهم فقال: (إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما مُتع به غني). وصدق الشاعر الجاهلي امرؤ القيس عندما قال مبيّناً أن الأيام دولٌ تتداول بين الناس فيومٌ للمرء ويومٌ عليه:

ومـــا يـــدري الفقيـــر متـــى غنـــاه؟! ومـــا يـــدري الغنـــي متـــى يمـــوتُ؟!

وصدق ابن نباتة إذ يبين حال أغلب الناس مع الفقير والغني من القوم فيقول:

ومـــا الفقـــر إلا ـ للمذلـــة ـ صـــاحبٌ! ومـــا النـــاس إلا ـ للغنـــي ـ صـــديقُ!

وليعلم أصحاب الأموال بأن الفقر لا يمكن أن يُذل أصحاب الهمم العالية ، كما أن الغني لا يمكن بحال من الأحوال أن يرفع ذوي الهمم الحقيرة أبداً! ولذا فقد أحسن الفيلسوف فوفنارج عندما قال في ذلك: (لا الفقر يستطيع أن يذل النفوس القوية ، ولا الثروة تستطيع أن ترفع النفوس الدنيئة). ومن هذا المنطلق كان حُلماً عند الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – أن ترى مجتمعاً مسلماً بلا فقر. ولا يتحقق ذلك إلا عندما يُحسّ بفقراء ذلك المجتمع أغنياؤه من ذوي القلوب الرحيمة والنفوس العالية. وهذا الذي جعل الأميرة زبيدة تبذل قصارى جهدها سراً وعلانية وتجتهد في الداخل والخارج من أجل محاربه الفقر. إن الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – بهذا البذل تقوم بواجبها الإسلامي حِيال الإسلام وأهله من الفقراء. وتقوم بواجبها الإنساني حِيال الإنسانية المعذبة ، التي ترزحُ تحت نير الفقر من أقصى الأرض إلى أقصاها ، ولا يمكن لمجتمع يريد أن ينظر للحياة وللناس نظرة الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – ثم هو يقسّم الناس إلى أسيادٍ نبلاء وعبيدٍ أرقاء. قِلة يملكون المُقدرات والثروات ويلعبون بالبلايين ، وكثرة كاثرة لا تجد إلا التراب طعاماً ، ولا تكاد تملك من مُقدّرات الحياة شيئاً يُذكر. إن الإسلام وحده هو الذي يُحقق مبدأ التكافل الاجتماعي والكفاية والعدل. وهذا الذي أدركته الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – ولذا بدأت بالقرآن والسنة للبنات وللأبناء وللنساء دراسة وتعليماً منذ أول وهلة. وكانت المعجزة عندما آمن بفكرتها بعض أصحاب الأموال فمدّوا لها يد العون. سواء من المتصدقين المخلصين المؤمنين ومروراً بأصحاب المنشآت والصناعات والتجارات ، وختاماً بعوام الناس في ديار الإسلام. نسأل الله أن يتقبل من الجميع صالح الأعمال وأن يعز الإسلام والمسلمين في زماننا! وأن يمن على المتصدقين بالعمل الصالح والتوفيق لرضاه وأن يجعلهم سِلماً لأوليائه حرباً على أعدائه! لقد كان عمل الأميرة زبيدة صالحاً فيما يبدو للناس! فنسأل الله أن يكون عملها عنده صالحاً صواباً مخلصاً. فالعبد الذي يؤدي الأعمال الصّالحة يعدّ من الفائزين ، وإلّا فهو من الخاسرين في الدّنيا والآخرة ؛ بسبب ما قام به من الكفر بالله تعالى ، والفواحش والمنكرات والرذائل ؛ أي أنّ العمل الصّالح له العديد من الحسنات ، وعواقب الخير ، والأجور العظيمة والكبيرة في الحياة الدّنيا والحياة الآخرة. ومن أجل العمل الصالح كان استخلاف الإنسان على الأرض ، والتّمكين لدين الإسلام ، وتحقيق الأمن للعباد بعد الخوف. والعمل الصالح يورث الحياة الطيبة والهانئة ، وتكفير الذّنوب والسيئات ، والثّبات على دين الحقّ لآخر العمر. وبالعمل الصالح يكون الجزاء العظيم في الحياة الآخرة الذي يتحقق بدخول الجنة ، والوصول إلى الدرجات العالية والرّفيعة فيها ، حيث قال الله تعالى: (مَن عَمِلَ صالِحًا مِن

ذَكَرٍ أَو أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَ). وبالعمل الصالح ترفع درجات المسلم عند الله تعالى ، فزيادة العبد من الأعمال الصّالحة هي في الحقيقة زيادةً له في درجاته عند الله تعالى ، ومن ذلك فالنفقات الواجبة على العبد تحتسب له من الصّدقات التي ينال عليها الأجر من الله تعالى ، حيث قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: (إذا أنفق المسلمُ نفقةً على أهلِه ، وهو يحتسبُها ، كانت له صدقةً). التّمتع بنعيم الجنة المطلق بمختلف النّعم التي وجدت لسعادة العبد ؛ جزاءً لما قدّم من الأعمال الصّالحة ، حيث قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ). والعمل الصالح له شرطان في ديننا أن يكون صواباً وخالصاً لله! قال الله تعالى: (الَّذينَ ضَلَّ سَعيُهُم فِي الحَياةِ الدُّنيا وَهُم يَحسَبونَ أَنَّهُم يُحسِنونَ صُنعًا) ، لذلك يجب أن تكون الأعمال الصّادرة من العبد أعمالاً صالحةً ، وممّا يدل على ذلك أن الله تعالى أقسم بخسران الإنسان ، إلّا أنّه استثنى منهم البعض ، فقال: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) ، ومن شروط العمل الصّالح ؛ موافقته لشرع الله تعالى ، مع الحرص على تحقيق الإخلاص بالعمل ، بأن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، وبذلك فإنّ كلّ عمل لا يوافق شرع الله ، أو لم يكن الإخلاص متحققاً به لا يعدّ من الأعمال الصّالحة مطلقاً ، فيجب أن يكون العمل مقترناً به موافقة الشّرع والإخلاص دون فقد أحدهما. والحقيقة أن فضل العمل الصّالح العمل هو حصيلة الإنسان الذي يخرج به من هذه الدنيا ، ويترتب عليه مصير العبد في الآخرة ، فإن أحسن فقد فاز ، وإن أساء فقد خسر ، فقد بيّن ذلك النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقال: (يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) ، إن العمل الصالح هدفٌ وغاية من خلق السماوات والأرض وتسخير ما خلق الله للإنسان! إذ يُعدّ فعلاً من الغايات والأهداف التي خُلقت لأجلها السّماوات والأرض ، وما يدُل على ذلك قول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ وَكانَ عَرشُهُ عَلَى الماءِ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلًا) ، فأفضال الأعمال الصالحة متنوعة ومختلفة كما أنّها عظيمة جداً.

الآفة الثانية (الجوع والعطش)

إن الجوع ملهبة وتنغيص ونكد ولا شك. وكان من مِنة الله على قريش أن أزال جوعهم ، وجعل حرمهم يُجبى إليه ثمرات كل شيء. فقال تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). وهذه الآفة قد تصدت لها الأميرة زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – وبذلت في محاربتها الكثير والكثير في داخل ديار الإسلام وخارجها ، ولا نريد هنا أن نكرّر ما أبدأنا فيه القول وأعدناه غير مرة. ولكن فقط نشير إلى طموحات الأميرة الكريمة في محاربة الجوع ومناهضته مناهضة لا حدود لها. فهي تأمل وتتمنى أن ترى المسلمين وقد عاشوا في مستوى اجتماعي كريم يليق بالإنسان العربي المسلم ، بل وترى الناس في الأرض في زمانها وقد تحققت لهم الكفاية ، فباتوا غير محتاجين ولا معوذين ، باتوا وقد فارقهم شبح الجوع إلى الأبد! ومن هنا كانت رحلاتها وأسفارها وتطلعاتها لأنْ تُحقق شيئاً من مناهضة الجوع. فكم وفرت من قوتٍ لجائع بهدف مناهضة الجوع لدى الفقراء والمساكين والمحتاجين. وكم أرسلتْ البعثيات والطرود للفقراء والمساكين في ديار الإسلام وغيرها في سبيل مناهضة شبح الجوع! وعموماً الجوع مقصودٌ حيث يقول الله: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ،

وبشر الصابرين). فالجوع ابتلاء للفقير لقياس مدى صبره وابتلاء للغني لقياس مدى إنفاقه على من جاع ، ولمعرفة مدى إحساسه بإخوانه الفقراء. ولذلك لما سئل نبي الله يوسف عليه السلام: لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: (أخاف أن أشبع فأنسى الجائع). بالله إنها لإجابة موفقة من نبي كريم يعطينا درساً بليغاً في الإحساس إلى الفقراء. إن الجائع لا يمكن أن ينجز من الأعمال مثلما ينجز لو كان شبعاناً. ولذلك أحسن أبقراط أبو الفلسفة الإغريقية عندما قال: (إذا كنتَ جائعاً فلا تباشرْ عملاً). طبعاً يُستثنى من ذلك الصائم. فإنه أقدرُ وأكثرُ استعداداً من سواه على إنجاز الأعمال بتوفيق الله له. وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاد الصحابة الكرام كان أغلب ذلك في شهر رمضان. لكن الجوع بصفة عامة مذموم. وإلا ما استعاذ منه النبي – صلى الله عليه وسلم - ولا جعله مرادفاً للكفر كما أسلفنا. (وأعوذ بك من الكفر والفقر). والفقر الذي أعني هنا هو الفقر الذي كان من ثمراته الجوع! على عكس الجنود من غير المسلمين. طعامهم أولاً على حد تعبير قائدهم نابليون بونابرت الفرنسي الذي قال كلمته المشهورة: (أشبع جنودي ثم أبدأ المعركة). والإيطاليون يقولون في مثلهم العالمي:- (الجوع ألد أعداء الكرامة). ولهذا وجدنا الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – تبذل قصارى جهدها في مناهضة الجوع سواء على الصعيد الإقليمي هنا في ديار الإسلام أو الصعيد الدولي أو العالمي. فتمد يد العون لأصحاب الكوارث والفيضانات والزلازل والبراكين من الذين ضاقت بهم الحِيل عن أن يحصلوا على الطعام. إن جهود الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – أكثر من أن تحصى. وإنا لنسأل الله أن يأجرها عليها ويأجر من أعانها من الصادقين والعوام من أهل دار الإسلام الكرام وأن يتقبّل منهم صالح أعمالهم التي بذلوها في نفع الأنام. إن محاربة الجوع ليست أمراً سهلاً هيناً ، فهي أعتى من الحرب بالصواريخ والدبابات تلك التي أشار إلى شيء منها على بن أبي طالب رضي الله عنه إذ قال: (لو كان الفقر رجلاً لقتلته). الجوع لا يزول إلا بالطعام والبذل والسخاء والكرم والإيثار. ونحسب الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كانت أهلاً لذلك! وفي موقع جزيراس وتحت عنوان: (زُبَيْدة زوجة الرشيد ساقية الحجيج). أول مشروع مائي في التاريخ ، هل لك من أثر؟) وبالنص: (أَمطري يا سحابة أنّى شئت فسيأتيني خراجُك. هذه الجملة من مأثورات أقوال الخليفة المفترى عليه هارون الرشيد رحمه الله يصف فيها سعة وعظمة وتمكّن دولة الإسلام التي امتدت وانتشرت فوق أصقاع لم يكن أحد يتصور أن يصل الإسلام إليها. وقال الصفدي في الوافي بالوفيات: وكان من أميَز الخلفاء وأجلَّ ملوك الدنيا وكان يحبّ العلم وأهلَه ويعظِّم حُرُمات الله في الإسلام. وإذا كان المثل يقول: وراء كل رجل عظيم امرأة فمَن هي المرأة التي كانت تقف وراء ملحمة المُلك وبيت الزوجية وتقديم النموذج؟ هي الأميرة أَمَةُ العزيز زُبَيْدة بنت جعفر صاحبة الإنجاز الحضاري العظيم - عين زبيدة - أول مشروع مائي في التاريخ. فأما عن نسبها: فهي من فُضْلَيات النساء وشهيراتهن ولدت في عام 145هـ ، وترجم لها الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه تاريخ بغداد فقال: هي أم جعفر أَمَةُ العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، المعروفة بزبيدة زوجة هارون الرشيد وأم ولده الأمين ، كانت معروفة بالخيور والأفضال على أهل العلم والبِر للفقراء والمساكين ، ولها آثار كثيرة في طريق مكة من مصانع حَفَرتْها وبرَك أحدثتْها وكذلك بمكة والمدينة ، وليس في بنات هاشم عباسية وَلَدتْ خليفة إلا هي ويقال إنها وُلِدَت في حياة المنصور ، فكان المنصور يُرقصها وهي صغيرة فيقول لها: أنت زُبدة وأنت زُبَيْدة لبَضَاضَتِهَا ونَضَارَتِها ، فغلب ذلك على اسمها. وأما عن زواجها: فلقد تزوجت من هارون الرشيد سنة 165هـ ، وكان ذلك في خلافة المهدي ببغداد وأنجبت منه ابنها محمداً الأمين ، وكانت أثيرة في نفس زوجها يُحبها حباً جماً ، فكانت رفيقة الخليفة في معظم رحلاته ، سواء كانت لغزو الروم أو للدفاع عن حدود الدولة ضد الغزاة أو

للحج. وأما عن عبادتها واهتمامها بالقرآن الكريم: فلقد كانتْ كما وصفها المؤرخ المصري ابن تَغْرِي بَرْدِي بقوله: أعظم نساءِ عصرِها دِيناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفًا. ولقد كان لزبيدة من الجواري مائة جارية كنّ يحفظن القرآن الكريم! وكان يُسمع في قصرها طنين كطنين النحل من قراءة القرآن الكريم ، وبذلك تكون زبيدة قد نهجت منهجاً فريداً في حسن معاملتها للخدم ، حيث إنها شغلتهم بالطاعة والأعمال الصالحة فأصبحت سبباً في حصولهنّ وحصولها على الأجور العالية عند الله تعالى. وأما عن جُودها وكرمها: فلقد قال عنها الرحالة الجغرافي ابن جُبير في كتابه - الذي سطّر فيه أخبار رحلاته - أثناء طريقه إلى مكة: وهذه المصانع والبِرَك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة جعفر انتدبت لذلك مدّة حياتها ، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع ، تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها حتى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سُلكت هذه الطريق ، والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها. فعندما حجّت إلى بيت الله تعالى سنة 186 هجرية ، أنشأت من بغداد إلى مكة مجموعة من المساجد والبرك والآبار والمنازل والمصانع والمرافق ، وجعلتها للنفع العام ، ويذكر المؤرخون أنها في إحدى رحلات الحج شاهدت مدى معاناة حجاج بيت الله في الحصول على مياه للشرب ، حيث كان الوعاء الواحد يُباع بدينار ، فأمرت المهندسين بدراسة عاجلة لجر المياه إلى مكة المكرمة. فأشاروا عليها بأن الأمر صعب للغاية ، حيث يحتاج لحفر أقنية بين السفوح وتحت الصخور لمسافة لا تقل عن عشرة أميال ، وقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة ، فأمرته بتنفيذ المشروع على الفور ، ولو كلفت كل ضربة فأس ديناراً).هـ. رحمها الله تعالى!

الآفة الثالثة: (الجهل)

إن هذه الآفة كانت تقلق الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كثيراً ، لأنها تقتل إنسانية الإنسان. فما قيمة الإنسان بدون العِلم؟ ومن هنا وجدنا اهتمامها بالعلم والتعليم. ونحن على كل حال أمام امرأةٍ مثقفةٍ واعيةٍ وعلى درايةٍ كاملةٍ بخطط الأعداء في إرساء قواعد الجهل ، ودحض أسس العلم والحيلولة بين الناس وبين العلم. وأوصى الله نبيه – صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عن أهل الجهل فقال: (خذِ العفو وأمر بالعُرف وأعرضْ عن الجاهلين). وسأل الله الناس فقال لهم:- (قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟) وأما المُلهم عمر بن الخطاب فاروق أمتنا – رضي الله عنه - فيقول: (من قال: أنا عالم فهو جاهل). وأصاب أبو الطيب المتنبي إذ قال في التفريق الحق بين صاحب العمل وصاحب الجهل:-

ذو العقـــل يشـــقى - فـــي النعـــيم - بعقلـــه وأخـــو الجهالـــة - بالشـــقاوة - يـــنعمُ

وأجاد الشاعر العراقي معروف الرصافي إذ يبين قيمه العلم بين الناس فيقول :-

إذا مـــا الجهـــل خـــيّم فـــي بـــلادٍ رأيـــت أســـودَها مُسِـــخَتْ قـــرودا

ومن هنا فالأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – من فضل الله عليها كانت بصماتها الطيبة على العلم والتعليم ، ودعم أهل العلم والفكر والأدب أكثر من أن تحصيها الكلمات. ولمَ لا والعلماء ورثة الأنبياء. وإن

الأنبياء كما وصفهم النبي - صلى الله عليه وسلم – لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ، ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر. وطالب العلم اليوم يرث النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم - منذ خمسة عشر قرناً. والعلمُ يبقى والمالُ يفنى. وهذا أبو هريرة رضي الله عنه من فقراء الصحابة حتى أنه يسقط من الجوع كالمُغمى عليه ، ولكنه روى أحاديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم – فحاز العلم وكان له شرف هذه الرواية. وحديث النبي – صلى الله عليه وسلم - واضحٌ في بقاء العلم إذ يقول: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). والحقيقة أن العلم لا يُتعب صاحبه في الحراسة. لأن العلم محله في القلب فلا يحتاج إلى صناديق أو مفاتيح أو بنوك. والعلم يحرس الإنسان من المهالك ، ويحميه من الشرور ، على حين يحرس الإنسان المال ، ويحميه من الضياع! ويُستدل لذلك بحديث معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. وإنما أنا قاسم والله معطٍ ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي الله بأمره). رواه البخاري. وهذا الحديث يشير إلى الطائفة المنصورة في آخر الزمان ، وأن سبب نصرتها العلم بدين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وما استزاد الله نبيه من شيء إلا من العلم فقال له: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً). ومن هنا وجدنا حرص الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – على العلم والتعليم. وأنها بذلت فوق ما تستطيع في سبيل دعم العلم وأهل العلم ، وذللت العسير وسهلت على قوم أساليب التعلم المناهضة للجهل وإرساء العلم! ولا ينسى لها التاريخ إغداقها على المعلمين والأدباء والشعراء والعلماء والفقهاء المال الكثير ، وإجراء بعض الرواتب الشهرية لبعضهم لفقره! ويُضاف إلى ذلك أنها كانت حكيمة وأديبة وشاعرة زمانها! وتحت عنوان: (زبيدة بنت جعفر في طاعة الله) تقول الأستاذة سهير عبد الوهاب ما نصه: (عندما نسمع أو نقرأ عن سيدات الأسر المالكة أوالثرية فلا بد أن يتبادر إلي الأذهان ما ينفقنه من أموال طائلة علي ما يحقق لهن متع الدنيا من اقتناء أفخر الثياب وأندر المجوهرات وأغلي العطور وأدوات التجميل وغيرها. ولكن زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد كانت علي العكس من ذلك تماماً رغم امتلاكها للمال والجاه ، فهي زوجة خليفة وبنت خليفة وأم خليفة. جدّها هو الخليفة المنصور وكان يؤثرها بقلبه ويخصها بحبه ، وسماها زبيدة لما رأي من بضاضتها ونعومتها ، وكانت ذكية ، كريمة نبيلة الخلق وقد ذكر الرواه أنها بذلت الكثير من أموالها في طاعة الله ، فبنت المساجد والمنازل التي ينزل فيها الغرباء ، وحفرت الآبار ليشرب منها الذين يعبرون ويمرون من حولها ، لأن الحجاج كانوا يحملون الماء معهم ، ومن أهم هذه الآبار عين زبيدة التي أصبحت تروي أهل مكة والحجيج ، ويحكون أنها أجرت نهراً بين شعاب مكة من العيون. لقد أنفقت زبيدة في سبيل ذلك جواهرها ومالها ،حتي عظم الأمر علي خازن المال ، وكأنه أراد ان يتوقف ، فقالت له كلمتها الخالدة: اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً ، وأصبحت عين زبيدة ذكري لها وأثراً صالحاً تغني دونه الآثار ، كما أسست مطاعما للفقراء ، وكانت تنفق قرابة المليونين من الدنانير لإطعامهم في الأماكن التي أعدتها لذلك. ولأنها - بحكم وضعها الاجتماعي - كان لها الكثير من الجواري الذين بلغ عددهن حوالي مائة جارية ، فقد قامت بتحفيظهن القرآن عن ظهر قلب ، وجعلت لكل واحدة منهن ورداً تقرؤه كل يوم ، بحيث لا تمضي ساعة إلا وفي بيتها قرآنٌ يتلي ، وكان يسمع في قصرها القرآن كدوي النحل ، كما كان لها مجلس علماء تناقشهم في المسائل العلمية ، مما يدل علي رجاحة عقلها وبعد نظرها ، وكانت تقصد بهذه المناقشات نشر العلم وتقدير أهل الفضل. وخير دليل علي سمو أخلاق زبيدة كلمتها التي ذ كرها التاريخ عندما أوصت علي بن عيسى بن ماهان ، حين خرج من عند ولدها الأمين قائداً للجيش لقتال أخيه المأمون

وهو ابن ضرتها فقالت: (يا علي. إن أميرالمؤمنين وإن كان ولدي فإني علي عبد الله المأمون متعطفة لما يحدث عليه من مكروه (أذي) ، وإنما ولي ملك نافس أخاه في سلطانه. فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ولا تجابهه بالكلام فإنك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد أوغل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادمة ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، إن شتمك فاحتمل منه). هذه وصية لقائد الجند الذي خرج لملاقاة عدو ابنها. فما أجمل ما بها من أدب وخلق ومعرفة أقدار الناس وإنزالهم منازلهم).هـ. لقد كانت حكيمة! وهل تُقارن حِكمتها في حقن دماء المسلمين وتجنيب دولة الإسلام فتنة عارمة عندما دارت رحى الحرب بين ابنها الأمين وأخيه المأمون بأي حكمة أخرى؟! والله لقد كانت حكيمة رزينة! ولما مات أبوها وهي طفلة كفلها عمها المهدي ثالث خلفاء بني العباس ، وعندما بلغت 16 عاماً اختار ابنه هارون الرشيد ليكون زوجاً لها ، والذي أحبها حباً جماً ، ومنحها مكانة رفيعة ، وكان يستشيرها في شؤون الحكم ، مما جعلها ذات نفوذ كبير في الدولة ، وقد كانت ذات عقل راجح ورأي سديد وفصاحة وبلاغة ، وكانت تقرض الشعر ، وتناظر الرجال في قضايا الثقافة والأدب ، إضافة إلى جمالها الفريد ، وتأخرت زبيدة في حملها ، فأشار البعض على هارون بأن يتزوج غيرها ، فاختار جارية له تعمل في مطبخ القصر اسمها "مراجل" ، وعقب الزواج مباشرة حملت الزوجتان معاً ، وولد للرشيد ولدان في سنة واحدة هما محمد الأمين من زبيدة ، وعبد الله المأمون من مراجل ، وكان الأول يميل إلى اللهو والعبث واللعب ، بينما مال الثاني إلى الجد والاستقامة ، فضلاً عن تمتعه بالذكاء والنجابة ، وكان الرشيد يميل إلى إسناد أمر ولاية العهد لابنه المأمون ، ولما شعرت زبيدة بذلك أخذت تضغط عليه بكل ما تستطيع وما تملك من نفوذ وبمساعدة أخيها عيسى وأخي الرشيد في الرضاعة الفضل بن يحيى البرمكي ، حتى استجاب الرشيد لضغطها ، ووافق على إسناد الأمر الى الأمين ومن بعده المأمون ، وبعد موت الرشيد عام 193هـ تولى الأمين الخلافة ، وكانت زبيدة وقتها في الرقة ـ مدينة على الفرات ـ فجمعت كل ما لها هناك من عبيد وجوار وتحف وأموال واتجهت إلى بغداد عاصمة ابنها ، الذي ظل منشغلاً باللهو والعبث ، وأهمل شؤون الدولة ، وسلم كل شيء للفضل بن الربيع والوزير علي بن عيسى بن ماهان ، وحاولت زبيدة إصلاحه بلا جدوى ، وقد دأبت على تيسيير أحوال الدولة واختيار رجال السلطة ، ومع مرور الوقت نقض الأمين عهد والده ، وجعل ولاية العهد لابنه موسى ، وعزل أخاه المأمون ، الأمر الذي أدى إلى حروب بين الأخوين ، انتهت بنصر المأمون وقتل الأمين ، وبعد مقتل الأمين التف حول زبيدة بعض الناس ، وطلبوا منها الخروج للأخذ بثأر ابنها كما فعلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما طالبت بدم عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، ولكنها رفضت خوفاً من حدوث فتنةٍ أخرى في صفوف المسلمين ، وقد أعاد لها المأمون كل ما سلب منها من أموال وجوار وضِياع ، وخصص لها قصراً في بغداد وأغدق عليها الأموال ، وقد وجدت فيه عِوضاً عن ابنها ، وعاشت في ظل عهده معززة مكرمة حتى توفيت عام 216 هجرية عن 71 عاماً. وإذا كان لزبيدة دورٌ سياسيٌ فإن دورها الأكبر كان في الخدمة العامة والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية ، فقد تركت آثاراً في مجالات العمران ، تفوقت بها على الرجال ومن بينها عين زبيدة ، فحين حجت عام 186هـ. وأدركت ما يعانيه أهل مكة في الحصول على ماء الشرب ، فقررت أن توفره لهم فدعت خازن مالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من شتى الانحاء لشق مجرى الماء وقالت له: اعمل ولو كلفت ضربة الفأس ديناراً. ونجحت في شق هذا المجرى من منابع الماء في الجبال وجرى الماء تحت الصخور حتى وصل الى مكة ولا يزال الماء يتدفق من عين زبيدة حتى الآن وقد تكلف هذا العمل مليوناً وسبعمائة ألف دينار ، كما قامت بتجهيز الطريق بين بغداد ومكة والمدينة وتزويده بالآبار والمنازل والمصانع وأنفقت الملايين في

سبيل تحقيق هذا كله ، وقد شمل عطاؤها العلماء والفقهاء والشعراء والفقراء ، وكانت لها مئة جارية يحفظن القرآن ولا عمل لهن إلا قراءة القرآن ، وكان لزبيدة ذوق خاص في زيها قلدتها فيه نساء عصرها وكانت أول من اتخذت القباب من الفضة والأبنوس وأول من اتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر ، واليها ينسب مسجد زبيدة على طريق بغداد - مكة وهو عبارة من قصر تحيط به القباب ويضم بركة وبئرين ماؤهما عذب. فلله درها من حكيمة متصدقة منصفة تقدر المسؤولية والحقوق!).هـ. رحمها الله تعالى.

(الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – وبناء المساجد وحفر الآبار في الصحاري والطرق)

إن الأعمال هي التي تعطي الأعمار قيمتها الحقيقة. فإذا بالعمر القليل قد أنجز أصحابه من الأعمال ما يجعله عمراً مديداً طويلاً! ومن هنا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم من طال عمره وحسن عمله). وكم من الناس أعطاهمُ الله أضعاف ما أعطى الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – وأمد في عمر الواحد منهم حتى جاوز الثمانين! ولكن إذا أرجعنا البصر في مسيرة حياته ما وجدنا إنجازاً يستحق التقدير والإطراء. وحتى إذا أرجعنا البصر في حياته كلها بأسرها كرّتين لانقلب إلينا البصر خاسئاً وهو حسير. وما ذلك إلا لأن هذا الإنسان قد أضاع العمر سُدى ، وإن الله سائله. غير أننا نجد العكس تماماً حيث اغتنمت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – الفرصة. واستغلت العمر واستثمرته خير استثمار. ففي عقدٍ تقريباً من حياتها أنجزت الكثير. وهذا من فضل الله عليها ، أنه - عز وجل- استعملها في الخير. ولا يمكن تصور ذلك إلا إذا نظرنا مدى ما أنجزته – رحمها الله - في حياتها! *أولاً: إنشاء المساجد والمراكز الدينية وتجهيزها: من أهم المشاريع التي تبنتها مشروع إنشاء وتأثيث المساجد والمراكز الدينية داخل دار الإسلام وخارجها ، حيث تعتبر بمثابة المَحضن الإسلامي والبيئة الإسلامية التي يترسخ فيها الانتماء لهذا الدين فوضعتها نصب عينيها ، وتوسعت فيها عاماً بعد عام. ووفرت لها المحفظين والمعلمين ، فتوالت مسيرة الخير والعطاء بهدف تحفيظ القرآن وتربية الناس عليه. وحرصت على تعليم الناشئة كتاب الله تعالى وربطهم بدينهم منذ نعومة أظافرهم رغبة في إنشاء مجتمع متمسكٍ بدين الله الحنيف. وبلغت قيمة تبرعاتها التي خصصت من أجل بناء وصيانة وتأثيث المساجد فقط تسعمائة ألف ألف دينار. *ثانياً:- تجهيز الكتاتيب القرآنية بالمعلمين الأكفاء ورعاية طلاب العلم. وتؤكد الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – دائماً أن طلاب وطالبات الإسلام ممثلين للأمة بوجهها الحضاري ليعودوا إليها مشاعل نور تضيء مسيرة ركبها نحو التقدم والرقي. ولأن العلم ركيزة الحضارة البشرية الأولى واكتسابه من منابعه في أي مكان يساعد الأمة على إرساء حضارتها والحفاظ على إرثها ، رأينا اهتمام الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – بالعلم والتعليم وطلاب العلم ، ويجب أن يعرف أبناؤنا أن عجلة العلم في تطور سريع وأنه لا بد من الأخذ بالأسباب حتى تستطيع الأجيال اكتساب المعرفة والعلوم وتواكب مسيرة الحضارة المعاصرة لزمانها التي تشهد تقدما علمياً وتقنياً وتكنولوجيا مطرداً ، مما يعود بالنفع على الأجيال القادمة في دار الإسلام ، ولا يكون الكفار أسبق إلى التقدم والرقي. إن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – لم تكن تألو جهداً في سبيل خدمة طلب العلم في أي مكان كان وتحت أي مظلة ، حتى يستطيعوا اكتساب العلوم المختلفة ويعودوا لأداء واجبهم نحو وطنهم وأمتهم. وقد تسلحوا بسلاح العلم النافع ليشقوا طريق حياتهم في أي موقع كانوا وباختصاصاتهم المختلفة. وأن الأمانة في نقل العلم النافع إلى دار الإسلام التي عاشوا فيها بحب وأمان واطمئنان لا يكون شيء من ذلك إلا بالعلم والتعليم. إن خلقي الأمانة والتواضع اللذين تمتعت بهما الأميرة زبيدة قد كفلا لها كل هذا العطاء والحب! ومن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين كما يقول الدكتور خالد سعد النجار في محاضرته: (التواضع زينة الأخلاق) • كراهيتهم مشي الناس خلفهم: فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: "ما رُئي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأكل متكئاً ولا يطأ عقبه رجلان" ، وسار قوم خلف عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فنظر إليهم غاضباً ، وقال لهم: ارجعوا ، فإنها فتنة للمتبوع ، وذلة للتابع. • زيارتهم لغيرهم: قدم سفيان الثوري «الرملة» فبعث إليه إبراهيم ابن أدهم أن تعال فحدثنا ، فجاء سفيان فقيل: له يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه. • لا

يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم: قال ابن وهب ، جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فمس فخذي فخذه ، فنحيت نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرّني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني. • عدم أنفتهم من حمل أمتعتهم الخاصة: قال علي - رضي الله عنه - لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وعن الأصبغ بن نباته قال: كأني أنظر إلى عمر - رضي الله عنه - معلقاً لحماً في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدِّرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. • جلوسهم إلى المساكين: عن مسعر قال: مر الحسين بن علي - رضي الله عنه - على مساكين وقد بسطوا كساء وبين أيديهم كسر فقالوا: هلم يا أبا عبد الله ، فحول وَرِكَه وقرأ: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} فأكل معهم ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني ، فقال للرباب - يعني امرأته - أخرجي ما كنت تدخرين. قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. قال القرطبي: أي ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. ولقد كان - صلى الله عليه وسلم - سيد المتواضعين ، وكان يقول: (اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين). أراد به استكانة القلب والتواضع والإخبات ، وأن لا يكون من الجبارين المتكبرين. قال ابن تيمية: فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله ، ليس المراد بالمسكنة عدم المال بل قد يكون الرجل فقيراً من المال وهو جبار ، فالمسكنة خلق في النفس وهو التواضع والخشوع واللين ضد الكبر ، كما قال عيس عليه السلام: {وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً}. ومن ثمرات التواضع أن التواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين ، ودليل محبة رب العالمين عز وجل ، وهو الطريق الذي يوصل إلى مرضاة الله وإلى جنته ، وهو عنوان سعادة العبد في الدنيا والآخرة ، وهو السبيل الذي يقربك من الله تعالى ، ويقربك من الناس ، وهو السبيل للفوز بحفظ الله ورعايته وعنايته ، وهو الطريق لحصول النضر والبركة في المال والعمر ، وهو السبيل للأمن من عذاب الله يوم الفزع الأكبر ، وهو دليل على حسن الخلق وقائد إلى حسن الخاتمة).هـ. وإذا قلنا: في التواضع سبع منافع. فإنما نعني بالعدد المبالغة! وإلا فمنافع التواضع – خصوصاً مع أهل بيت الفرد المسلم - أكثر لمن حاول استقصاءها. فمع صلاح النية يكون أعظم منافع التواضع وأجلها هو: مرضاة الله عز وجل ، واتباع رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ، أضف إلى ذلك: التحلي بخصلة من أعظم خصال حسن الخلق ، وحصول العشرة بالمعروف ، وإدخال السرور على أهل البيت ، ومراغمة الشيطان الذي يسعى إلى إفساد ذات البين – خصوصاً في البيوت بين الزوجين - ، والتعليم العملي بالقدوة لهذه الخصلة الكريمة. والآن لندع القراء يتصفحون بعض آيات المجد إذ يقلبون بعض الصفحات من حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله -! ولكننا ومن خلال استقراء التاريخ قد أدركنا كيف عاشت الأميرة زبيدة متواضعة هينة لينة لمن حولها ، فأحبها الجميع ووقروها وعلموا لها حقها! لقد حازت بالتواضع حب الناس وحب زوجها وحب الكُتاب والمؤرخين المنصفين! لقد كانت أسباب التكبر والخيلاء قائمة حولها وتحملها حملاً على أن تكون مغرورة متكبرة متبطرة متعجرفة ، وحاشاها ، ولكنها تحدت كل هذه العوامل والمؤثرات وعاشت متواضعة محبوبة ، فحازت بالتواضع أضعاف ما يحوزه من هم في مثل مكانها!

(طموح الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في غرس الشجر)

إن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كانت تتوق إلى مجتمع تملأه الخضرة ويحيط به الزرع من كل صوب. ومن هنا كانت لها جهود رصدها المؤرخون وكُتاب التاريخ في هذا الصدد. فشاركت في مشروع التشجير وزرع النخيل والأشجار المثمرة في الداخل والخارج. روى البخاري ومسلم من حديث أنس - رضي الله عنه – أن الرسول - صلى الله عليه وسلم – قال: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ إلا كان له به صدقة). وروى أحمد بإسناد جيد من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه – عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم – (من بني بيتاً في غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء كان له أجراً جارياً ما انتفع به أحد من خلق الله تبارك وتعالى). وخرّج أحمد - رحمه الله - بإسناده أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قال: (من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة). والناس في زمان الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – كانوا يلمسون هذه الآثار الطيبة والتي كان من بينها مشروع التشجير. فآلاف النخيل تنتشر على الطريق الواحد حتى يستظل الناس ويأكلون من ثمارها. إنه مشروع المحافظة على البيئة لتبقى صالحة للحياة أبد الدهر. وعلى حد قول الأستاذة رانيا سنجق بأن المساحات الخضراء صفةٌ من صفات الجِنان ؛ فاللون الأخضر يرمُز إلى السّلام والخير والنعمة وهو يُضفي على النفسِ الشعور بالجمال وحُبَّ الطبيعة والراحة النفسية. فيلجأ من يعاني من ضغوطات الحياة ومن يريد الاستجمام إلى الطبيعة الخضراء! فالله سبحانه وتعالى عندما خَلق الكون أوجد فيه مساحاتٍ خضراء بشكلٍ طبيعيّ. وفي المقابل هناك مساحاتٌ قاحلةٌ أو قليلة الأشجار؛ فجاء دور العقل البشري ليبتكر طرقاً لزيادة عدد الأشجار فظهر في علم الزراعة مصطلح التشجير. والتشجير هي عملية زيادة المساحات الخضراء داخل المدن والمناطق السكنية والمناطق القاحلة والجافة ؛ وذلك عن طريق غرس المئات من الشجيرات الصغيرة والغراس ضمن خطةٍ زراعيةٍ واضحةٍ تتناسب مع المكان جغرافياً ومُناخياً. أمور يجب مراعاتها في عملية التشجير اختيار الأشجار الملائمة للبيئة من حيث درجات الحرارة ، والمُناخ ، ونوعية التربة ، وتوفر مصادر المياه. اختيار الأشجار الّتي تعيش لسنوات طويلة (المُعّمِرَة) والّتي تستطيع أن تقاوم تقلبات المُناخ من حرٍ وبردٍ ، وكذلك الآفات والحشرات ؛ مِثل شجر الكينا ، والسّرو ، والكافور. اختيار الأشجار سريعة النمو والّتي تمُد جذورها عميقاً في التربة ؛ لتَمتص الماء والعناصر الغذائية وفي نفس الوقت تكون لها غصوناً وفروعاً ممتدةً خارجاً لتوفر الظل والزينة. أهمية التشجير تتعدّد المناحي الّتي تظهر فيها أهمية عملية التشجير ونُضِيء عليها فيما يلي: من خلال عملية التمثيل الضوئي يأخذ النبات ثاني أكسيد الكربون ويطلق غاز الأكسجين فيُقلل التلوث في الهواء. من خلال عملية النتح يطلق النبات بخار الماء الّذي يعمل على تلطيف الجو وخفض درجة الحرارة صيفاً. النبات بحاجة دوماً إلى أشعة الشمس لتكوين مادة الكلوروفيل ، فيقلل من سطوع الشمس في المكان المتوافر فيه بكثرة ، كما أنّه يعمل على الحد من الضوضاء والازعاج بقدرته على امتصاص الصوت. في المناطق الرملية الصحراوية يعمل النبات على تثبيت التربة ومنع زحف الرمال إلى مناطق أخرى ، فيقلل من التصحّر وتعرية التربة. النبات يقلّل من شدة الرياح العاتية ويعمل كمصدٍ طبيعي لها ؛ كما أنّه يزيد من خصوبة التربة بشكلٍ طبيعي. النبات والأشجار تُشْعِر الناس بالسّعادة وتُقَلل من الاكتئاب والضغط النفسي. بعض أنواع الأشجار المُعَمّرة الّتي تزرع يكون لها صفةً علاجيةً فتُصنع منها الأدوية مثل شجر الصفصاف. تستعمل الأشجار كحواجزَ طبيعيةٍ بين المنازل أو الشوارع داخل المدن

والقرى بدلاً من استخدام الحواجز الإسمنتية. ولما للتشجير من أهميةً كبيرةً فقد ورد ذكر الشجر في القرآن الكريم ست وعشرين مرة ؛ وقد نهى الرسول الكريم عن قطع الأشجار لما لها من فوائد جمة وحث على زراعة الشجر حتى ولو كان الوقت هو وقت قيام الساعة. إن الأشجار ليس فقط تزين المكان بل تعطي الثمار وتجود بالظل ، وينتفع بها كذلك في إيجاد بيئة نقية الهواء جيدة التربة. وقد قامت جهود مشكورة هنا وهناك من أجل غرس الفسائل الجيدة للأشجار الطيبة بالتنسيق بين الزراع المهرة لإيجاد بيئة أكثر نظافة وحيوية في ذلك العصر العباسي الرشيد. ويعود الفضل لله أولاً وآخراً ، ثم للأميرة زبيدة بنت جعفر في تشجير بغداد والطرق الموصلة لها ، وخاصة طريق الذهاب إلى الحج! إنه مشروع ضحم جداً ومكلف للغاية إذا نحن استحضرنا صعوبة التنفيذ في ذلك العصر ، وإن توافرت الأموال والأيدي العاملة والخبرات! لقد استطاعت بفضل الله عليها أن تشجر شوارع دار السلام (بغداد) والطرق المؤدية إليها! وأيضاً تم لها تشجير طريق الحجاج إلى بيت الله الحرام! وتحولت الدروب القاحلة إلى مظلات مثمرة آمنة حلوة خضرة!

(طموح الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في الإنفاق في أوجه الخير)

لقد ضربت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – المثل الأعلى في الإنفاق في أوجه الخير المتنوعة التي حض الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم - عليها. وبذلت المال في الداخل والخارج ثقة بالله وتوكلاً عليه ، موقنة أن الله عز وجل يُخلف على من بذل في سبيله. يقول الله تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون). ويقول: (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون). ويقول: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور). والحقيقة أن آيات الإنفاق في سبيل الله في القرآن الكريم كثيرة. وهناك كذلك أحاديث منها ما اتفق على روايته البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (ما من يوم يُصبح فيه العِباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً ، ويقول الأخر: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً). وروى البخاري ومسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: (أنفق ، أنفق عليك). وقال: (يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض. فإنه لم يغض ما بيده ، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع). وروى الحاكم في مستدركه من حديث أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (الأخلاء ثلاثة ، فأما خليل فيقول: أنا معك حتى تأتي قبرك وأما خليل فيقول: لك ما أعطيت وما أمسكت فليس لك ، فذلك مالك ، وأما خليل فيقول: أنا معك حيث دخلت وخرجت ، فذلك عملك. فيقول: والله لقد كنت من أهون الثلاثة علي). وإذن فالعمل الصالح الذي منه الإنفاق في سبيل الله لا يفارق المرء أبداً ولا في قبره ولا في آخرته! وروى الإمام مسلم - رحمة الله عليه - من حديث أبي أمامة – رضي الله عنه – أن الرسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (يا ابن آدم ، إن تبذل الفضل خير لك. وإن تمسكه شر لك. ولا تلام على كفاف. وابدأ بمن تعول. واليد العليا خير من اليد السفلى). ولقد أبدأنا القول وأعدناه في طموح الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – إلى الإنفاق وإلى حمل الناس على الإنفاق في سبيل الله - تعالى - وفي أوجه الخير التي قد رغب فيها ديننا الحنيف. ولم تقتصر الجهود على حمل عوام الناس على الإنفاق ، بل قامت الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – بالبدء بقرابتها من الأهل والعشيرة من أجل الإنفاق في سبيل الله ، وانتهاء بعوام الناس. وأقامت مبدأ الإنفاق في سبيل الله تعالى. وخصصت جزءاً كبيراً من مالها للفقراء والمساكين والمحتاجين وطلبة العلم وطالباته. كما لم تكن جهودها مقتصرة على الصعيد الإقليمي ، بل كانت خارج دار الإسلام حتى نفع الله بها في معظم الديار والبلاد. وروى أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: - (ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله جنته: رفق بالضعيف وشفقة على الوالدين وإحسان إلى المملوك). وخرج الطبراني بإسناده عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم –: (إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذ لوها ، فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم). ومن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين كما يقول الدكتور خالد سعد النجار في محاضرته: (التواضع زينة الأخلاق) • كراهيتهم مشي الناس خلفهم: فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: "ما رئي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأكل متكئاً ولا يطأ عقبه رجلان" ، وسار قوم خلف عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فنظر إليهم غاضباً ، وقال لهم: ارجعوا ، فإنها فتنة للمتبوع ، وذلة للتابع. • زيارتهم لغيرهم: قدم سفيان الثوري «الرملة» فبعث إليه إبراهيم ابن أدهم أن تعال فحدثنا ، فجاء سفيان فقيل: له يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن

أنظر كيف تواضعه. • لا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم: قال ابن وهب ، جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فمس فخذي فخذه ، فنحيت نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرّني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني. • عدم أنفتهم من حمل أمتعتهم الخاصة: قال علي - رضي الله عنه - لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وعن الأصبغ بن نباته قال: كأني أنظر إلى عمر - رضي الله عنه - معلقاً لحماً في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. • جلوسهم إلى المساكين: عن مسعر قال: مر الحسين بن علي - رضي الله عنه - على مساكين وقد بسطوا كساء وبين أيديهم كسر فقالوا: هلم يا أبا عبد الله ، فحول وركه وقرأ: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} فأكل معهم ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني ، فقال للرباب - يعني امرأته - أخرجي ما كنت تدخرين. قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. قال القرطبي: أي ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. ولقد كان - صلى الله عليه وسلم - سيد المتواضعين ، وكان يقول: (اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين). أراد به استكانة القلب والتواضع والإخبات ، وأن لا يكون من الجبارين المتكبرين. قال ابن تيمية: فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله ، ليس المراد بالمسكنة عدم المال بل قد يكون الرجل فقيراً من المال وهو جبار ، فالمسكنة خلق في النفس وهو التواضع والخشوع واللين ضد الكبر ، كما قال عيسى عليه السلام: {وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً}. ومن ثمرات التواضع أن التواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين ، ودليل محبة رب العالمين عز وجل ، وهو الطريق الذي يوصل إلى مرضاة الله وإلى جنته ، وهو عنوان سعادة العبد في الدنيا والآخرة ، وهو السبيل الذي يقربك من الله تعالى ، ويقربك من الناس ، وهو السبيل للفوز بحفظ الله ورعايته وعنايته ، وهو الطريق لحصول النضر والبركة في المال والعمر ، وهو السبيل للأمن من عذاب الله يوم الفزع الأكبر ، وهو دليل على حسن الخلق وقائد إلى حسن الخاتمة).هـ. وإذا قلنا: في التواضع سبع منافع. فإنما نعني بالعدد المبالغة! وإلا فمنافع التواضع – خصوصاً مع أهل بيت الفرد المسلم - أكثر لمن حاول استقصاءها. فمع صلاح النية يكون أعظم منافع التواضع وأجلها هو: مرضاة الله عز وجل ، واتباع رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ، أضف إلى ذلك: التحلي بخصلة من أعظم خصال حسن الخلق ، وحصول العشرة بالمعروف ، وإدخال السرور على أهل البيت ، ومراغمة الشيطان الذي يسعى إلى إفساد ذات البين – خصوصاً في البيوت بين الزوجين - ، والتعليم العملي بالقدوة لهذه الخصلة الكريمة. والآن لندع القراء يتصفحون بعض آيات المجد إذ يقلبون بعض الصفحات من حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله -! ولكننا ومن خلال استقراء التاريخ قد أدركنا كيف عاشت الأميرة زبيدة متواضعة هينة لينة لمن حولها ، فأحبها الجميع ووقروها وعلموا لها حقها! لقد حازت بالتواضع حب الناس وحب زوجها وحب الكُتاب والمؤرخين المنصفين! لقد كانت أسباب التكبر والخيلاء قائمة حولها وتحملها حملاً على أن تكون مغرورة متكبرة متعجرفة وحاشاها ، ولكنها تحدت كل هذه العوامل والمؤثرات وعاشت متواضعة محبوبة ، فحازت بالتواضع أضعاف ما يحوزه من هم في مثل مكانها! ونحسب الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – داخلة في هذا الخصوص من النبي – صلى الله عليه وسلم. والله حسيبها ووكيلها!

(طموح الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في إطعام الطعام وسقي الماء)

إن إطعام الطعام وإرسال المواد الغذائية للفقراء في الداخل والخارج أمرٌ عُرفتْ به الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – الله نسأل أن يطعمها من طعام الجنة ويسقيها من شرابها. يقول تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً). وروى ابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً). وخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أطعم مؤمناً حتى يشبعه من سغب أدخله الله باباً من أبواب الجنة لا يدخله إلا من كان مثله). وخرج الطبراني بإسناده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قال :(إن الله عز وجل ليدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: الآمر به والزوجة المصلحة له والخادم الذي يناول المسكين). وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري: (أيما مؤمن أطعم مؤمناً على عُرْي كساه الله يوم القيامة من حُلل الجنة). وخرج أبو الشيخ بإسناده عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله جنته: رفقٌ بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، وإحسانٌ إلى المملوك). وثلاث من كن فيه أظله الله عز وجل تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله: الوضوء على المكاره. والمشي إلى المساجد في الظلام وإطعام الجائع). وروى مسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم – قال: (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما عملت أنك لو عُدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما عملت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما عملت أنك لوأطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟). وخرج أبو الشيخ بإسناده من حديث عمر – رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أحب الأعمال إلى الله – عز وجل – سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تطرد عنه جوعاً أو تقضي عنه دَيْناً). وخرج أبو الشيخ بإسناده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يباهي ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده). وروى الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (من أطعم أخاه حتى يشبعه ، وسقاه من الماء حتى يرويه باعده الله من النار سبع خنادق مابين كل خندقين مسيرة خمسين عام). ونحسب الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – والله حسيبها ، ولا نزكي على الله أحداً ، أنها من أهل هذه المَكْرُمات في إطعام الطعام وبذله لكل من يحتاج إليه. إن مكرماتها في إطعام الطعام وسقي الماء قد شملت حدود الوطن العربي وخارجه. تقبل الله منها. وتلك طموحات أخرى في بذل الماء نقياً لمن يتوق إليه من الفقراء والمساكين الذين حيل بينهم وبين الماء. ونسأل الله أن لا يضيع أجر الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في بذل الماء وسقي الناس وحفر الآبار هنا وهناك. عن أنس – رضي الله عنه – أنه أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله إن أمي توفيت ولم توص أينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: نعم وعليك بالماء. رواه الطبراني. وأيضاً خرج البيهقي في الشعب بإسناده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن

السبيل بناه ، أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته). وروى البزار من حديث أنس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (سبعٌ تجري للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علماً ، أو كرى نهراً (أي حفر نهراً) أو بئراً ، أو غرس نخلاً ، أو بني مسجداً ، أو ورث مصحفاً ، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته). وسأل رجل عبد الله بن المبارك عن قرحة خرجتْ في ركبته منذ سبع سنين وقد عالجها أنواع العلاج وسأل الأطباء فلم ينتفع بشي من ذلك. فقال له: اذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس فيه من الماء ، فاحفر هناك بئراً فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم. ففعل الرجل فبرأ. وأعتقد باستقراء التاريخ والتراجم والسير والأخبار ، أن الأميرة زبيدة قد خصها الله تعالى بالإنفاق في كل هذه الأوجه الآنفة الذكر! فما استثنت منها شيئاً! رحمها الله تعالى رحمة واسعة.

(الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – تكسو الفقراء في الأعياد والمناسبات)

إننا إذ نسجل ذلك عنها لندعو الآخرين أن يصنعوا صنيعها. لأن الفقراء في زماننا قد ازدادوا. وقلّ من يُعينهم ويرفعُ عن كاهلهم أعباء الحياة. خرج الطبراني عن عمر- رضي الله عنه - مرفوعاً أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن كسوت عورته أو أشبعت جوعه أو قضيت له حاجته). وأيضاً أخرج أبو داود من حديث أبي سعيد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُري كساه الله من خضر الجنة. وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مسلم سقى مسلماً سقاه الله من الرحيق المختوم). وما أجمل أن يستر الإنسان فقيراً عجز عن شراء الثياب. إن فقراء كثيرين قد لسعتهم سياط الحاجة والعوز فعجزوا عن شراء الثياب ، فألجأتهم الحاجة مجهودين إلى أيدي الميسورين من أهل الإيمان والإسلام. إن هذا البذل يدل على ما تتمتع به الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – من قلب رحيم يشعر بالفقراء ويعيش معاناتهم ويترجم إلى عمل يقود إلى الإيثار والعطاء والبذل والتضحية. ولقد أصاب أحد الشعراء إذ قال مادحاً الكرم وأهله:

رأيـــت النـــاسَ خِـــلانَ الكـــريم ولـــم أر بخـــيلاً لـــه - فـــي العـــالمين - خليـــلُ

وأحسن الشاعر إيلياء أبو ماضي إذ جعل خاتمة (تينته الحمقاء) قوله:

مـــن لـــيس يســـخو بمـــا تســـخو الحيـــاة بـــه فإنـــه أحمـــقٌ ، بالحـــرص ينتحـــرُ

ولقد أجاد شاعر آخر عندما صور لنا كيف يُجاد عليه ثم يجود على غيره:

يجـــود علينـــا الخيـــرون بمـــالهم ونحـــن - بمـــال الخيِّريـــن - نجـــودُ

وأصاب شاعر آخر عين الحقيقة عندما صور لنا الكرام الذين يجودون بالعطاء بمجرد الإحساس والشعور والنظرة الفاحصة فقط :

ومـــا الجـــود مـــن يعطـــي إذا مـــا ســـألته ولكـــن مـــن يعطـــي بغيـــر ســـؤالِ

ونحسب الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – أهلاً للجود والكرم والعطاء. بارك الله فيها وضاعف لها الأجر والثواب الجميل! ولم تكن وحدها كذلك ، بل كان زوجها هارون الرشيد أسخى منها وأكرم! فلقد قال الذهبي في ترجمته للرشيد ضمن كتابه سير أعلام النبلاء: وكان من أنبل الخلفاء وأكرم الأمراء وأحشم الملوك ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي وأمه أم ولد اسمها خيزران. وكان أبيض طويلاً جميلاً وسيماً إلى السمن ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة وله نظر جيد في الأدب والفقه قد وخطه الشيب أغزاه أبوه بلاد الروم وهو حدث في خلافته. كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات ويتصدق بألف ، وكان يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام ، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه لا سيما إذا وُعِظ وكان يحب المديح ويجيز الشعراء ويقول الشعر. قال أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبي

صلى الله عليه وسلم بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي ، ورويت له حديثه: وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيى ثم أقتل ، فبكى حتى انتحب. حجّ غير مرة وله فتوحات ومواقف مشهودة ، ومنها فتح مدينة هرقلة ، ومات غازياً بخراسان! رحمه الله رحمة واسعة! وجاء في (الويكيبيديا) - وقد تتبعت الأخبار ووجدتها إلى حدٍ ما صحيحة - جاء فيها عن زبيدة زوج هارون ما نصه: (هي أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور (766-831م) (149-216هـ) ، ويقال أن أسمها أمة العزيز ، أما سبب تسميتها باسم زبيدة فقد كان جدها المنصور يُرقصها في طفولتها ، ويقول لها زبيدة أنت زبيدة ، فغلب عليها ذلك الاسم وأصبحت تعرف باسم زبيدة ، وهي زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وحفيدة مؤسس الدولة العباسية الخليفة أبو جعفر المنصور من خلال ابنة جعفر. وكُنيتها زبيدة نظرًا لشدة بياضها ، وتعتبر من أهم نساء الدولة العباسية وأكثرهم شهرة ، مما كان لها من دور في دور الخلافة فهي أم الخليفة الأمين الذي قتل على يد أخيه المأمون بعد نزاع على السلطة. من أهم أعمالها بناء أحواض للسقاية للحجاج في دربهم من بغداد إلى مكة فيما عرف بدرب زبيدة ، وعين زبيدة في مكة المكرمة تكريمًا لها. بعد أن امتدت الدولة الإسلامية في العصر الأموي إلى إسبانيا غرباً والصين شرقاً ، جاء العصر العباسي ليقطف ثمار تلك العمليات العسكرية الكبرى التي نشرت لواء الدين الجديد فوق أصقاع لم يكن أحد يحلم بالوصول إليها. في تلك الأيام ، وقف الخليفة الشهير هارون الرشيد ، خامس خلفاء بني العباس ، على شرفة قصره في بغداد ينظر إلى سحابة عابرة ، متوقعاً أن تجود بالغيث. وعندما عبرت دون أن تمطر ، خاطبها بقوله: أمطري حيث شئت ، فإن خراجك سيعود إلي. ولم يكن الخليفة هارون الرشيد إنساناً عادياً. فقد اشتهر بغزواته للروم وبلوغه أبواب القسطنطينية ، حتى وهو حاكم للمقاطعات الغربية ، وقبل أن يعينه أبوه المهدي ولياً لعهده. وإذا كان المثل يقول: وراء كل رجل عظيم امرأة ، فلقد كان وراء هارون امرأتان: أمه الخيزران ، تلك السيدة المَهيبة التي يعتقد كثير من المؤرخين أنها هي التي كانت تسير أمور الدولة إبان حكم زوجها المهدي ، والثانية زوجته أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور أم الخليفة محمد الأمين ، وهي التي لقبها جدها أبو جعفر المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها وبياض بشرتها. وزبيدة – وكنيتها أم جعفر - ابنة عم هارون وابنة خالته في الوقت نفسه ، فأمها هي سلسل شقيقة الخيزران بنت عطاء. تزوّج الاثنان في عهد أبو عبد الله المهدي والد هارون الرشيد سنة 165 هـ. وكانت زبيدة حسبما تنقل لنا كتب التاريخ سيدة بارعة الجمال ، فاتنة الحديث ، رزينة ذات عقل ورأي وفصاحة وبلاغة ، تنظِم الشعر وتناظر الرجال في شتى نواحي الثقافة ، إلى جانب جمالها وسمو خلقها. وقد أحبّها الرشيد حبًا جمًا ومنحها مكانة رفيعة ونفوذًا كبيراً ، بحيث كانت على الدوام السيدة الأولى بين نسائه. كما عُرف عنها أنها كانت تشير على زوجها في كثير من المناسبات والأحداث بالآراء الصائبة ، وأنها كانت في حقيقة الأمر تمسك بيديها زمام الأمور أثناء غياب زوجها في غزواته الكثيرة. وقد خلفت وراءها آثاراً عديدة في مجالات متنوعة ما زالت تحمل اسمها حتى الآن. وقد عرف عن زبيدة اهتمامها الكبير بالآداب والعلوم ، فبذلت الكثير حتى حشدت في عاصمة بغداد مئات الأدباء والشعراء والعلماء ووفرت لهم كل وسائل الإنتاج والبحث. وكان ممن اشتهر منهم في مجال الشعر العباس بن الأحنف ، أبو نواس ، مسلم بن الوليد ، أبو العتاهية ، الحسين بن الضحاك ، والراوية خلف الأحمر ، وشيخ أدب النثر الجاحظ وعلماء اللغة الخليل بن أحمد وسيبويه والأخفش الأكبر وأبو عمرو بن العلاء ، ومن علماء الدين الإمام أبو حنيفة والإمام الأوزاعي والإمام مالك بن أنس ، إضافة إلى الكثيرين من الأطباء والمجددين في شتى فروع العلم. وقد بذلت في سبيل ذلك الأموال الطائلة ، حتى يمكن القول أنها فتحت أبواب خزائنها لتحويل بغداد إلى قبلة ومستقر للعلماء من الزوايا

الأربع للدولة. ومن الأطباء الذين كانت تشملهم برعايتها الطبيب جبريل الذي منحته راتباً شهرياً ، قدره خمسين ألف درهم. وكانت زبيدة شريكة حقيقية لهارون الرشيد ، لكنها كانت تراعي على الدوام إبراز الرأي الصواب على أنه رأي الخليفة ، فكسبت بذلك احترام وثقة الحاشية. ومن الأحداث ذات المغزى الذي يدل على حسن التصرف أن الرشيد وأم جعفر اختلفا وهما يتداعبان في الفالوذج واللوزينج ، أيهما أطيب؟ فحضر أبو يوسف القاضي ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين ، لا يُقضى على غائب ، فأمر بإحضار الصنفين ، فأكل القاضي حتى اكتفى ، فقال له الرشيد: احكم ، قال: قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين ، فضحك الرشيد ، وأمر له بألف دينار ، فبلغ ذلك زبيدة ، فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً ، وذلك كي تبقي مكرمة زوجها ، وهو الخليفة ، فوق مكرمتها. كما أنها كانت رفيقة الخليفة في معظم رحلاته ، سواء أن كانت لغزو الروم أو للدفاع عن حدود الدولة ضد الغزاة أم للحج. ويذكر المؤرخون أن هارون كان يحج في معظم السنوات ، قاطعاً المسافة بين بغداد ومكة المكرمة سيراً على الأقدام. وذكرها الخطيب في تاريخ بغداد وأثنى عليها وقال: كانت معروفة بالخير والفضل على أهل العلم، والبر بالفقراء والمساكين ، ولها آثار كثيرة في طريق مكة من مصانع حفرتها وبرك أحدثتها وكذلك بمكة والمدينة. كما تحدث "ابن جيد" عن هذه المرافق التي شيدتها زُبيدة حتى أصلحت الطريق من بغداد إلى مكة ، بما أقامته من منافع تخدم الحجيج والمسافرين وتوفر لهم الماء والطعام والسكن ، حتى أحيت هذا الطريق المُوحش ، ولولا ذلك لكانت هذه الطريق من أوحش المسالك على الإطلاق. وما يزال جزء من الطريق بين الكوفة ومكة المكرمة ، وهو الذي تولت إصلاحه ، يعرف حتى اليوم باسم "طريق زبيدة". ويشاء القدر أن تختلف زُبيدة مع زوجها الخليفة هارون الرشيد على من يتولى الخلافة من بعده. فهي أم أولاً وأخيراً ، وابنها محمد الأمين هو الأصلح من وجهة نظرها لتولي الخلافة ، رغم أنه كان أصغر من أخيه المأمون بستة أشهر. فالأمين هاشمي الأب والأم ، وهو ما لم يجتمع لغيره إلا في عبد الله المحض من أبناء الحسن بن علي بن ابي طالب وجده الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه -. أما المأمون ، فأمه جارية من جواري القصر تدعى مراجل. وكان هارون الرشيد يميل لتعيين المأمون ولياً للعهد ، لعلمه برجاحة عقله وأدبه والتزامه بأدب السلاطين والخلفاء ، على عكس الأمين الذي كان الطيش يغلب عليه. وقد كان من النتائج المباشرة للصراع من أجل تعيين ولي للعهد وقوع نكبة البرامكة. وهؤلاء كانوا وزراء العباسيين منذ أوائل أيام قيام دولتهم. وكان كبيرهم ، في عهد الرشيد ، جعفر بن يحيى البرمكي ، شقيق الخليفة بالرضاعة ، حيث إن الخيزران ، أم هارون أرضعت جعفراً الذي يكبر ابنها بأيام معدودات. وكان سبب المذبحة أن جعفر وآل برمك أيدوا رأي هارون بتعيين ابنه المأمون ولياً للعهد. ولربما كان دافعهم الأول أن أم المأمون كانت جارية فارسية ، وهم أيضاً من سُراة العجم. وعندما علمت زبيدة بموقفهم ، أبلغت زوجها أنهم يتآمرون عليه للقضاء على دولته والاستقلال بفارس ، ويبدو أيضاً أنها كانت تمتلك بعض الأدلة التي تؤكد تورطهم. وهكذا أعمل هارون في آل برمك السيف ، فلم ينجُ منهم أحداً ، حتى جعفر. ولعل ما حدث يؤكد مدى الحظوة والنفوذ الذين كانت زبيدة تحظى بهما لدى زوجها. وعندما قالت للخليفة: ابني الأمين خير من ابنك المأمون سخاء قلب وشجاعة نفس (علماً بأنها هي التي ربت المأمون لأن أمه ماتت بحمى النفاس بعد ثلاثة أيام من ولادته) ، رد عليها بقوله: إن ابنك يزيّنه في عينيك ما يُزين الولد في عين الأبوين ، فاتقي الله ، فوالله إن ابنك لأحب إليّ ، إلا أنها الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً ، وبها مستحقًا. ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأنام ، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم ، وننقلب إلى الله بإثمهم. واستدعى ولديه واحدًا تلو الآخر ، ودار حوار أسفر عن خطيئة ثانية كان لها أثر كبير في مستقبل الدولة فيما بعد ، ألا وهي تعيين

المأمون ولياً لعهد الأمين – الذي هو بدوره ولي عهد – ومن ثم تعيين ابن ثالث ، هو القاسم ، ولياً لعهد المأمون. وقد أثبت التاريخ فشل الأمين في الحكم منذ أول يوم اعتلى فيه سدة الخلافة ، ودارت الدوائر عليه بعد أن أساء لطوائف كبيرة من الأتباع ولعدد من كبار القادة ، فانقلب الجميع ضده ، وكانت نهايته مأساوية ، إذ قتل في معركة دارت بين أنصار الأخوين ، حيث وقفت القبائل العربية يومها مع الأمين بينما كان معظم أنصار المأمون من العجم. وقد برزت رجاحة عقلها ورزانتها مرة ثانية ، لما جاءها نبأ مقتل ولدها ، عندما وأدت مساعي أهل الفتنة لتحريضها على الثأر من المأمون ، الذي كان بمكان ولدها وقد أرسل إليها يبرئ نفسه بعد أن أرسلت إليه أبياتاً من الشعر أبكته. وفي رواية الخطيب البغدادي: إن زُبيدة أرسلت للمأمون قائلة: "أهنئك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت قد فقدتُ ابنًا خليفة فقد عُوضت ابنًا خليفة لم ألده ، وأسأل الله أجرًا على ما أخذ ، وإمتاعًا بما عوَّض". وأخذ المأمون بعد ذلك في إكرامها ومودتها ورضاها. كانت زبيدة بنت جعفر تقف وراء ملحمة المُلك وبيت الزوجية وتقديم النموذج ، وعندما يرد ذكرها في التاريخ تنتصب الخلافة العباسية في طورها الأكثر رقياً ورفعة. ويقول بعض النقاد من الأدباء أن كتاب ألف ليلة وليلة إنما بني على أساس من نمط حياة الرشيد وزبيدة ، ويحاولون العثور على أوجه التشابه بين زبيدة وعدد من شخصيات الرواية. لكن ذلك يجانب الواقع. فهذه المرأة التي اشتهرت بلقب "السيدة زبيدة" والتي كان الجميع ، على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم يكنون لها الحب لما تميزت به من طيبة قلب وتواضع ، حفرت بأفعالها اسمها في سجل الخالدين ، دونما الحاجة لأن تكون بطلة قصة في رواية).هـ. (وإن كنتُ أميل إلى أن هذا الكلام لا يوثق به ، لأن الأصفهاني صاحب الكتاب الهجيني المسف – ألف ليلة وليلة – لا يسعفه التوثيق والتصديق لحظة واحدة)! والحقيقة أنه ليس شيئ في الدنيا بعد الإيمان بالله أحلي من حب الناس لعبد من عباد الله أو لأمة من إمائه. الحب تلك العملة التي غابت وضاعت في الموازين الأرضية الطائشة التي تغزو العالم اليوم: يطبب الطبيب مريضه ويصف له الدواء الذي يداوي علته ويتابعه وينصح له. ونسأل: أين الحب؟ أكان ذلك منه بحب أم لا؟ هل سأل ذلك الطبيب عن حبه لمريضه وحرصه عليه؟ وأيضاً يقوم المعلم بالتدريس لطلابه ، ويشرح لهم الدروس ، ويكشف لهم خبايا العلم ويهديهم إلى الفهم والرشد ، ويصحح لهم الواجبات والسلوكيات والتصرفات ، ويمتحنهم ليقيس مدى ما استفادوه طِيلة العام ، ويقوّم المعوج منهم ، ويكافئ المتفوق ، ويعتب على المقصر المهمل أو يعاقبه! يفعل كل ذلك وغيره الكثير. فهل كان ذلك منه بحب؟ وكذلك الموظف يقوم بعمله العام أو الحكومي أو الخاص ، فيقدم خدماته لكل المراجعين ، ويجتهد في أن يوصل الحقوق إلى أصحابها ، ويخفف المعاناة ببذله وجوده ، ويتحمل المشاق العاتية. فهل كان ذلك كله من الناس بحب وحرص على من يبذلون له ويتفضلون عليه؟ ويزرع الزارعون ويغرس الغارسون ويصنع الصانعون ويصطاد الصيادون ويحترف أصحاب الحرف ويمتهن أصحاب المهن. فهل كان ذلك كله منهم بحب لمن يقدمون له خدماتهم؟ والجواب: إن قليلاً من الناس اليوم يحرصون على هذا (الحب) تلك العملة التي عفا عليها الزمن وذهب رصيدها فصارت بدون رصيد؟ والحقيقة أن الأميرة زبيدة بنت جعفر – رحمة الله عليها - ومن فضل الله عليها أنها حرصت على حب الناس لها وذلك بأن أحبت الناس أولاً. وقال غير واحد من المؤرخين وكُتاب السير: إن أسعد لحظات حياتها هي اللحظات التي كانت تقيل فيها عثرة لأحد ، أو تقدم فيها جميلاً لأحد ، أو تصنع فيها معروفا لأحد ، أو تغيث ملهوفا ، أو تشفع شفاعة حسنة فتعيد مفصولاً من عمله إلى عمله ، أو توصل حقاً لمستحقه وقد عجز عن الوصول إليه! فجزاها الله خيراً على كل ما بذلتْ ولعل هذا من عاجل بُشرى أهل الإيمان. فما أن تذكر زبيدة أمام من يعرفها أو يسمع عنها إلا ويُثني عليها خيراً. روى الأئمة

مسلم وبخاري ومالك والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام ، فقال: إني أحب فلاناً ، فأحبه! قال: فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه! فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض). إن حب الناس لا يأتي من فراغ. ذلك أن الناس تعرف جيداً من يعمل لمصلحتهم ممن يتجاهلهم ويتكبر عليهم ويهضم حقوقهم. وقد أشار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نوعين من الناس كما رأينا (نوع يكتب له القبول في الأرض ، بحب الناس له الذي هو سبب حب الله وحب جبريل وحب أهل السماء من الملائكة. ونوع أخر على النقيض من ذلك أبغضه الناس ، فأبغضه الله وأبغضه جبريل وأبغضه أهل السماء. فالنوع الأول له القبول في الأرض. والثاني له البغضاء). إن تقرب الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – إلى الله بحب الفقراء والمساكين وبذل الخير لهم وتسهيل مصالحهم وقضاء حوائجهم يعد منقبة عظيمة لها. وقد أعانها الله فاتسع وقتها وجهدها ومالها لكل هذه المقدرات. وكأني بها والله حسيبها ووكيلها قد دخلت في أهل القرب من الله. ذلك أن الخلق عيال الله ، ومعنى عيال هنا أنهم عالة على الله. وأيما عبد من عباد الله وأيما أمة من إماء الله أحسن أو أحسنت إلى الخلق الذين هم عيال الله فإن الله يعينه ويوفقه. أو يعينها ويوفقها. روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل قال: من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشي أحب إلي مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطيته ، ولئن استعاذ ني لأعيذنه ، وما ترددت عن شي أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته). ومن هذا المنطلق كان تقرب الأميرة زبيدة بهذه القربات والطاعات الله عز وجل. وإننا إذ نسجل عنها هذه لله وهي لله ثم للتاريخ. ونسأل الله أن لا يجعل أجر الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – مدح الناس لها وثناءهم عليها فقط. بل يأجرها على ذلك كله بالجنة ويسعدها بالنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم. ونطلب إلى كُتاب التاريخ والمؤرخين والمحققين أن يدققوا الأخبار عنها وأن يقدموها للناس تقديماً حقاً! والجدير بالذكر أن الأميرة زبيدة اعتادت على خص الفقراء والمساكين بالزيارة والتوسعة يوم العيد وأيام المناسبات مدخلة السرور والفرحة عليهم ، وخصهم بالهدايا والعطايا! وتحت عنوان: (صور رائعة في العيد) يقول الأستاذ عادل بن عبد العزيز المحلاوي ما نصه: (إن العيد يحمل مشاعر فياضة ، وأحاسيس متدفقة بالفرح والسرور ، قد طفح كيل الود فيها ، وامتلأ القلب منها سروراً. فالصورة الأولى: التواصل والتزاور: ولعل هذه الصور هي أظهر الصور وأبينها ، وهي في المجتمعات الصغيرة أبين وأظهر من المدن الكبيرة ، نظراً لتعارفهم وصلة الرحم القوية بينهم ، ومع ذا فحق على أهل المدن إحيائها ، والعيد أحسن مناسبة لها. كم هو جميل ذلك التواصل ، وتلكم الاجتماعات الأسرية ، واللقاءات الأخوية ،التي تعزز اليقين بصفاء النفوس وطهارتها ، وأن الذي يعكر صفو ودها إنما هو نزغ من الشيطان. كم تفرح النفس وتبتهج القلوب الناصحة لإخوانها ، وهي ترى الأيادي قد تصافحت ، والأجساد قد تلاقت ، وتبادل المحبون الابتسامات. دخل عليّ في هذا العيد كثير من الإخوة وكل واحد منهم يشعر بالفرح هذا اليوم ، وتُرى علامات البِشر على محياه ، لأنه قد رأى التلاقي بين المسلمين ، والتواد بينهم. ومن أجمل ما يحصل في العيد التواصل بعد القطيعة والصلح بعد الخصام ، فكم كان العيد سبباً في إزالة العداوة ، ومحو الضغائن من النفوس ، لقد غير العيد نفوس

المتخاصمين ، فجعل مكان القطيعة صلة ، ومكان الجفاء مودة ، وتبدلت الضغائن إلى محبة. ولعلي أرسل هنا رسائل لمن لا يزالون متقاطعين فأخاطبهم مخاطبة المحب لهم وأن لا يكونوا أشقى الناس في عيدكم ببعدهم عن أحبابكم ، ومقاطعتكم لأرحامكم ، فاليوم اليوم التجاوز عن الأخطاء ، اليوم يوم التسامح والإخاء! اليوم يوم التلاقي والصفاء! ورسالة أخرى لمن يتاجرون في الإصلاح بين الناس ، فأقول لهم: العيد فرصة لكم جميعاً ، في إزالة العداوات بين الناس ، وتقريب القلوب ، والفوز بفضل هذه الطاعات ، فقد قال تعالى: (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً). وقال عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداء: "- ألا أدلك على خير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين" البحر الزخار وهو حديث صحيح. والصورة الثانية: الإحسان والرحمة: في العيد يُحسن صاحب القلب الكبير لأبناء المسلمين من الفقراء ، والأيتام ، يرى من حقهم عليه وقد أدخل الفرح والسرور على أبنائه ، أن يُدخل السرور عليهم ، فلا أعظم عملاً ولا أكثر ثواباً في مثل هذا اليوم من إدخال السرور عليهم ، والتسبب في السعادة لهم ، وفي الحديث "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ؛ وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً.". السلسلة الصحيحة. والصورة الثالثة: إتحاف الأطفال بالعطايا والهدايا! والصورة الرابعة: التوسعة على الأهل والأبناء: فيحصل بالعيد ما لا يحصل في غيره من الأيام من الفسحة للأهل والأبناء - في حدود ما شرع الله تعالى – من التنزه ، والخروج من جو المنازل إلى الأماكن المنضبطة التي يتفسح فيها الأهل والأبناء ، وفي هذا تذكير للآباء والأمهات بوجوب الالتفات لهذه المعاني العظيمة وأن أبنائهم في حاجة ماسة للتوسعة المنضبطة بضوابط الشرع ، خصوصاً في زماننا هذا الذي تناوشت عليهم فيه قوى الباطل تجذبهم لباطلهم ، فلا بد لهم من مباحات تعوضهم ما يفقدونه ، وتشغل وقتهم فيما يصدهم عن هذا الباطل. والصورة الخامسة: ظهور حق الجار! والصورة السادسة: بقاء أثر الطاعات في نفوس الناس!).هـ. ولقد حرصت الأميرة زبيدة على خص الفقراء بالكسوة والطعام في العيد! ولم تكن تبخل بمالها عنهم! بل عملت على إسعادهم وإدخال السرور عليهم في أيام الأعياد!

الأميرة زبيدة بنت جعفر طموح يتحدى الواقع

(نعم إن رحلة الطموح والأمنيات والآمال في حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله تعالى - لا تكاد تصل إلى نهاية. بل كانت حياتها جهداً متواصلاً والله المستعان على كل حال. الله نسأل أن يرحمها رحمة واسعة ويتقبل عنها صالح عملها ويبارك سعيها ويجعلها من سيدات الآخرة كما كانت من سيدات الدنيا! فلقد كانت ذخراً للإسلام والمسلمين. أنشدتُ هذه القصيدة في وصف رحلة العطاء والطموح في حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر زوج هارون الرشيد – رحمهما الله تعالى – عرفاناً بجميلها واعترافاً بفضلها ، فلقد كانت من ربات الفضل والعطاء والمكرمات. ووجدتِ القصيدة طريقها إلى (ديوان السليمانيات) في مجلده الخامس اعتزازاً بالأميرة العظيمة. ونسجّلها في هذه الديوان عنها لتكون بمثابة التحية لها ، وإن ديوان أي شاعر مسلم ليشرف بأن تكون فيه قصيدة عن زبيدة صاحبة الهمة العالية والمقام الرفيع. جاعلين هذه القصيدة بمقدمتها الطويلة تلك ترجمة لحياتها وعطائها. ولقد تناولنا فيها مسيرة الأميرة زبيدة بنت جعفر ، واقتطفنا بعض الزهور من بستان حياتها اليانع لنحمل الجميع على الاقتداء بها في بذلها للخير وإثرائها للعمل الخيري والتطوعي في الداخل والخارج ، والتأسي بها في رعاية الأيتام وكفالتهم والإحسان إليهم ابتغاء مرضاة الله – عز وجل – وحده. وتناولنا كذلك جانباً كبيراً من فلسفة الأميرة زبيدة بنت جعفر في العطاء ، حيث إنها لا تتعمد إراقة ماء وجه السائل والمسكين وإذلاله قبل أن تعطيه ، بل تبادر إلى العطاء قبل السؤال في أغلب الأحوال كما عرف عنها وأثر من خلال سيرتها في كتب التراجم والتاريخ. ومن هنا كانت أسلوبية العطاء أجمل من العطاء الجزيل ذاته. يقول الفرنسيون في مثلهم: (طريقة العطاء هي أفضل مما نعطي). وصدق الأديب العربي جبران حيث يقول: (جميل منك أن تعطي من يسألك ما هو بحاجة إليه ، ولكن الأجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته). ولجبران أيضاً مقولة ظريفة تبين لنا أن أصحاب العطاء لم يتفضلوا على غيرهم إلا ليترجموا أخلاقهم السامية إلى واقع ، يقول جبران: (ليس اللؤلؤ سوى رأي البحر في الصدف وليس الماس سوى رأي الزمن في الفحم). وهكذا أصحاب القلوب الرحيمة يعطون ليترجموا رحمة قلوبهم إلى سلوك عملي تطبيقي. وهكذا رأينا الأميرة زبيدة بنت جعفر تجعل عطاءها ترجمة لرقة مشاعرها ورحمة قلبها وشفقتها على الأيتام والأرامل والفقراء والمحتاجين والمنكوبين في بلاد الإسلام وخارجها. إن هذه المسيرة مشوار حياة محفوف بالمخاطر عبر المجهودات الشاقة في بلاد الدنيا ومُكلل إن شاء الله تعالى بالأجر الجزيل عند الله تعالى. ما بين العمل المتواصل في الداخل ، في بغداد والعمل في الخارج شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في بلاد الإسلام. ومن هنا كانت القصيدة محطات وقفناها عبر مسيرة الأميرة زبيدة بنت جعفر لنستروح أرجَ العمل الخيري والتطوعي بكل صدق وإخلاص. تقول عنها الكاتبة سارة علام ما نصه: (بين صفحات التاريخ المطوية أكثر من وجه لـ "زبيدة" التي نعرفها ، وجوه نحرص على أن نروي سيرتها ونبرز مناقبها ومآثرها التي أضافت إلى هذا الاسم على مر التاريخ بهاءً وجلالاً. ولعل درة تاجهم "زبيدة" بنت جعفر بن المنصور (149هـ - 216هـ) ، زوجة الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد (149هـ - 193هـ) رائدة العمل الخيري في التاريخ الإسلامي قبل عصور الروتاري والليونز. حيث ارتحلت في عام 186هـ لأداء مناسك الحج ، فواجهت الكثير من المشاق رغم موكبها العظيم ، وهودجها الموشى ، وناقتها الوضحاء ، فعزمت لدى عودتها على إعادة الحياة إلى طريق الحج الوعر الذي يصل بين بغداد ومكة ، الذي سمي منذ حينها "درب زبيدة". أمرت بنت جعفر بتمهيد طريق الحج بطول 870 ميلاً ، وشيدت على جانبيه المرافق والمنافع

والآبار التي ظلت تخدم الحجيج لأكثر من 1200 عام ، والتي ما تزال آثارها شاخصة بمنطقة حائل على الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية ، كما لقبت بـ "ساقية الحجيج" حيث هالها ما يكابده زوار بيت الله الحرام من مشقة العطش ، فأطلقت مشروع ري عملاق شمل حفر عدد من القنوات لنقل المياه من منابع سقوط الأمطار إلى مكة بعمق 40 متراً تحت الأرض ، ولمسافة امتدت لنحو 10 أميال ، لتصبح قنوات "عين زبيدة" الخالدة حتى الآن بمعمارها الهندسي الفريد ، ولم تثنها دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروع عن تنفيذه ـ بلغت تكلفة المشروع نحو 1.7 مليون دينار ـ بل أصرت وهي تضع حجر الأساس على اصدار توجيه واضح لمهندس المشروع: اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً).هـ. ومنذ شرعت في الكتابة عن الأميرة العباسية زبيدة بنت جعفر ـ رحمها الله – وأنا أحاول جاهداً البعد عن المدح والإطراء! ولو كان ذلك ديدني لاخترتُ أميرة حية تبذل نوالها وجائزتها لمن يمتدحها نثراً وشعراً! ولعل هذا أكبر دليل على أن المدح الذي فرض نفسه وعباراته على نثري وشعري في الحديث عن الأميرة كان لله وابتغاء مرضاته! وعموماً ليس المدح كله مبغوضاً مكروهاً! تحت عنوان: (المدح والحمد والشكر) تقول الأستاذة أم شهاب هالة يحيى صادق ما نصه: (إن المدح هو ذكر المحاسن ، وهو الثناء بذكر الجميل ، والمدح لا يستلزم المحبة ، فقد نقول أمريكا بلد قوية بما لديها من أسلحة ، أو نقول النصارى لديهم انضباط فى المواعيد ، ولا يستلزم هذا القول محبة هذا أو ذاك. فالمدح هو إخبار مجرد ، وقيل المدح هو ذكر المحاسن بمقابل وبدون مقابل ، والمدح يكون بذكر الجميل الإختيارى وغير الإختياري. أما الحمد فهو الذكر بالجميل الاختيارى أي ذكر المحاسن دون إحسان! وعموماً المدح والحمد لغةً يشتركان فى نفس الحروف ولكن بترتيب مختلف وتبايُن فى المعنى ، وهذا يسمى فى اللغة (اشتقاق أوسط). والمدح أعم من الحمد ، لأن المدح يكون بذكر الجميل الاختيارى وغير الإختيارى كأن تقول: مدحت اللؤلؤ لصفاته ، فهنا الممدوح ليس مختاراً لصفاته ، والحمد أخص لأنه يكون بذكر الجميل الإختيارى فقط).هـ. ويقول الأستاذ نايف عبوش وتحت عنوان: (مدح الآخرين بين الثناء المنصف والتطبيل المقرف) ما نصه: (إنه لا ريب في أن الإشارة الى الجهد المتميز للآخرين والإشادة بعطائهم والتنويه بأدائهم على قاعدة (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أمر حسن ومطلوب ، باتجاه توسيع قاعدة العمل الصالح. وذلك من أجل تحفيزهم لعمل المزيد منه. وتمييزهم عن أقرانهم الآخرين من المتقاعسين الذين يتهاونون في اداء ما يناط بهم من أعمال. وتجدر الاشارة إلى ان تقييم الأداء في عالم اليوم ، قد أخذ بمبدأ الحافز المادي والمعنوي لأولئك الذين يؤدون أعمالهم بشكل متميز ، في حين اخذ بالحافز السلبي للمتلكئين ، الذين يأتي عطاؤهم بمستوى متدني دون الحد الأدنى لخط الشروع بمنح الحافز. ولعل مما يجدر بالملاحظة أن المدح عندما يكون زائفاً. وتهويلاً مبالغاً فيه. أو تدليساً مسفاً ، بنسب الإنجاز والفضل لغير أهله. فانه عندئذ يأخذ شكل التهريج الممقوت ، والتطبيل المقرف ، الذي ينبغي أن نترفع عنه. ويلاحظ على المستوى الاجتماعي ، أن سلوك التطبيل والتهريج ، أخذ يحتل مساحة واسعة بين مجموعة من الناس صار يصطلح على تسميتهم مؤخراً ، بالبوقجية ، أو المطبلين. حيث يلاحظ أنهم إما أن يهولوا المدح ، ويبالغوا فيه ، أو أنهم يدلسون وينسبون الفضل لغير من صنعه ، مدفوعون بغرض ، أو أنهم مأجورون ، أو أحياناً يأتون عليه بدافع السذاجة ، حيث ينساقون وراء المطبلين دون وعي منهم. ولأن الموضوعية تقتضي الإنصاف بنسب الفضل إلى أهله على قاعدة (وأن ليس للإنسان إلا ما سعي) ، وأن المدح ينبغي أن يتم بالقسط على قاعدة: (وزنوا بالقسطاس المستقيم) ، فإن المطلوب أن نحرص على مدح الآخرين باستحقاقهم ، من دون مبالغة ، أو تهريج. ويقيناً فإن أسوأ سلوك في المدح ، هو ذلك الإطراء المأجور ، الذي يقوم به زيدٌ لعمرو من دفع له

الثمن ، حتى وان كان الممدوح لا يستحق أي إطراء، وهو سلوك شائن ينبغي هجره).هـ. والحقيقة أنني لم أشأ أن أتناول سيرة الأميرة زبيدة بنت جعفر ومسيرتها بشيء من الحداثة قلباً ولا قالباً: لا في النثر الذي صغتها به ولا في الشعر الذي أنشدته عنها! إنما نثر كنثر ابن العميد والجاحظ وغيرهما ، وشعر كشعر العباس بن الأحنف والبحتري والمتنبي وأبي العتاهية وغيرهم! وإن لم يكن في ذات الدرجة ونفس الإجادة فيبقى لي شرف المحاولة بأي نسبة من النسب وبأي مقدار من المقادير! حتى إنني لأتخيل الأميرة لو قدِّر عليها اليوم وأصبحت حية بين الأحياء ، وطالعت هذه السيرة وتلك المسيرة نثراً وشعراً ، لما كان لديها كبير اعتراض على ما جاء فيها ، إلا بأشياء لم أعرفها ولم أصل إليها ولم أستوثق منها لأكتبها ، أو أشياء كتبتها وهي مجافية للحقيقة مجانبة لها! وعموماً ما شقي الشعر العربي المعاصر إلا بالمحاولات الحداثية اليائسة التي تريد تطويره إلى الأسوأ ومسح هويته التي عرف بها على مدى قرون مضت! ومن أراد معرفة خطر الحداثة في الأدب العربي نثره وشعره فليدرس هذه الكتب التي بينت أغراض الحداثة وأهداف الحداثيين: (أباطيل وأسمار - محمود محمد شاكر – جزءان. والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - محمد محمد حسين. وأدب الردة قصة الشعر العربي - جمال سلطان. وأدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب - السيد أحمد فرج. وجذور العلمانية - السيد أحمد فرج. وأسلوب جديد في حرب الإسلام - جمعان بن عايض الزهراني. والتجديد في الشعر الحديث بواعثه النفسية وجذوره الفكرية - يوسف عز الدين. وتحت راية القرآن – الرافعي. وجناية الشعر الحر - أحمد فرح العقيلان. الحداثة بين التعمير والتدمير - حسن بن فهد الهويمل. الحداثة تعود - حلمي محمد القاعود. والحداثة في الشعر العربي المعاصر - حقيقتها وقضاياها رؤية فكرية وفنية - وليد قصاب. والحداثة في منظور إيماني - عدنان علي رضا النحوي. والحداثة في ميزان الإسلام - عوض بن محمد القرني. والصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث - محمد الكتاني. والغارة على الإسلام - جمال سلطان. وفي خيمة النص قراءات في أدب المرحلة - علي بن مويسى التمني. ومذاهب الأدب الغربي - عبد الباسط البدر. ومقدمة لنظرية الأدب الإسلامي - عبد الباسط البدر. ونقض أصول الشعر الحر - إسماعيل جبرائيل العيسى. وهذا الشعر الحر - عمر فروخ. والقصيدة الحديثة وأعباء التجاوز - عبد الرحمن بن عقيل الظاهري. وحوار مع الشعر الحر - سعد دعبيس. وعن مستقبل قصيدة النثر العربية يقول الأستاذ الشاعر السوري منذر مصري يقول ما نصه: (لقد يستغرب المرء كيف له أن يجد مفرًّا من إجراء المقارنات والتوصل إلى ، إن لم يكن إلى أحكام ، فليكن إلى آراء ، إلا أنني في الحقيقة أفعل هذا لمنفعتي الشخصية ، وبوجوه عدة ، أهمها ، أني أغذي به ذلك المزاج الذي أحتاجه للاستمرار والمتابعة. رابعاً- ليس فقط لأني شفيت من حمّى قراءة كل شيء ، بل لأنه أصلًا لا يتوافر بين يدي ما يكفي لألقي نظرة متفحصة ولتكوين فكرة صحيحة عن واقع قصيدة النثر العربية. وهذا ما يمكن له أن يجعل من الكتابة في هذا الموضوع ، إن لم يكن قفزة في الظلام ، فهو وقوع في السياج الشائكة الكثيرة التي تقيمها الكتابة باللغة العربية التي ينطق بها ما يقارب ثلاث مئة مليون إنسان ، ولكن بنسبة أمية عالية ، ونسبة قراءة متدنية لدرجة كارثية ، يتوزعون على عشرين بلدًا ، يتصل بعضها ببعض على شكل سلسلة ذات حلقات مغلقة. فما يكتب في الأردن لا يتخطى الأردن ، فلا كتب ولا مجلات ولا صحف أردنية تدخل بلدًا متاخمًا له كسوريا ، وأغلب ما يكتب في سوريا لا يُعرَف إلا في سوريا. حتى في داخل سوريا ، البلد الذي اتصف بالاستقرار لعقود سنين طويلة ، ذي التطور الاجتماعي والتقاليد الثقافية الفاعلة ، نجد أن شعراء مدينة حلب ، حتى أصحاب المجموعات الشعرية منهم ، مجهولون في اللاذقية وحمص وأيضًا في العاصمة دمشق حيث يفترض أن يصبّ فيها كل شيء ، إلا إذا حدث وانتقل

أحدهم على نحو شخصي ، وبخاصة بعد أن تعففت دور النشر المهمة عن طباعة كتب الشعر إلا للأسماء المستطيرة! وصار الشعراء يطبعون على حسابهم عددًا ليس كبيرًا من النسخ ، تضاءل في العقدين الأخيرين من ألفي نسخة إلى ألف ، ثم إلى خمسمائة ، ثم إلى لا أكثر من مئتي نسخة! يوزعها الشاعر على أصدقائه وأقاربه وعلى شعراء مدينته ، وأحيانًا على الشعراء الذين يستطيع الوصول إليهم في مدن أخرى ضمن بلده ؛ الأمر الذي يضطره أحيانًا للسفر بنفسه ، وغالبًا ما يكون من المتعذر عليه أن يقوم بذلك لإيصالها إلى شعراء بلد عربي مجاور ، فكيف إلى بلد عربي يأتي في السلسلة على بعد خمس حلقات. وأحسب أنه قد حدث للعديد من الشعراء أن اجتمعوا في مهرجان ما مع شعراء عرب آخرين من جيلهم أو من جيل سبقهم ، وهم لم يسمعوا بمجرد أسمائهم ، ثم إن كانوا قد سمعوا بهم سماعًا ، فهم ليسوا على أي اطلاع على نتاجهم. فأول مرة سمعت باسم علاء خالد مثلًا كان عند لقائنا في مهرجان كافالا في اليونان عام 2002م ، أما جرجس شكري ، المصري الآخر فقد عرفته فقط في مهرجان جرش عام 2004م. ولا أخجل إن قلت في ذلك المهرجان عرفت لأول مرة أن رئيس اتحاد الكتاب في المغرب هو الشاعر حسن نجمي ، ولم أستطع أن أحدد ما إذا كنت قد سمعت باسمه في السابق أم لا. في سوريا لا تستطيع أن تحصل على المجموعات الشعرية المهمة التي تميزت بها دار الجديد البيروتية ، في الثمانينيات والتسعينيات ، فكيف لك أن تحصل على أعمال لشعراء تونسيين أو جزائريين أو يمنيين ، يومًا لم تقع عيناي لا في المكتبات السورية ولا اللبنانية على كتاب سوداني أو تونسي أو ليبي ، والسؤال هو: ألا يطبعون كتبًا في السودان وتونس وليبيا والجزائر والصومال واليمن وقطر والبحرين على الإطلاق؟! وهذا لا يقتصر على الشعر وحده ، بل أيضًا الروايات والقصص القصيرة حتى الكتب المترجمة ، أما ما يصلنا من مجلات ودوريات ثقافية ، لا أدري إن كانت توزع في أنحاء الوطن العربي كافة أم لا ، فإنك حتى إن قرأت قصائد لشاعر ما ، فإنك سرعان ما سوف تنساه ، وذلك لكثرة الأسماء ، الداخلة الخارجة في ساحة الشعر. وهذا ما حدث لي عندما كتبت عن الشاعر العراقي الراحل رعد عبدالقادر ، فقد ظننت أن قصيدته التي قمت بدراستها في ردِّي على ما كتبه سعدي يوسف عنها أول عمل أقرأوه له ، مع أن عددًا من قصائده كان منشورًا منذ مدة ليس بعيدة ، على الصفحة المقابلة لقصائد لي في مجلة نزوى العمانية. خامساً ـ هناك الآن ، لا بد من الاستدراك ، مصادر أخرى متاحة للاطلاع والمتابعة ، إذا كان لدى المرء الرغبة والوقت وجهاز كمبيوتر موصول بشبكة الإنترنت. مواقع ثقافية مثل موقع «جهة الشعر» الذي يشرف عليه الشاعر البحريني الأديب قاسم حداد ، وموقع «كيكا» بإشراف ، لا أدري بماذا أصفه ، الشاعر والروائي والناشر العراقي صموئيل شمعون ، وموقع عراقي آخر هو «الإمبراطور» يشرف عليه شاعر عراقي آخر هو أسعد الجبوري وهناك أيضًا عدة مواقع سورية جديدة مثل: «الجدار» و«ألف» و«أبابيل» و«أوكسجين» هذه كلها يغلب فيها النتاج الشعري ، إلا أن موقعًا كـ«قصيدة النثر المصرية» الذي يشرف عليه الشاعر المصري عماد فؤاد يسمح على نحو استثنائي بالاطلاع الوافي على حال هذه القصيدة في بلد عربي كبير تأخر فيه ظهورها نسبيًّا عن لبنان والعراق وسوريا ، حيث يتضمن ملفًّا عن كل من سبعة وستين شاعرًا وشاعرة من الأجيال الثلاثة الماضية للقرن المنصرم. كما أنه يتوافر على صفحات «الفيسبوك» عشرات المواقع الفردية لشعراء من كافة البلدان العربية. سادساً- ما يربك هنا هو ، ليس الكثرة والتنوع فحسب ، بل أيضًا مستوى النتاج ، التراكم الكمي الذي يبدو كأنه استطاع الهروب من حتمية أن التغير الكمي يؤدي إلى تغيير نوعي ، وكأن ما يأتي لاحقًا لا يقوم على محو ما أتى سابقًا ، أو كأن كلَّ شيء يبدأ بنفسه على نحو ما ، ذلك أني التقيت شعراء شبابًا كثيرين يكتبون قصيدة النثر ، لا يعرفون توفيق الصايغ ولا شوقي

أبي شقرا ولا عصام محفوظ ولا حتى أنسي الحاج ، أما في سوريا فسليمان عواد الأب الروحي لـمحمد ماغوط شبه نكرة ، وإذا كان عواد شاعرًا ظهر في الخمسينيات ، فماذا يقال عن شاعر سوري آخر هو بدوره شبه مجهول في بلده ، مثل نوري الجراح الذي أصدر أعماله الشعرية بمجلدين سميكين منذ ثماني سنوات؟ رغم ما يعرف عني من حرص على رؤية الأشياء من الزاوية الجيدة ، وتصديقي بأن الرسامين والشعراء والموسيقيين يشتهرون بفضل عددٍ من أحسن أعمالهم وليس بأعمالهم كلها ، ورفضي لفكرة القراءة بهدف إصدار الأحكام والبحث عن أدلة ، وذلك لحرصي بالمقابل على الاستمتاع بهذا الفن الذي وصم حياتي ، أجدني غارقًا بشعور معاكس تمامًا ، أقرب للشعور بهدر الوقت وإضاعة الجهد والأحاسيس منه للمتعة والفائدة ، وصولًا إلى الشعور بالإحباط والخيبة أسماء كثيرة ، ومجموعات شعرية كثيرة كثيرة وقصائد كثيرة ، نستطيع قراءتها هنا وهناك ، لا تصنع سوى ذلك التراكم الذي لا يحتاجه أحد ، وقليلها يستحق أن يتوقف المرء عنده ، ويعيد قراءته محاولًا أن يبقيه في ذاكرته. ولكن ، يأتيني صوت ، وسؤال: أليس هذه هي الحال دائمًا ، أليس دائمًا هناك تلك القلة التي يُعوَّل عليها بأن تقوم بصناعة الفرق؟ سابقًا - أحسب أن أي محاولة تبصرية لمعرفة مستقبل حركة أدبية ما ، تحتاج إضافة لاجتهاد صاحبها ، وقدراته ، أن يتوافر لديه بعض المراجع والدراسات التي سبق وقدمت تصورًا ، صغيرًا أو كبيرًا لموضوع البحث. وهنا مرة أخرى ، تعترضنا إعاقة قاسية في بدن الحركة الشعرية العربية الحديثة ، وهي عدم مواكبتها بحركة نقدية حقيقية ، نظرية وتطبيقية. مع اعترافي بأنه يساورني قدر كبير من الشك ما إذا كان الشعر العربي اليوم يدين ، سلبًا أم إيجابًا ، لهذا الغياب النقدي ، حيث أكتفي بترجمة بعض المراجع والمنطلقات النظرية التي مهَّدت لقصيدة النثر عالميًّا ، مع محاولة بسيطة وساذجة لتأصيلها ، بوصف النص القرآني والسرديات العربية بأنواعها ، جذورًا لها. أما تطبيقيًّا فلم يزد الأمر عن عدة كتب نقدية تطرقت للرواد على نحو أساسي ، فقد رافقتهم حركة نقدية لافتة بالمقارنة مع من جاء بعدهم ، أولئك الذين لم يحظوا في أفضل الأحوال سوى بمتابعات لمجموعاتهم الشعرية في الصحف والدوريات التي تصدر هنا وهناك ، تجمع أحيانًا في كتاب ، وغالبًا ما تهمل. ولكن منذ فترة وجيزة ، نتيجة لهذا النقص وهذه الحاجة بدأت تظهر بعض المحاولات لرصد حركة الشعر العربي الحديث ، ومن الغرابة أن ما اتفق على تسميته أنطولوجيات شعرية صدرت كلها بلغات أجنبية. وانطلاقًا مما ذكرت ، يمكن أن يرسل المرء نظره إلى مستقبل قصيدة النثر في اتجاهين مختلفين ، الأول: هل سيكون لقصيدة النثر مستقبل؟ والثاني: ماذا ستكون عليه قصيدة النثر في المستقبل؟ كيف ستكتب؟ وبأية أشكال ستوجد؟ وأحسب أن البحث في كلا الأمرين على تكاملهما الصوري ، يشبه حقًّا الرجم بالغيب ، وبخاصة في بلاد كبلادنا ، لا أحد يستطيع أن يخمن مستقبلها ، التي لم تجد في بحثها عن نقطة انطلاق إلا أن تعود القهقرى لما وراء نقطة الصفر. وإذا اعتبرت أن مستقبل قصيدة النثر العربية هو مستقبل الشعر العربي ، أو جزء من مستقبل الشعر العربي ، فكثيرًا ما قرأت ، أن مستقبل هذا الشعر ، يتوقف أساسًا على مستقبل الإنسان العربي نفسه ، الناطق باللغة العربية. ثم يأتي ذلك الاستنتاج ، الذي لا تعيبه عموميته بالقدر الذي تعيبه شاعريته ، بأنه ما دام هناك عرب سيكون هناك لغة عربية ، وما دامت هناك لغة عربية فسيكون هناك شعر عربي؟! ولكن ما نعدّه اليوم شعرًا ونفكر فيما يمكن أن يكون مستقبله ، قد يختلف لدرجة يصير بها فنًّا من جنس آخر ، باختلاف كبير في الطرائق والأدوات كما في الأغراض والمآرب ، لا بل قد يأتي يوم ليس بهذا البعد كما يبدو ، تزداد به عزلة الشعر وتزداد هامشيته ، حتى ينقرض. عندها يمد رأسه ذلك السؤال الصفيق: «ومن قال: إن البشر ، لا يستطيعون الحياة بدون الشعر؟». ففي العالم اليوم ، يولد ويحيا ويموت الملايين من البشر ، عربًا وغير عرب ، محرومين أم

مرفّهين ، متخلفين أم متحضرين ، أكلة كافيار أم نابشي حاويات قمامة ، دون أدنى اعتبار لوجود الفن التشكيلي أو المسرح أو... الشعر. وبخاصة بعد أن دفع بالأخير أصحابه الشعراء ، لسبب أو بدون سبب ، ليصير إلى هذه النصوص المربكة التي يتعذر فهمها وتقديرها إلا من قبل أهل الكار أنفسهم ، أي أولئك الذين بدوافع جيدة أو سيئة هم الأقل مصلحة في هذه العملية. إنه لا بد من الاعتراف بذلك الشوط الذي قطعته قصيدة النثر العربية ، من الخواطر الشعرية والنثر العاطفي إلى قصيدة تبدو كأنها أصيلة متجذرة تنبت فروعًا متعددة وثمارًا متنوعة ، من الاتِّهام والعداء والتحريم إلى الاعتراف والقبول والإباحة ، وربما... الانتصار. هذا الانتصار الذي تبدَّى على عدة أصعدة ؛ منها انتقال العديد من الشعراء الرواد لكتابتها ، كما فعل يوسف الخال وأدونيس وشوقي أبي شقرا وعصام محفوظ في الستينيات ، ثم تبعهم في السبعينيات شعراء كانوا مؤسسين على القواعد العروضية مثل: نزيه أبو عفش ، وبندر عبد الحميد ، وقاسم حداد على سبيل المثال لا الحصر. بعد هذا صارت قصيدة النثر الاختيار الأول لأفضل المواهب الوافدة إلى حقل الشعر. وبسبب انتشارها الشديد فتحت لها أبوابها أكبر حصون الشعر العمودي والتفعيلة ، بعد حرب استنفدت فيها كل مخزونها من الذخائر الثقيلة. ومن اللافت أنه قد حدث هذا على نحو تنازلي ، أي من الأعلى إلى الأدنى فالأدنى ، فمن اتهام كُتَّابها بالتخريب والخيانة ، إلى الاكتفاء بتعييرهم بالتقليد والنقل ثم لفتح الأبواب على مصراعيها لقصائدهم. حتى إن لم تتوافر تلك القدرة على تمييز الجيد منها من الضحل. فاتحاد الكتاب العرب في سوريا ، الذي كان ، حتى الأمس القريب ، يرفض عند ممارسة دوره كرقيب ، الموافقة على طبع المجموعات الشعرية النثرية ، ولو على حساب أصحابها ، بات يصدر ضمن منشوراته ما هب ودب من هذه المجموعات. ومجلات كمجلة الآداب مثلًا ، أو مجلة العربي الواسعة الانتشار ذاتها التي كانت تتحف قراءها بمخلفات القصيدة العمودية ، صارت تقبل القصائد النثرية وتنشرها مع رسوم ملونة لأزهار وفراشات ووجوه نساء على صفحاتها ، وصار المرء يقع على دوريات أدبية وملاحق ثقافية لا تنشر سوى قصائد نثرية. فعندما سأل جوزيف عيساوي عباسَ بيضون في برنامج «قريب جدًّا»: «لماذا تطغى قصيدة النثر لهذه الدرجة على الصفحات الثقافية لجريدة السفير؟» أجاب عباس بما معناه: «ماذا أفعل إذا كان لا يصلني سوى قصائد نثرية؟». وكذلك ما قاله حسن طلب: «بأنهم باتوا في مجلة إبداع لا ينشرون سوى نصوص قصيدة النثر». أما تلك الأنطولوجيات الشعرية التي ذكرت ، إذا لم تكن مقتصرة على الشعراء النثريين ، وتحاول بحيادية أن تعطي صورة واقعية عن تنوع الشعراء الذين يحتلون الواجهة الشعرية العربية المعاصرة ، فإن عدد شعراء النثر بينهم قد يصل إلى نسبة 75%. ولولا الرغبة في إظهار بعض الاعتدال ، وورود عدد من شعراء التفعيلة يقلّ عن أصابع اليد الواحدة بين ثمانية وثلاثين شاعرًا تضمنتهم أنطولوجيا الشعر اللبناني الحديث التي أعدتها الشاعرة جمانة حداد باللغة الإسبانية ، لأطبق عليها النثارون دون أدنى ديمقراطية. إلَّا أن هذا الانتصار السريع لقصيدة النثر، الذي جاء بعد حرب عُصابية بامتياز ، لم تستغرق أكثر من عقدين من السنين ، هو الشبهة الخطيرة التي تحوم حول هذه القصيدة. حيث لم ينقضِ من الوقت ما يتيح لقصيدة التفعيلة ، الابنة الشرعية للقصيدة العمودية التي عاشت قرونًا ، أن تأخذ كامل أبعادها ، أو فقط لأن تصل إلى نقطة قريبة ، ما يكفي ، من نهايتها. ذلك ما أدى إلى عدم حسم السؤال حول شرعية قصيدة النثر ، وأحقيتها ، وهل جاءت ضمن السياق الطبيعي للشعر العربي أم أقحمت إقحامًا؟ وربما ببعض الظن ، جيء بها لضرب هذا السياق وتقويضه! أو هل أنها استجابة لحاجة حقيقية ، أي منعكس لواقع حي معيش؟ الأمر الذي ، رغم كل الاعتراضات ، يمكن أن يفسر ويبرر انتشارها ، أم مجرد تقليد أعمى لمنتوج حضاري غربي يكتسحنا مع ما يكتسحنا من أفكار ونظريات

ومخترعات؟ لا دور لنا فيها سوى دفع كلفتها عشرات الأضعاف والإصابة بعسر الهضم بعد استهلاكها. أو أنها في الحقيقة ، مثلها مثل الأيديولوجيات التي راجت عند النخبة العربية كالماركسية والوجودية والليبرالية ، تعبير عن تغريب هذه النخبة ، وشكل من أشكال القطيعة والعداء بينها وبين محيطها!؟ فبقدر ما تفشت قصيدة النثر بين الشعراء بقدر ما انحسرت بين الناس. حتى صار يقال: إن جمهور الشعر اليوم لا يزيد عن عدد الشعراء أنفسهم ، أو ربما أقل! أي أنه قد تم الوصول إلى حالة يقتصر فيها استهلاك الشعر على منتجيه ، سقاة يبيعون الماء في حي السقاة! فأي بائعين وأي مشترين إذن؟! وهكذا صار يتضاءل عدد حضور الأمسيات الشعرية في المهرجانات الثقافية ، التي صار بعضها يقتصر على مشاركة شعراء النثر ، بوصفهم الأكثر لمعانًا هذه الأيام ، إلى أعداد مخزية بالفعل ، توازي ما ذكرناه عن أعداد النسخ القليلة التي باتت تطبع وتباع من كتبهم. وهكذا تبدو الأمور كأنها تدور في مكانها ، أو في حلقة أوسع قليلًا لكنها مغلقة. شعر نخبوي ، يخرج عن السائد ويقطع بصورة حادة مع الذائقة العامة ، متخطِّيًا مقدرة بقايا الطبقة الوسطى المتعلِّمة على فهمه ، فينفرط عقد جمهوره حوله ، ويبتعدون منه للحد الذي تنعدم فرصته في الوصول إليهم ، رغب بهذا أم لم يرغب ، ترفَّع عنه ، أم قدم له ما أمكنه من تنازلات ، حتى راح هذا الانتصار يبدو كأنه القمة التي ليس بعدها إلا الانحدار منها ، وبقدر ما يكون الصعود سريعًا بقدر ما يكون الهبوط سريعًا ، وربما بمساعدة جاذبية الماضي ، جاذبية الموت ، أسرع. واليوم ما عادت قصيدة النثر تمردًا أو ثورة أو مواجهة مع السائد وخروجًا على التقاليد ، نعم فقدت قصيدة النثر هذا التميز ، هذا الشرف ، صار هناك أناس يكتبونها دون أن يفكروا بالخروج عن شيء ، صارت قصيدة النثر ، مثل ما كانت عليه قصيدة العمود وقصيدة التفعيلة ، تكتب اتباعًا وتقليدًا ، صارت بدورها سائدًا أدبيًّا. والمشكلة هنا تكمن في أنها صارت تقليدًا ليس له تقاليد ، وسائدًا ليس له في الأصل مكانة! منقبات يكتبن قصيدة النثر ، هذا ما قرأته في مقالة عن ملتقى الشعر العربي الثاني الذي أقامته وزارة الثقافة اليمنية في صنعاء ، بحضور أكثر من 300 شاعر شاب عربي. حيث أهدى وزير الثقافة اليمني ، الملتقى إلى روح الشاعر الكبير محمد الماغوط ، محققًا بذلك ، كما أعلن ، ما طمحت إليه اللجنة المنظمة من هذا المهرجان ، وهو: «الاحتفاء بالقصيدة العربية الجديدة ، قصيدة النثر تحديدًا». والغريب أن ما نافس قصيدة النثر في هذا الملتقى هو القصيدة العمودية والمدائح النبوية والبيانات الرسمية! وهكذا وسط هذا الهرج الشديد ، أشعر أنه صار محتّمًا علينا جميعًا ، وعليَّ بالتحديد ، أن أعيد التفكير بما سبق وأطلقته من أحكام ، كما حين قلت: إن أفضل المواهب الشعرية الجديدة تختار لنفسها كتابة قصيدة النثر ، فالأصح الآن ، أنه ليس أفضل المواهب فقط تختار قصيدة النثر ، بل أيضًا أكثر هذه المواهب تواضعًا وشحوبًا باتت تكتب قصيدة النثر ، حيث يصح أن الكم التراكمي ذا الآلية المعطلة ذاك ، هو من عمل أولئك الذين يكتبونها لظنهم أن تحررها من الضوابط والقيود لا غاية له إلا سهولة كتابتها. وهذا ، ربما أحد أقرب التفاسير لرأي الكثيرين في غلبة الرداءة على المشهد الشعري العربي الراهن. ولكن هل هذا يعني أن الشعر العربي ، في مسيرته الشكلية ، إذا سمحنا لأنفسنا في تقسيمها إلى الأربع مراحل التالية: من البحور الكاملة والقافية الموحدة ، إلى البحور المنقوصة والقافية المتنوعة ، إلى البحور الخافتة الإيقاع وعدم الحرص على القافية ، قد وصل بسياق طبيعي ، إلى محطته الأخيرة وهي قصيدة النثر، غير الموقعة وغير المقفاة. أحسب أن أي جواب على هذا السؤال ، يحتاج إلى أن يأخذ في حسبانه عدة تهيؤات إشكالية ، يمكن أن تصل إلى مرتبة الحقائق المؤكدة في ميدان الأدب. ولم يصل أي نشاط إنساني ، علمي أو فلسفي أو فني ، إلى ما يمكن تسميته المحطة الأخيرة. وأحسب أن القبول بتلك الفرضية اليوم ، هو مجاراة شكلية للأحكام التي درجت مؤخرًا ، بنهاية

الفلسفة ، أو نهاية التاريخ ، أو حتى نهاية العالم. الأمر الذي من الصعب على البشر الحياة على أساسه ، والقبول به كحتمية. وهناك قاعدة معروفة في الفن ، وهي عودة القوالب المحددة ، ولو بأشكال مختلفة ، بعد كل مرة تُحطَّم ويُطاح بها. أي أنه بعد كل تحرر تأتي قوانين جديدة ضابطة للعملية الفنية. فكما أن هناك ميلًا غريزيًّا عند البشر للحرية والانفلات هناك حاجة بشرية مُلِحَّة للانضباط والواجب. وبغض النظر عما إذا كان يجب أن نهلل ، نحن شعراء قصيدة النثر ، لكونها المحطة الأخيرة للشعر العربي ، الآن أم لاحقًا ، بحيث يصدق وعدنا بأنها تمثل مستقبل هذا الشعر ، فإن قصيدة النثر اليوم ما عادت قصيدة واحدة ، وما عادت نثريتها جنسًا شعريًّا بحد ذاتها. فقد تباينت وتفرقت لأنواع عديدة من القصائد ، كل منها له اتجاهات ومعايير فنية مختلفة ، فمن القصيدة اليومية ذات اللغة المباشرة وغير المنمقة إلى القصيدة الذهنية ذات اللغة المجردة، ومن القصيدة الحسية المادية إلى القصيدة التأملية والفلسفية ، ومن القصيدة السردية التي تروي وتصف ، إلى القصيدة المكثرة من البديع والمحسنات ، ومن قصيدة ذات وحدة موضوعية إلى قصيدة تبدو كأنها بلا موضوع. ولا يدل النتاج الشعري الجديد ، على بذل الجهد اللازم في حقل كتابة الشعر اليوم. وكأن قصيدة النثر ، كأختها الأخرى قصيدة التفعيلة ، وبفترة زمنية تعادلها قصرًا ، قد اقتربت من ، إن لم أقل وصلت ، إلى مرحلة استنفاد أدواتها وأساليبها. بعد أن عُممت هذه الأدوات والأساليب ، لتنتج قصيدة غير شخصية على الإطلاق ، ذات مواصفات موحدة ومعروفة ؛ مما أفقدها ذلك التنوع المثير الذي كانت قصيدة النثر ، في تحررها من التقاليد المنهكة في الشعر ، تعد به. و بات من غير المتوقع ، إلا بدائرة الاستثناءات ، أن يحظى المرء بتجربة ذات خصوصية لافتة ، في نتاج الأجيال الجديدة لهذه القصيدة. أما الأسماء المكرسة ، من الجيل الثاني والثالث فقد بدأت بنشر أعمالها الشعرية الكاملة ، كإيذان بقرب إكمالها لدورتها الإبداعية. فلا تجارب جديدة تطرأ في مختبر قصيدة النثر ، وتلك السردية التي هي الآن السمة الأشد حضورًا في قصيدة النثر اليوم ، وكثيرًا ما عُدَّت المطب الأخطر لقصيدة النثر ، ما هي إلا عودة إلى أصول قصيدة النثر الأولى ، ومن السهولة بمكان أن يجدها المرء في النتاج الشعري الباكر للرواد. وكأن بعضًا قد تنبه الآن فقط ، إلى أن اختيار النثر لكتابة الشعر ، كان منذ البداية اختيارًا لخصائص النثر المعروفة والمتفق عليها بين الجميع ، كالسرد والوصف والحوار ، وإن غاية التحرر من الوزن والقافية وأنواع البيان والبديع كانت ولا تزال لإحكام اللغة وللسدادة في انتقاء الكلمات والدقة في تأدية المعنى).هـ.

وعموماً حاولت جاهداً أن أجنب شعري عن الأميرة الجانب الإطرائي! كما أنني تجنبت اللاشعر المتفلت أو القصيدة النثرية ، ذلك النمط الذي لم تجز تسميته بالشعر لأنه ليس على شروط الشعر ، كما أنه لا يمكن تسميته بالنثر لأنه ليس على شرط النثر! وذلك لأنه لا مستقبل لهذا النشاذ في الأدب العربي المعاصر! ومن هنا كان مدحي المعتدل للأميرة العباسية درة الإسلام وقمر بني العباس زبيدة بنت جعفر – رحمها الله تعالى - ، لقد كانت هذه المناقب التي تحلت بها وساماً على صدرها يجلي سيرتها لمن لا يعرفها! رحمها الله تعالى رحمة واسعة ، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء! وأسكنها فسيح جناته! وغفر لها ذنوبها وتجاوز عن سيئاتها! وجعلها الله تعالى مع النبيين والشهداء والصدّيقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً!)

سُـــر شـــعرى لمّـــا ســـباهُ الصُـــمودِ واحتوتْـــــه الأفـــــراحُ والتغريـــــدُ

فـــانبرى يُطـــري (الأميـــرة) جـــزلاً! صِـــيتها - فـــي كـــل الـــورى - محمـــود

ناشـــــراً أمـــــداحاً تـــــروحُ وتغـــــدو ... يَجتبيهـــــا ـ للعـــــالمين ـ قصـــــيد

مثـــل هـــذي ـ بـــين النســـاء ـ قليـــلٌ ... تشـــهد الـــدارُ ، والحِمـــى ، والبيـــد

إن (دار الســـــلام) تختـــــالُ فخـــــراً ... ثـــم تمضـــي فـــي زهوهـــا ، لا تعـــود!

والبرايـــــا تقولهـــــا باقتنـــــاع: ... نجمـــة هـــذي ، يجتبيهـــا الخلـــود

حُـــزتِ حُـــب الجميـــع فـــي كـــل وادٍ! ... والـــــدليلُ الإطـــــراءُ والتمجيـــــد

يـــا (زبيـــدَ) الخيـــر الحقيقـــة بانـــتْ ... واســـــتبانَ المـــــرادُ والمقصـــــود

والطمـــوحُ المغـــوارُ ـ بـــالخير ـ يســـمو ... يتحـــــدّى ، والناصـــــرُ المعبـــــود

والأمـــاني ـ فـــي قلبـــك الغـــضّ ـ تحيـــا ... باشـــتياق مـــا صـــدّها المجهـــود

والعطـــــاءُ كـــــالبحر دون حســـــاب ... هـــل يُضـــيرُ الـــدأماءَ هـــذا الجـــود؟

مَكرُمـــاتٌ فـــي كـــل صُـــقع ودار ... وســـبيلُ الجنـــات تلـــك الجهـــود

والجِمـــالُ تجتـــاز عـــرض الفيـــافي ... فوقهـــا الأكـــلُ ، والـــدوا ، والمَزيـــد

كـــم أغثـــتِ المنكـــوبَ ينشـــد مـــأوى! ... مـــا لـــه بيـــتٌ ـ فـــي الـــديار ـ مَشـــيد

كـــم أعنـــتِ المســـكين يرجـــو نـــوالاً! ... بعـــدما أوهـــى عزمَـــه التنكيـــد

كـــم قطعـــتِ الأســـفارَ سِـــراً وجهـــرا! ... لـــم يعقـــكِ جُهـــدٌ ولا تنهيـــد

كـــم طرقـــتِ الأبـــوابَ بعـــد التحـــرّى ... عـــن ثكـــالى ، مـــا عنـــدهن رصـــيد!

كـــم مســـحتِ ـ بـــالكف ـ رأسَ يتـــيم! ... والعطـــاءُ ـ مـــن بعـــدها ـ مشـــهود

كـــم بـــذلتِ المعـــروف تـــرجين أجـــراً! ... والمليـــكُ ـ علـــى العطايـــا ـ شـــهيد

كـــم تفضـــلتِ دون مـــنٍّ مِـــراراً! ... فاكتفـــتْ أمّ عَفـــة ، والوليـــد

كـــم نصـــحتِ مَـــن تطلـــب الـــرأي حقـــاً! ... عنـــدكِ الـــرأيُ العبقـــريُ الســـديد

كـــم دحضـــتِ الجـــوعَ الـــذي هـــدّ قومـــاً! ... حيـــث إنّ إنفـــاقهم مَحـــدود

كـــم طعنـــتِ الإمـــلاقَ أردى نفوســـاً! خـــــابَ - واللهِ - الفقـــــرُ والتعبيـــــد!

كـــم طرحـــتِ التجهيـــلَ والجهـــلَ أرضـــاً فارتأينـــــا التعلـــــيم بعـــــدُ يســـــود

كـــم درجـــتِ - فـــي سُـــلم المجـــد - طوعـــاً! والمســـــاعى يحـــــدو مَـــــداها الخلـــــود

كـــــم جـــــراح آســـــيتِها بالعطايـــــا! حِســـــــبة إذ تـــــــأخرَ التضـــــــميد

يـــــا زبَيـــــدُ أفلحـــــتِ دينـــــاً ودنيـــــا إذ أتيـــــتِ مـــــا عنـــــه يعيـــــا الصِـــــيد

وعلـــــى المـــــولى لا أزكيـــــكِ قطعـــــاً إنمـــــا رأيٌ ســـــما - بـــــه - التقصـــــيد

أحسِـــب الفضـــلى هكـــذا ، لـــم أبـــالغ مثلمـــــا يُطـــــري شـــــاعرٌ رِعديـــــد

يـــــا زبيـــــدُ جُوزيـــــتِ خيـــــراً عميمـــــاً فـــــي جنـــــان مـــــا طاولتهـــــا حـــــدود!

الشعر يحيي الأميرة زبيدة بنت جعفر

(أما الشعر فيحيي الأميرة أمة العزيز زبيدة بنت جعفر ، إذ تستحق الكثير على جهودها المشكورة المباركة التي بذلتها في مصلحة الإسلام وأهله والإنسانية بأسرها على الصعيد الإقليمي والدولي. ولها المنزلة والمكانة العالية في قلوب الناس ومنهم الشعراء. وعندما اطلعتُ على سجل حياتها ووقفت على طريف أخبارها وعظيم مواقفها كتبتُ هذه القصيدة التي أوردتُها في المجلد الخامس من ديوان (السليمانيات). وإن القصيدة لأقل ما يُهدى إلى الأميرة زبيدة بنت جعفر ، ولكنه شرف المحاولة يَحْدوني. ولم أكن يوماً ولن أكون أبداً إن شاء الله من الشعراء المرتزقة الذين يُتاجرون بما يُنشدون من الشعر. وإنما أتى إنشادي بشأن الأميرة زبيدة بنت جعفر ترجمة عملية إيحائية لكثرة ما عرفت ودرست عنها من الخير والمعروف والإحسان والبذل والجود والعطاء. الأمر الذي تعجز عن تصويره فضلاً عن إدراكه الكلمات مهما بلغ أصحابها من البراعة والإجادة. والعُهدة هنا على رُواة الأخبار عنها. وكنتُ قد درّست اللغة الإنجليزية في مدرسة (أم القرى الخاصة) في أم القيوين لمدة تجاوزت السنوات العشر! وطلبتُ من طلابي أن يعدوا عنها البحوث باللغة الإنجليزية. مما جعلهم يدركون معي حجم الافتراء الذي افتراه عليها ظلماً الروافض الخبثاء والعلمانيون الحقراء وبعض كُتاب التاريخ الجهلاء! وأدركتُ الكثير عن سيرتها العطرة وقدرتها على الريادة والقيادة. وكنا نرى بكل صدق بأن زمان (أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها -) قد انتهى ، وأن الزمان لا يجود بمثلها في حزمها وحكمتها وجودها وكرمها وإحسانها إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين. حتى أطلت علينا الأميرة زبيدة بنت جعفر فأعادت لنا الثقة بأن الزمان يمكن أن يجود بامرأة تجود ببعض ما جادت به أم المؤمنين خديجة. وإذن فهي سيرة تستحق الذكر والتدوين والمساجلة. وأعتقد أن محاولتي هذي ستكون الأولى عن الأميرة زبيدة بنت جعفر ريثما يأتي كُتاب آخرون مُجيدون يُكملون المشوار ويكتبون عنها الكثير ، ويُنصفونها من كل من نال منها بغير الحق. رحمها الله رحمة واسعة ، وتقبل عنها صالح أعمالها. وإن كنتُ أنسى فلا أنسى آراء الأميرة زبيدة بنت جعفر الفلسفية العميقة المستوحاة من كتاب الله وسُنة رسوله – صلى الله عليه وسلم - ، وما وافقهما من أعراف وتقاليد العرب الأصيلة وسلوم القبائل العربية والبداوة ، تلك التي تعبر كذلك عن القيم الأصيلة التي نهلتها الأميرة أمة العزيز زبيدة بنت جعفر ، وهي طفلة إذ نشأت وترعرعت في البادية المتحضرة فاستقت تلك القيم العربية الأصيلة. فلم يكن في حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر ما يُكَدّرها من لهيب الجاهلية اللافح على حدّ علمنا. جاء في الويكيبيديا في ترجمتها ما نصه: (كانت زبيدة بنت جعفر ذات طبيعة صافية ، تغلب عليها النزعة العاطفية. وكان مما يعزز ظنونهم أنها بَنتْ بعد وفاة زوجها قصراً أحاطته بحدائق واسعة ، واستخدمت مئات الكتبة والمساعدين الذين كانت حرَكتهم لا تنقطع وهم ينقلون الرسائل منها وإليها. قال ابن تغرى بردي في وصفها: "أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً. لقد كانت زبيدة سيدة جليلة سخية لها فضل في الحضارة والعمران والعطف على الأدباء والأطباء والشعراء". وقد كان لها الدور الكبير في تطور الأزياء النسائية في العصر العباسي. فقد كانت النساء من مختلف الطبقات ينتظرن ظهورها على أحرّ من الجمر ويسعين إلى تقليدها في ما ترتديه من ثياب. وقد عُرف عنها أنها استوردت من الهند والصين أفخر أنواع الحرير الطبيعي المُوَشّى بالذهب والفضة والحجارة الكريمة. وكانت كثيراً ما تختار ألواناً باهرة لم يسبق لأحد من النساء أن ارتدتها من قبل. وكانت زبيدة أول من اتخذ أدوات القصر من الذهب والفضة المكللة بالجوهر. وكان الخدم والجواري يملأون قصرها ويذهبون برسائلها وكتبها. وهي

أيضاً أول من اتخذ القِباب من الفضة والآبنوس والصندل والكلاليب من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق. جسّدت زبيدة المثال الأكبر في مكانة المرأة الزوجة والقائدة ، وقد كانت حياة الرشيد الحافلة بالعمل والعبادة والفكر نموذجاً آخر لنجاحها ، فقد عُرف عن الرشيد التفقه ومحبة العلماء ومزاولة الرياضات البدنية والذهنية ، حتى أنه مارس الشطرنج بشغف واستمرارية ، ليتعلم ترويض الذهن والصبر وطول البال ، وكان بالإضافة إلى كل ذلك يجد متسعاً من الوقت للعبادة وأداء الفرائض والسنن ، وكانت تنتابه حالات من التوجُّد الروحي حتى وصفه البعض بأنه كان من البكّائين المتأثرين بالنصوص القرآنية وسير الصالحين. عاشت السيدة زبيدة 32 عاماً بعد وفاة هارون الرشيد ، وتُوفيت في بغداد سنة 216هـ الموافق 831م بعد أن عاشت في ظل عبد الله المأمون معزّزة مكرّمة كما كانت في عهد أبيه. وكان المأمون يعاملها معاملة الأم ، وكثيراً ما كان يلجأ إلى مشورتها في أمور الدولة ، ويقبل برأيها ، حتى لو كان مخالفاً لما يراه هو شخصياً. لقد أدركت الأميرة زبيدة قيمة الوقت في حياتها ، كما أنها أيقنت قِصر الحياة! ومن هنا فلقد حرصت على استغلال العمْر ، فأنجزت في عقود من عمرها ما لا يستطيع الرجال إنجازه في قرون! وعلى حد تعبير الأستاذ أحمد نواف المواس عندما تحدث عن قيمة الزمن في حياة المسلم فأحسن إذ قال ما نصه: (كل شيء من حولك يذكرك بقيمة الوقت والزمن الذي تعيشه ، طلوع الشمس وغروبها ، والقمر الذي قدره الله منازل ، كل يوم تراه أصغر أو أكبر من اليوم الذي قبله ، حركة الكون والكواكب ، السماوات والأرض ، كل هذه الأشياء تذكرك بقيمة الزمن الذي هو رأس مالك. ألا إن أركان الإسلام: تذكرنا بقيمة الزمن ، فالصلاة التي فرضها الله في كل يوم وليلة خمس مرات ، كلما مر وقت من أوقاتها ذكرك بأنه قد مر عليك زمن ، ودخل زمن جديد ، هذا في اليوم. أما في الأسبوع ، فصلاة الجمعة تذكرك بقيمة الزمن ، فإذا جاء يوم الجمعة ، نسمع كثيراً من الناس يقولون: والله ما أحسسنا كيف مرت هذه الجمعة. والصوم يذكرك بقيمة الزمن ، فإذا دخل رمضان جديد قلت بينك وبين نفسك: لقد مضى علي عام ، ودخل عام جديد ، ونقص من عمري سنة. والزكاة التي تخرجها عندما يحول الحول ، وأنت تخرجها ، تؤدي عبادة وفريضة وتتذكر ، أنه مر على مالك حول كامل ، وهذا الحول مر عليك أيضا وأخذ من عمرك سنة فتتذكر قيمة الزمن. والحج الذي فرضه الله تعالى في العمر مرة واحدة ، يذكرك بقيمة الزمن ، فعندما تحج وتؤدي هذه الفرضة العظيمة ، تشعر بأنك قد تقربت إلى الله تعالى أكثر ، وكذلك تشعر بأنه قد مضى من عمرك كذا وكذا من السنين فتصبح تستعد لما بقي. وحتى لو لم تحج ففي كل عام ، وعندما تودع الحجاج الراحلين إلى بيت الله ، تأخذك عبرة من البكاء على رحيل وفراق أناس أحببتهم ولا تدري أتلتقون مرة أخرى ، أم لا تلتقون. وكل هذه الأشياء ، وأشياء أخرى كثيرة ، في هذا الكون من حولنا ، تذكرنا بقيمة الزمن ، فهل شعرنا بذلك ، وهل عملنا لذلك. ولقد جاء في الأثر الحق أنه "ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة". وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: "يا ابن آدم إنما أنت أيام إذا ذهب يوم ذهب بعضك". وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما ندمت على شيء ، ندمي على يوم غربت شمسه ، نقص فيه أجلي ، ولم يزدد فيه عملي". وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "الليل والنهار يعملان فيك". ويقول الإمام الشافعي رحمه الله: "صحبتُ الصوفية ، فاستفدت منهم خصلتين فقط: الوقت كالسيف ،إن لم تقطعه قطعك ،ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر". وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نقول عندما نستيقظ من النوم: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ). ومعنى هذا الدعاء: الحمد الله الذي سمح لي أن أعيش يوماً جديداً. وهناك آية في

القرآن تخبرنا بأن الله تعالى أقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي قوله تعالى: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون}. والسؤال: لماذا يقسم الله تعالى بعمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ والجواب: لأنه لم يضيّع لحظة واحدة من حياته صلوات ربي وصلامه عليه).هـ. والحقيقة أنني حافظتُ ما استطعتُ في هذه السيرة وتلك المسيرة عن الأميرة زبيدة بنت جعفر على الأسلوب العربي الأصيل ، كما أنني توخيت الدقة كلها في التثبت من الأخبار والأحداث! وتركت الكثير لعدم ثبوته عنها وللمبالغة الظاهرة في كيل المدائح أو العداوات لها بغير حق! كما أنني تجنبت تماماً أي صفة حداثية في الكتابة ، لا في الأسلوبية ولا في النمط ولا في الصياغة! لأن المستقبل دائماً يكون لحقائق الأشياء وليس للزيوف ولا للأكذوبات المبالغ فيها! ونقلاً عن مكتبة الإثنينية نورد ما قاله الدكتور بدوي أحمد طبانة تحت عنوان: (مستقبل الشعر العربي) بالنص: (لا يستطيع واحد من المنصفين أن ينكر على نفوس البشر ما جبلت عليه من التطلع إلى الجديد من أنساق الحياة المادية التي تحياها ، وفي مجالات التفكير العقلي التي تخوض فيها ، متى وجدت سبيلاً إلى هذا الجديد الذي تصير إليه ، لأن في طبيعة هذه النفوس الرغبة الملحة في الانعتاق من الإطار الذي ألفت نفسها مقيدة فيه ، والانطلاق من الإسار الذي ورثته ، وعاشت تصحبه زمناً طويلاً ، إذا أحست بالرتابة المملة في تكراره ، واستقرار حياتها في إساره ، لتطل من واقعها الرتيب على آفاق جديدة ، وترى عوالم للحياة أو للفكر والفن ليس لها به ألفة ، ولا سابق عهد. ولا يستثنى من ذلك الموروث أو المألوف إلا ما يتصل بالعقائد وأحكام الدين ، وإلا ما ثبت باليقين الذي لا شبهة فيه من حقائق العلم وألوان المعارف ومن الفضائل النفسية التي تعرفها الفطرة السلمية ، ولا تقبل التغيير بحال. وليس من سبيل إلى إنكار تلك الحقيقة ، وهي أن اتصال عالمنا العربي بالحياة الجديدة عند الأوروبيين أو الأمريكيين أو غيرهم من أمم الشرق أو الغرب قد أدى إلى تفاعل ملحوظ برزت آثاره في الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة الثقافية ، وأن هذا التفاعل كان في مقدمة الأسباب التي أدت إلى النهضة الكبيرة التي تشهدها الأيام الحاضرة في جوانب كثيرة من حياة الأمة العربية. وقد حظي الأدب العربي بحظ كبير من هذه النهضة الشاملة بتأثير ذلك التفاعل الذي أفاده حيوية ونشاطاً ، وبحثاً عن مجالات جديدة للإبداع ، يسابق فيها ركب الحياة الأدبية المتحرك في العالم الإنساني ، وتشعل تلك الجذوة الخامدة في نفوس أدباء العربية ، لتنهض من غفوتها ، وتستعيد سيرتها الأولى في النشاط والعطاء. وفن الشعر هو أبرز الفنون عند العرب ، وأكثرها تفاعلاً مع نفوسهم وتأثير حياتهم. ولذلك حرصوا عليه كل الحرص ، واعتدوا به أيما اعتداد ، لصدقه في وصف حياتهم ، والإشادة بأمجادهم ، وتعبيره الصادق عن عواطفهم وأمانيهم ، وخلجات نفوسهم. وسار الشعر في ركاب أصحابه مسيرة طويلة ، وهو محتفظ بأصالته ، وقوته ونضارته ، متأثراً بقوة الدفع الأولي ، يصحب العرب في مسيرتهم في الحياة ، ويعيش معهم في البلاد التي ارتحلوا إليها ، وفي المواطن التي استقروا فيها ، وكلما خفت قوة الدفع بطول المسيرة تولدت قوة دفع أخرى جديدة ، بفعل الحياة الجديدة وآثار الحضارة التي لم يكن لشعراء العرب الأولين عهد بها ، وبالشعراء من أبناء تلك المواطن الذين أصبحت العربية لسانهم ، وتعلقوا بهذا الفن الشعري حتى نبغوا فيه ، وكان ذلك رافداً جديداً ، زاد الشعر العربي نضارة وازدهاراً. واستمر الشعر العربي يمتاح من هذه الروافد قديمها وجديدها، حتى كانت عهود من الضعف والتخلف عاشت فيها الأمة العربية ، وعانى فيها هذا الشعر ما عانى أصحابه في سائر دروب الحياة ومسالكها. وفي هذا العصر الحديث نشط الشعر من عقاله ، ودبت فيها الحياة ، ونفقت سوقه نفاقاً مشهوداً. وكان من عوامل هذا النهوض في دولة الشعر ارتياد الشعر العربي القديم ، وبعث الحياة في روائعه المأثورة عن طريق جمعها وطبعها ، وإقبال الشعراء على حفظها ، والتزود من

أساليبها وصورها ومعانيها ما يعين ملكة الشعراء الموهوبين على الإفصاح عن مكنون شاعريتهم ، والتعبير عن تجاربهم في أبهى صورة ، وأزهي بيان. وذلك هو سبيل البارودي إلى الإجادة والإبداع حتى وصفه مؤرخو الأدب بأنه رافع لواء نهضة الشعر الحديث. وهو وصف جيد لدلالته على الانتكاسة التي أصابت الشعر العربي في الصميم. وهو أيضاً السبيل الذي احتذاه كثيرون من كبار شعراء العربية المحدثين. ثم كان هذا الرافد الجديد الذي أتاح لهؤلاء الشعراء فرصة الوقوف على اتجاهات الفن الشعري في الآداب الأجنبية ، والإفادة مما تمكن الإفادة منه من هذه الاتجاهات. وقد كان من المتوقع أن تطرد العناية بهذا الشعر حتى يزدهر ويستوي على سوقه. وقد قطع الشعر فعلاً أشواطاً بعيدة في مسيرته ، وفي سبيل الوصول إلى غاياته ، واستعادة مجده القديم ، فنشطت فنونه المعروفة ، وتجددت في معانيها لتعبر عن الحياة الجديدة في سيرها الحثيث ، وعظمت عنايته بشئون السياسة. ووصف أحوال المجتمعات وعللها التي تقعد بها عن بلوغ ما تطمح إليه من المنزلة بين الأمم والجماعات الإنسانية. واستطاع هذا الشعر أن يتجاوز الغنائية التي طبعته بطابعها في العصور الخالية ، وبرز الشعر التمثيلي جنساً أدبياً كبيراً ، وفناً عربياً متكاملاً بين فنون الشعر المعروفة ، واستمتع به خاصة المتأدبين قراءة وتأملاً ، وشاركتهم في تذوقه وفي الاستمتاع به ممثلاً على خشبات المسارح من لا يحصون عدداً من سائر طبقات الأمة. وبذلك أصبح هذا الشعر التمثيلي مدرسة لتهذيب العواطف ، وشحذ الهمم ، وتثقيف العقول ، وتعريفها بأحداث التاريخ ، ووصف خلجات النفوس ، وسبحات الخيال ، في الحدود التي تسمح بها طبيعة الفن الشعري. وكان فضل الريادة في هذا الجنس الشعري ، كما هو معروف لأحمد شوقي كبير شعراء العربية في هذا القرن بعد أن شهد روائع من هذا الشعر المسرحي الذي صنعه الشاعر الإنجليزي الكبير وليم شكسبير وهي تمثل على خشبات المسارح في أوروبا. وقد فتح شوقي بمسرحياته الكثيرة التي ألفها فتحاً جديداً في عالم الشعر العربي ، واقتدى به في تأليف الشعر المسرحي جماعة من شعراء العربية الموهوبين ، تفاوتت منازلهم في درجات الإجادة والإتقان. وقد شغل هذا الفن الجديد الحياة الأدبية في العالم العربي ، فكثرت حوله الكتابات التحليلية والدراسات النقدية في الصحف والمجلات ، وألفت كتب خاصة تدرس هذا النتاج وتحلله وتنقده وتوازن بينه وبين غيره ، وهي كتب كثيرة منها * قمبيز في الميزان * للعقاد، و* مسرحيات شوقي * لمحمد مندور ، و* مسرحيات عزيز أباظة * لعبد المحسن عاطف سلام ، كما كانت هذه المسرحيات موضوعات لرسائل جامعية حصل بها أصحابها على درجات علمية. وبذلك نشط النقد من عقاله بعد أن وجد له مجالاً فسيحاً ، يصول فيه النقاد العرب ويجولون ، ويحاولون التعرف على أصول هذا الشعر المسرحي عند الأمم التي سبقتنا إليه ، وكانت لها قدم راسخة في تأليفه ودراسته ونقده وفق الأصول التي وضعها له كبار النقاد. وليس هناك من شك في أن هذه الدراسات المستحدثة كانت عاملاً فعالاً في نموّ الوعي الأدبي ، والتعرف على قيم جديدة لم تكن معروفة عندنا من قبل ، كما كانت مصدراً من مصادر ثقافة النقاد التي كان من الضروري لهم أن يحصلوها وأن يثقفوها ، حتى يتقبل الشعراء والأدباء آراءهم في هذا المجلس الجديد الذين يعرضون لتقويمه ونقده. وهكذا دبت الحياة في الشعر العربي ، وبعث من رقدته ، ليجاري ركب الحياة الجديدة ، والوعي الجديد ، ويعبر عنهما بلغته الممتازة ، وموسيقاه العذبة المتنوعة في بحور الشعر وأنساقه الموروثة ، وفي نظام القوافي الموحدة التي تنتظم هذه الموسيقي وتكملها ، كما ألفتها الأذن العربية ، وطربت لها ، ورضيت عنها ، وتأثرت بها طوال خمسة عشر قرناً أو تزيد. ولا حاجة بنا إلى القول بأن تلك الأنساق المتعددة لقوالب الشعر لم تكن من عمل ناقد ، أو وضع عالم ، أو اقتراح متطفل على موائد الشعر والأدب. وإنما كامن من صنيع الشعراء أنفسهم ، وهم الذين اهتدوا إليها فنهم ،

وأسرار الإبداع فيه. وشأن الشعر في ذلك شأن سائر الفنون ، لا يستثني فن منها ، فإن كل أصل من أصولها ، وكل ظاهرة من ظواهرها إنما هي من ابتداع أرباب تلك الفنون ، ولم يكن لواحد من العلماء أو النقاد أثر في ذلك ، وإنما كان قصارى جهدهم التعرف على تلك الأصول أو الظواهر ، والكشف عن حقائقها ومحاولة الوقوف على وجوه الإبداع فيها ، وأسرار التأثر بها. وهم في ذلك كله لا يرجعون إلى منطقهم ولا إلى عقولهم ، وإنما يرجعون إلى طبيعة تلك الفنون التي عرفوها في أعمال أولئك الذين يعتد بهم من أرباب تلك الفنون. وخلاصة ما نقول في هذا المقام أن (الفنية) كامنة في نفس صاحبها ، وأن هذه النفس هي التي تجود بمكنونها ، وما أودع فيها مما يروق ويشوق ، ونصبها في القوالب والأشكال التي تهتدي إليها بفطرتها. ونحن لم نرَ هذه الأعمال الفنية إلا في صورتها الكاملة مصبوبة كلها في قوالبها ، ونحس بما تتضمن من حسن الجمال ، ونحاول أن نتبين ، أو نستكشف أسباب إعجابنا ، أو أسباب إحساسنا بهذا الجمال. والمثل في ذلك الوردة أو الزهرة التي تروعنا بجمال منظرها ، وتنسيق وريقاتها ، وبهجة ألوانها وعبير أريجها. إننا لا نهبها شيئاً من هذا ، ولكننا نحس بذلك كله ، ونستمتع بهذا الإحساس ، ثم نعبر عن مشاعرنا بالإقبال على ما أعجبنا ، والإعراض عما كرهنا ، أو بالألفاظ المنطوقة أو المكتوبة التي يتفاوت فيها الناس. وإنما ذكرنا هذا لنؤكد ما قررناه ، وهو أن قوالب الشعر وأنماطه التي وصلت إلينا كانت أنماطاً طبيعية اهتدي إليها الشعراء بفطرتهم أو بفنيتهم ، وتقبلها النفوس ، واطمأنت إليها الأذواق ، لأنها وجدت فيها ما يحقق غاياتها من هذا الفن الإنساني العريق الجميل. ونعود إلى حديثنا عن نهضة الأدب التي أصاب الشعر منها حظ عظيم ، وإلى النقد الأدبي الذي انبعث ليرصد تلك المسيرة الجادة في الفن الشعري ، وليتابع تلك النهضة المتطلعة إلى الأمام. وكذلك كان للنثر الأدبي نصيب كثير منها ، فقد برز الفن القصصي بصورة واضحة بين أجناس الأدب ، وتعدد أنواع القصص وموضوعاتها ، وكثرت القصص المترجمة والمقتبسة في أول الأمر ، ثم استقل كتابها بالتأليف في موضوعات تعرض لمشكلات المجتمع ، وأحداث التاريخ ، وشخصياته التي كان لها دور بارز في تلك الأحداث. ولمعت في سماء الأدب أسماء لفيف من الأدباء الذين تخصصوا في كتابة القصة ، وعظم اهتمام الجماهير بهذا الفن الذي زاحم فن الشعر في الذيوع والانتشار حتى كاد يطغى عليه ، وعلى فنون الأدب بعامة ، باستثناء الفن المسرحي ، وهو أيضاً يعتمد اعتماداً كبيراً على فن القصة. وإذا تجاوزنا أجناس الأدب المنثور التي أشرنا إليها سريعة في هذه الكلمات ، فإننا نعود إلى جوهر موضوعنا الذي يتصل بهذا الأدب المنثور، فقد برز جماعة من الأدباء الكاتبين الذين تذوقوا أساليب النثر الرفيعة في عصور ازدهار الكتابة العربية ، وحذقوا لغة العرب ، وتمرسوا بآدابها ، ووقفوا على أسرار عبقريتها ، ونهلوا من الثقافات التي تفجرت ينابيعها هنا وهناك ، فزاولوا صناعة الكتابة ، واشتهروا بجودة الأسلوب ، ونصاعة العبارة ، وافتنوا في نظم الكلام الجيد الجميل ، وحملوا كتاباتهم ما شاءوا من الأفكار والعواطف التي تضطرب بها جوانحهم ، ومن الأخيلة التي صورتها تأملاتهم المتأنية ، واستغراقهم في تجاربهم العاطفية والشعورية ببيان مشرق خلاب ، من أمثال السيد توفيق البكري ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد حسن الزيات ، وغيرهم من حملة الأقلام الذين أخذوا بألباب جمهرة القارئين ، بما وجدوا في كلامهم المنثور من تخير اللفظ وجودة السبك ، وجمال التصوير ، وروعة التخيل ، وتناسق التراكيب ، ورنين فقرها وفواصلها ، مما كانوا يجدونه في أساليب كبار أدباء العربية إبان نضرتها وازدهارها ، وما يجدونه كذلك في روائع الشعر المنظوم. ولم يجدوا ما يفرقون به بين الشعر وهذا النثر الفني سوى أن المضمونات والأخيلة والصور في فن الشعر قد صبت في قوالبها وأشكالها المأثورة ، وأن النثر الفني قد تحرر من تلك

القوالب والأشكال. ولقد سوغ هذا التشابه الكبير بين الفن الشعري والنثر الفني في الأثر الذي يحدثه كل منهما في نفوس المتألقين أن يطلق بعض الأدباء أو النقاد على ذلك النثر اسم *الشعر المنثور* في الدلالة على ذلك النثر الذي تأنق فيه كاتبوه ، وأبدعوا في صياغته. فقد تقبلت الأذواق هذه التسمية التي احتفظ فيها بالوصف الدال على نسق الكلام. وحفلت الحياة الأدبية بالشعراء الموهوبين ، وبالكتاب المبدعين ، وبالخطباء المفلقين ، وبالقصاص البارعين. وحفلت كذلك بالنقاد العارفين الجادين الذين ربما تجاوز بعضهم دائرة الجد والاعتدال في تناول الأعمال الأدبية إلى درجات من التطرف والعنف في محاسبة الأدباء. ومن وراء هؤلاء وأولئك جماعات من المتأدبين تهذبت أذواقهم بكثرة ما يقرءون من النتاج الجيد ، ومن النقد الذي يبصرهم بفنون الأدب ، ويعينهم على تذوقها ، وتمييز جيدها من رديئها. حتى إذا أراد بعض النثار ، أو أراد لهم بعض النقاد أن يسموا نثرهم الفني أو * شعرهم المنثور * شعراً من غير وصف يفصله عن النثر ، أو يميزه من الشعر بمفهومه الواضح المعروف عند العامة والخاصة. قالوا: ولم لا يكون أولئك النثار شعراء؟ أليس فيه من العاطفة والتخييل والتصوير ما يمتع النفوس ويشبع العواطف في مثل ما في الكلام الذي أجمعتم على تسميته شعراً؟ فإن قيل لهم إن للنثر الأدبي المأثور عن العرب من التأثير ، وفيه من الجمال ما لا يقل عن جمال الشعر بحال ، وفيه ما عد به أصحابه في الطليعة من أمراء البيان في الأدب العربي. قالوا: هذه شهادة لنا لا علينا. ولذلك كنا حراصاً على وحدة الألقاب. فإن قيل لهم: فلم تصرون على زحزحة الأسماء عن مسمياتها ، والألفاظ عن مدلولاتها ، وفي الشعر موسيقي تنتظمها البحور والأوزان والقوافي كما عرفناها فيما روينا من الشعر العربي؟ قالوا: قد سئمنا هذه الرتابة في الشعر * العمودي *. وعندنا الموسيقى في *التفعيلة* ، ورب تفعيلة خير من تفعيلات ، وقد يكون في القليل ما يغني عن الكثير. وهذه سلسلة لا تكاد تنتهي حلقاتها من الجدل العقيم الذي لا جدوى من استمراره في أمور يحتكم فيها إلى الذوق ، وإلى تقاليد كل فن. وكأن هذا الجدل العقيم قد أصبح جزءاً من كياننا ، أو لازمة من لوازمنا ، أو ظاهرة من ظواهر حياتنا العقلية أو الفكرية. أو كأن هذا الجدل حتى فيما لا يقبل الجدل ، وفيما نحن مقتنعون بصحته ـ علامة على الوجود ، ودليلاً على تمتعنا بالوعي وقوة الإدراك. وإن شئت فقل إنه دليل على القدرة على * استعراض العضلات * ، إن لم نكن من أصحاب العضلات! فإذا أعوزنا الدليل ، ولم تسعفنا الحجة على الغلبة على أصحاب الرأي الآخر ، وجدنا العون جاهزاً ، والمدد مسعفاً في الشتم والسباب ، من غير حساب ، وربما في استخدام * العضلات *. ثم تضل الحقيقة في طريقها في الظلام ، أو في الزحام ، ولا يعنينا بعد ذلك أن تهدر القيم ، أو أن تضيع الحقائق. وفي رأيي أنه ليس هناك خلاف بين القوم على حقائق الأشياء ، وإنما ينحصر الخلاف بينهم في الألقاب أو في الأسماء. إن * الكمثرى * و* التفاح * فاكهتان طيبتان ، يعرفهما كثير من عباد الله ، يتفكهون بكل منهما ، ويحمدون ربهم على ما رزقهم من الطيبات ، وما أخرج لهم من الأرض. والفاكهة جنس ، تندرج تحته أنواع ، فالكمثرى نوع ، والتفاح نوع ، كما أن العنب والرمان والموز والتين وغيرها كلها أنواع من الفاكهة ، يختص كل منها بما يميزه من غيره من أفراد الجنس ، في الشكل واللون والحجم والرائحة والمذاق ، يفضل بعضها بعضاً في الأكل ، ويختلف الناس في إيثار بعضها على بعض. وفي كل نوع من هذه الأنواع ما هو جيد بالغ الجودة ، وما هو ناضج تام النضج ، ومنه ما هو رديء لا يستساغ ، لأنه ما يزال فجاً أو نيئاً لم يبلغ درجة النضج ، أو لأنه جاوز مرحلة النضج إلى درجة العطب والفساد ، أو لأن آفة من الآفات حالت بينه وبين الوصول إلى الصورة المشتهاة. وفي كل حال يحتفظ كل نوع باسمه الذي وضعه له أصحاب اللغة ، أو اصطلح عليه ورثتهم في تلك اللغة ، فالتفاح هو التفاح ، والكمثرى هي الكمثرى ، والعنب هو العنب ، والتين هو التين.

وليس من حق فرد أو جماعة أن تزيل الاسم عن مسماه ، فتسمي التفاح كمثرى ، أو التين عنباً ، وإلا اختلطت اللغة ، وفقدت الألفاظ دلالتها على ما وضعت له. ولم يكن لذلك الصراع الذي نشب بين أنصار القديم ودعاة الجديد من جدوى بقدر ما أحدث من فوضى واضطراب بين الشعراء ، وبلبلة في سوق الأدب. وأبرز النتائج التي أدى إليها ذلك الصراع هو تحول بعض الشعراء عن القوالب والأشكال المأثورة إلى قرض الشعر المتحلل منها ، وكان الذي دعاهم إلى هذا التحول خوفهم أن يتخلفوا عن الركب ، وأن يفوتهم القطار الذي غرهم صفيره ، وعرفوا قلة مؤونته ، وخفة محمله في عدم الالتزام ببحر من بحوره المعروفة وما يقتضي هذا الالتزام من معرفة عروضية بما يجوز أو يمتنع في هذا البحر أو ذاك ، وفي عدم الالتزام بنظام القوافي ووحدتها في العمل الشعري الواحد ، وذلك الالتزام يكلف الشاعر جهداً في التنسيق ، ومعرفة واسعة باللغة ، لتعينه هذه المعرفة على تخير الألفاظ الجيدة التي تأتلف مع ألفاظ البيت ووزنه ومعناه. وقد غر هذا التحول بعض الذين لم يعرفوا من الشعر إلا اسمه ، فساروا في الطريق ، وقلدوا في التجديد ، وحسبوا أن كل كلام لا معنى له ، ولا نسق ينتظم أجزاءه يمكن أن يكون شعراً. ووجد هؤلاء المخدوعون جداول الصحف ، وصحائف المجلات تتسع لنشر نتاجهم المتهافت الهزيل ، كما وجدوا من يشجعهم على المضي في الطريق ، ومن يدافع عن ضعفهم واستخفافهم بهذا الفن الإنساني الرفيع. أما عامة المتأدبين فقد زهدوا في الشعر بنسقه المأثور بعد أن رأوا زهد أصحابه فيه ، وتحولهم عنه ، وتفاقم الثورة عليه من أصحاب الجديد الذين لم يجدوا في أكثر أعمالهم البديل عمّا فقدوه أو ضيعوه. وقد دهش الناس أشد الدهش حينما طرقت أسماعهم عبارة * الشعر المنثور * ، وهم أشد عجباً وإنكاراً حين تخرق آذانهم عبارة * قصيدة النثر * ، وليس أضل في التجديد ، أو في * التحديث * من هذه البدعة الممسوخة ، التي تدل على استخفافٍ بالفن ، وجهل فاضح بأصوله ومقوماته. وبذلك ضاع القديم ، ولم تقم دولة للجديد. أما المستقبل فعلمه عند الله. أقول هذا وأنا أعرف أن هناك عدداً كبيراً من كبار شعراء العربية المجيدين قد صمدوا في هذا الصراع ، ولم تبهرهم دعوة التجديد ، فلم يركبوا هذه الموجة ، ولم يجرفهم تيارها ، فظلوا على عهدهم ، يعزفون لحونهم على قيثارتهم الأصيلة ، ومنهم في العراق حافظ جميل ، ومحمد مهدي الجواهري ، وخالد الشواف ، وعاتكة الخزرجية. وفي المملكة العربية السعودية محمد حسن فقي ، وطاهر زمخشري ، وعبد الله بن خمسين ، وحسين عرب ، وعبد الله بالخير ، وحسين سرحان ، وعبد الله بن إدريس ، ومحمد علي السنوسي ، وأحمد سالم باعطب ، ومحمد سعيد العمودي ، وزاهر الألمعي. وأعتقد أن في مقدمة الأسباب التي حملت هؤلاء الشعراء المبدعين وأندادهم على الصمود والحفاظ على تقاليد الشعر العربي في قوالبه وأشكاله ، حرصهم على وصل نتاجهم بالتراث الحافل الذي أبدعه أسلافهم من فحول الشعراء ، ثم ثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بشاعريتهم ، يضاف إلى هذين العاملين ما حصلوا من ثقافة لغوية ، وثقافة أدبية وجدوا فيهما ما أعانهم على الوفاء بما أرادوا من التعبير عن أغراضهم وعواطفهم وتجاربهم في حلة زاهية من البيان المشرق الأخاذ. ويبقي السؤال بعد ذلك. أما تزال حياتنا في هذا العصر الحضاري في حاجة إلى الشعر؟ وإذا كان الشعر ضرورياً للحياة الإنسانية في سائر عصورها ، وفي مختلف ظروفها ، فما السبيل إلى استبقائه؟ وكيف نعمل على إحيائه؟ والجواب أن أولئك الذي فتنتهم الحضارة المادية ، وأخذ بألبابهم ما شهدوه من آثار الثورة الصناعية ، وما استطاع العلماء أن يحققوه بتجاربهم في مختبراتهم ، وما قدموه للإنسانية من ثمرات هذه المعاناة وذلك الكفاح مما تنعم به البشرية اليوم ، وتراه حقيقة ماثلة ، بعد أن كان وهماً أو خيالاً يداعب أحلامها. هؤلاء يرون أن الشعر العربي لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب العبث ، وعملاً من أعمال الفراغ ، تدفع إليه البطالة التي يجد أصحابها

الوقت ، ولا يجدون العمل الجاد النافع الذي يملئون به هذا الفراغ ، وأحرى بهؤلاء الشعراء أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الكسل ، وأن يبحثوا لأنفسهم عن عمل من الأعمال النافعة يشاركون به في بناء المجتمعات التي يحيون في ظلالها. وهذا الرأي قريب جداً من رأي حكماء اليونان القدامى الذين صرح واحد من أعلامهم أن فن الشعر قد طلق الحقيقة تماماً ، وأنه بعد ما يكون من أعمال العقلاء يقدرون ما وهبهم الله من الفطنة والذكاء. وقد كان فن الشعر أكثر الفنون الأدبية التي دار حولها نقاش طويل ، وثار فيها جدل كثير في هذه الحقبة من الزمان. ولم يخل هذا الجدل من عنف أدى إليه التعصب لهذا الرأي أو ذاك بين المحافظين الذي تمسكوا بتقاليد الشعر الموروثة التي رأوا فيها مثلاً ينبغي احتذاؤها ، لأنها ثمرة معاناة ، وخلاصة تجارب ، ارتضتها أذواق أولي البصر بهذا الفن الجميل على مر العصور ، والمجددين الذين حاولوا الفكاك من تلك التقاليد التي عدوها قيوداً تحد من حريتهم ، وتحول بينهم وبين الإبداع المنشود ، والانطلاق إلى آفاق أوسع ، ومجالات أرحب. وتناولت هذه الثورة فنون الشعر وأغراضه ، ومعانيه ومضموناته ، ولغته وأشكاله ، ولذلك حظي فن الشعر بالحظ الأوفر من التأمل والدراسة في هذه الفصول. ولم يعدم فن القصة حظه في هذه الفصول ، وإن جاء هذا الحظ متواضعاً ، تناولت فيه النتاج القصصي لواحد من كتاب القصة في المملكة العربية السعودية لا يعرفه عامة أهل الأدب في عالمنا العربي، لحداثة مولد هذا الفن في ذلك البلد العربي العزيز. أما سائر فنون النثر فقد شهدت صحوة في أوليات هذا القرن ، وبخاصة فن الخطابة الذي نشط نشاطاً ملحوظاً في الثلث الأول فيه بتوافر الدواعي إليه ، وأهمها دواعٍ سياسية ، في مقدمتها الإحساس بوطأة الاستعمار والدعوة إلى مناهضته ، وتخليص الوطن من شروره وبغيه ، واستعادة ما ضيع من حرية الأمة ، وما سلب من عزتها وكرامتها ، ثم تعدد الأحزاب الوطنية ، ودعوة كل حزب منها إلى المبادئ التي يؤمن بها، وفي مقدمة تلك الأحزاب الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل ، والوفد المصري بزعامة سعد زغلول ، وقد برع في هذه الخطابة هذان الزعيمان وأشياعهما وخلفاؤهما الذين ارتقوا المنابر ، فأشعلوا جذوة الوطنية واستثاروا حميّة الجماهير التي هبت للجهاد في سبيل الأوطان. كما شهدت تلك الفترة نشاطاً في مجالات التأليف والترجمة. وكان لهذا النشاط أثر بالغ في نشر المعرفة والثقافة العلمية والفنية. وظهرت في تلك الفترة طبقة من الكتاب برزت في كتاباتهم خصائص النثر الفني التي تتجلى في قوة الأداء ، وإحكام العبارة ، والتأنق في الصياغة. واستطاعت تلك الطبقة من الكتاب أن تعيد النثر الفني إلى عهود نضرته وازدهاره ، وأن تذكرنا بالجاحظ وعبد الحميد وابن العميد والصاحب ابن عباد وأبي حيان ، وأضرابهم من زعماء الكتابة في العصر العباسي. ومن أعلام هذه الطبقة السيد توفيق البكري ، وحفني ناصف ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى صادق الرافعي ، وعبد العزيز البشري ، وأحمد حسن الزيات ، وغيرهم من أصحاب الأساليب. وقد انقضت بوفاة هؤلاء الأعلام دولة النثر الفني لتحل محلها الكتابة الصحفية التي لا ترقى إلى وصفها بالكتابة الأدبية ، وإن كان بعضها يعالج موضوعات أدبية ، وذلك أنها لا تكتب للخاصة ، وإنما تخاطب الجماهير ، وفيها أوساط من الناس ومن دونهم ممن يعرفون القراءة والكتابة. ولم يحدث في تاريخ الأدب الحديث ما يمكن أن يوصف بأنه قضية من قضايا الأدب المنثور مثل تلك القضايا التي أثيرت حول الفن الشعري ، اللهم إلا كلمات كتبها الدكتور طه حسين في نقد بعض ما كتب الرافعي ممّا رأى أنه أشبه بأساليب القرن الرابع الهجري ، والتي لا تناسب هذا العصر الذي تغيرت الحياة فيه في كل شيء ، وكلمات كتبها الدكتور زكي مبارك في نقد أسلوب الشيخ عبد العزيز البشري. وقد شن سلامة موسى حملة شعواء على هذا النثر وعلى أصحابه الذي سمى أدبهم أدب الفقاقيع. وإذا كنت قد عنيت في هذه الفصول

بالأدب الحديث وبخاصة فن الشعر وقضاياه التي أثارها الشعراء ، وشغل بها النقاد المعاصرون ، فقد عرضت لبعض الاتجاهات الفكرية والأدبية التي تبناها جماعة من الكتاب ، أو من دعاة التجديد. وكذلك عرضت هذه الفصول للتنويه ببعض الشعراء والمفكرين في هذا العصر. وقد اجتذبتني شخصيات من أعلام الأدب القديم كان لهم ذكر في مختلف العصور ، وحظوا بأرفع المنازل عبر التاريخ الأدبي لهذه الأمة ، وبقيت لهم هذه المنزلة في نفوس الخبراء بالفن الأدبي ، والعارفين بجهات الإبداع الفني إلى زماننا ، وأعتقد أنها ستبقي ما دامت للأدب دولة في عالمنا العربي ، فخصصت بعنايتي ثلاثة من أولئك الأعلام هم الإمام علي بن أبي طالب ، وبديع الزمان الهمذاني ، وأبو الوليد أحمد بن زيدون. وقد حرصت على تضمين هذه الفصول شيئاً مما كتبت عنهم ، أو عن أيديهم ، وهو أدب يدعو إلى التأمل والتقدير ، ليكون تبصرة وذكرى لكل من يطمح إلى أن يكون له مكان في تاريخ الأقداذ النابهين من الأدباء الذين لا يموت أدبهم بانقضاء آجالهم في هذه الحياة الدنيا. ومما تنبغي الإشارة إليه أن الفصول التي تضمنها هذا الكتاب إنما هي مختارات من كتابات كثيرة ، سطرها القلم في فترات مختلفة من العمر ، وأن فيما يطالعه القارئ فيه فصولاً مضى على كتابتها أكثر من ربع قرن ، وأن كثيراً مما يقرأ في هذا الكتاب سبق نشره في مجلات أو في صحف أدبية في مصر وغيرها من البلاد العربية ، إذ حرص القائمون عليها على أن ينشروا شيئاً من آثار هذا القلم الذي أحسنوا الظن بصاحبه ، وهو ما زال معتداً بها ، حريصاً على ما أبقاه الزمن منها ، حرص الأب الشفيق على بنيه ، وكلهم قريب إلى نفسه ، حبيب إلى قلبه ، وإن اختلف مشاربهم ، وتفرقت بهم السبل في الحياة. وأشعر الآن بكثير من الرضا والاغتباط بعد أن رأيت في حياتي هذه الأشتات المنثورة مجموعة بين دفتي كتاب يحفظها ، ويقيها عوادي الزمان. ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحمد في الأولى والآخرة).هـ. والحقيقة أن كل شاعر منصف إن أراد أن يصف حياة الأميرة زبيدة بنت جعفر ويبرز للناس معالم شخصيتها ويظهر مناقبها الفذة التي ميزها الله تعالى بها عن سائر نساء زمانها ، لوقع في حيرةٍ كبيرةٍ قياساً على القواعد التي أسلفناها والأصول النتي وضعناها! ومازال الشعراء يُقصدون فيها القصائد منذ ولدتْ إلى أن ماتت – رحمها الله -! وقد رثاها مسلم بن عمرو الخاسر الشاعر البصري ، بعد رحيلها بقصيدة ظلت باقية حية في أذهان بني العباس ، يتذكرون أخبارها وأخلاقها وثقافتها المميزة ، وظلوا يتناقلون أفعالها في أرجاء الجزيرة العربية).هـ. والله حسيبها ووكيلها. ولا نزكي على الله ربنا أحداً ، ونحسبها هكذا. وأجعل هذه القصيدة من قبيل التعريف بها ، وإن هذا لشرف لي عند الناس وعند الله تعالى!
شرف عظيم أن أنشد شعري ، في دُرَّة الإسلام والمسلمين وقمر بني العباس المضيء زبيدة بنت جعفر!)

(زُبيـدُ) حُـزتِ الـذرى فـي الأصـل والنسـبِ ... يـا دُرة سـطعت فـي أمـة العـرَبِ

ولا أزكّـي - علـى الـرحمن - دُرّتنـا ... بـل أكْبِـر الـدُّرة العصـماء عـن رغـب

حسـيبُها الله مـن مـدح يُجَملهـا ... فتلـك أسـمى مـن الأمـداح والخطـب

والشـعرُ يَفخـرُ إذ يُطـري مُوَفقـة ... لله يمـدحُ ، لا للمـال والقـرَب

وللقـوافي صَـدىً فـي ذِكـر سِـيرتها ... لأنهـا جَمّـة الأخـلاق والأدب

والـــــوزنُ يَطـــــربُ إنْ عُـــــدّتْ مناقبُهـــــا ... حتـــــى يبيـــــتنّ رهـــــنَ اللحـــــن والطـــــرب

وكـــم قصـــائدَ فـــي الملـــوك قـــد نظمَـــتْ ... وسُـــطرَتْ حسَـــبَ الأهـــواء والطلـــب!

تحكـــي النشـــاذ يُغنيـــه الألـــى كتبـــوا ... شـــتان شـــتان بـــين الصـــدق والكـــذب!

(زُبيـــدُ) شِـــعري - بصـــدق القـــول - أنســـجُه ... يُعطـــر الـــنصّ فـــي الأســـفار والكتـــب

أجـــلّ قـــدرَك بالأخبـــار أسْـــطرها ... وأســـتعينُ بمـــن يُطريـــك عـــن كَثـــب

يـــا شـــعرُ حَـــيّ (زُبيـــدَ الخيـــر) مـــا ســـطعتْ ... شـــمسٌ ، وجـــادت ببـــذل النـــور واللهـــب

وجُـــد بمـــا حُـــزت مـــن سَـــجْع ، ومـــن صـــور ... أغلـــى مـــن المـــاس ، واليـــاقوت ، والـــذهب

(زُبيـــدُ) أهـــلٌ لمَـــا دوّنـــتُ مـــن كَلـــمٍ! ... كريمـــة الـــذات فـــي إســـم ، وفـــي لقـــب

وفـــــذة حُـــــرّة أخلاقهـــــا طهـــــرتْ ... وذاتُ أصـــــل جليـــــل الجـــــاه والحَســـــب

عِـــز العروبـــة والأعـــراب فـــي دمهـــا ... فمَـــن يضـــارعُها فـــي مَحتـــدٍ وأب

هـــي الحَصـــانُ الـــرزانُ ، الكـــلّ يعرفهـــا ... ولـــيس يقـــدُرُها إلا ذوو اللبـــب

(وجعفـــرٌ) والـــدٌ أرســـى مبادئهـــا ... فـــي القلـــب والـــروح والإحســـاس والعصـــب

(بيـــتُ الخلافـــة) مأواهـــا ومنبتهـــا ... هـــو العلـــو ، رفيـــع الجـــاه والرُتـــب

والأم (سلســـلُ) فـــي الجـــوزاء مَســـكنها ... واســـألْ مَراجعنـــا عـــن قومهـــا النجُـــب

وأهلهـــا الشـــمّ مَـــن فـــي الفضـــل يســـبقهم؟ ... ومـــن يُســـابقهم فـــي البـــأس والغلـــب؟

(زُبيـــدُ) نلـــتِ مِـــن الإبـــاء ذِروتـــه ... يـــا ربّـــة العطـــفِ ، والإكـــرام ، والحَـــدَب

أنـــتِ التواضـــعُ فـــي أســـمى مَدارجـــه! ... تواضـــعٌ قـــد نـــأى عـــن حالـــكِ الرّيَـــب

رحِمـــتِ أهـــلَ ذوي الحاجـــات قاطبـــة ... فـــزايلتْهم حُـــزونُ الضـــنكِ والـــوَدَب

ولليتـــــــامى إذا رأوك دندنـــــــة ... لأن بَـــذلكِ أنجـــاهم مِـــن الكُـــرَب

وللأرامـــــل إمّـــــا زرتِ مَكرُمـــــة ... لكـــي تـــزول بهـــا غوائـــلُ الحَـــزب

تُحـــــاربين لهيـــــبَ الجـــــوع واثقـــــةً! وتدحضـــــين عـــــذاب الفقـــــر فـــــي دأب

وتنشُـــــرين الهُـــــدى ، يـــــا ســـــعدَ مُحســـــنةٍ تســـــعى لنشـــــر التقـــــى ، والخيـــــر ، والأرب!

يـــــا نبتـــــة ـ فـــــي ســـــماء المكرُمـــــات ـ نمـــــتْ ومَـــــن تأملهـــــا أفضـــــى إلـــــى العَجَـــــب

إن النبـــــــــات إذا أعطتْـــــــــه تربتـــــــــهُ غيـــرُ النبـــات نشـــا فـــي القحـــط والجـــدب!

هـــــو المليـــــكُ لـــــه ـ فـــــي الخلـــــق ـ سُـــــنته شـــــتان شـــــتان بـــــين الشـــــيح والعنـــــب!

استعطاف فوق الوصف!

(أساء الخليفة المأمون معاملة زوج أبيه هارون الرشيد زبيدة ، وذلك بعد توليه الخلافة. وساءت العلاقة كذلك مع ابنها الأمين. فأرسلت إليه برسالة تستعطفه فيها ، وتناشده الرحمة والحِلم والأناة. وكان من بين سطور رسالتها: (تذكر أيها الخليفة مَن لو كان حياً اليوم لكان شفيعي عندك) ، وأضافت بعض العِبارات التي جعلته يَعدلُ عن منهجه في المعاملة عندما قالت: (أما إنني أمك وإن كنت زوج أبيك ، فلي حق الأم التي حرّمها الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم - تحريماً أبدياً! وإن لم أكن كذلك فلي حق عامة نساء الرعيّة ، فأنا من رعاياك أيها الخليفة. فاختر لنفسك المقامَ الذي تريد يوم يبعث الله الخلائق! وإني لجاعلة بيني وبينك الولي الحق – عز وجل -. فرقّ قلبه لها ، واستجاب لطلبها بعدما دمعتْ عيناه ، وطلب من جلسائه أن يتركوه ساعة. يترجم لها الكاتب العراقي الكبير الأستاذ عبد الواحد باش أعيان العباسي في مجلة الرسالة (العدد 984) فيقول ما نصه: (لينحن التاريخ برأسه إجلالاً لكثير من النساء النوابغ ، اللواتي سجلن أعظم الأعمال والمفاخر في صحائفه ، وللمرأة العربية نصيبٌ كبيرٌ في مفاخر التاريخ وروائعه ، فمنهن الملكات الحازمات اللائي رفعن ممالكهن للسؤود والرفعة ، ومنهن المحاربات البواسل ، ومنهن الشواعر والأديبات ، ومنهن من سجلن أعمال الخير والإصلاح في كثير من مرافق الحياة. ومن أشهر هؤلاء النساء النوابغ وأعظمهن أعمالاً للخير واهتماماً في الإصلاح والتعمير هي الملكة العباسية الهاشمية السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد وأم الأمين وبنت جعفر بن (أبي جعفر المنصور). ولدت سنة 165 هجرية في أحضان العز ومهد الدلال ، وترعاها قلوب بني العباس ويحيطها حبهم ورعايتهم ولا سيما جدّها الخليفة الحازم أبو جعفر المنصور وكان يؤثرها بعنايته وحبه. وهو الذي سمّاها زبيدة لمَا رأى من نعومتها وبياض بشرتها ، وقد كانت تجمع إلى الجمال الباهر والأدب العباسي السامي عقلاً كبيراً وذكاء نادراً وعلماً وأدباً كبيرين. وفي خلافة عمها المهدي زفت إلى ابن عمها هارون الرشيد ، فكانت ليلة زفافها من الليالي المشهورة في بغداد يوم ذاك بالروعة والبهاء والفرح ، وقد نثرت اللآلئ في جنبات طريقها على البسط الموشاة بأسلاك الذهب. وقد ألقى عليها من غالي الجواهر واللؤلؤ ما أثقلها وعاقها عن السير ، فكانت عند زوجها وقد استأثرت بقلبه وخلص لها من دون جواريه وسراريه اللواتي يملأن قصره ، وقد شغف بها الرشيد ، واطمأن إلى رأيها وتدبيرها وكمال عقلها حين أصبح خليفة ، فأخذ يسترشد برأيها في حل المعضلات من أمور الدولة الإسلامية في ذلك العصر الذهبي ، وأطلق يديها في بيت المال تنفق ما تشاء ، وقد أنفقت أموالاً عظيمة في الإصلاح والخيرات ، تلك الأعمال التي خلدت اسمها بين أعظم نساء العالم كرماً وخلقاً وشرفاً ، وسبقت من تقدمها من نساء الإسلام في الأعمال. ولقد قيل إنها أنفقت فيما ابتنت في طريق مكة من مساجد ومنازل ومشارب مليوناً وسبعمائة ألف دينار زيادة على ما أنفقته (ويقدّر بأكثر من مليون دينار) حين أوصلت الماء إلى مكة في الحجاز من العين المعروفة بعين زبيدة ، فقد كان المكيون والحجاج ينقلون الماء من مسافات بعيدة مضنية لشربهم وريهم وسقي حيواناتهم ، وكان يتكلفون بذلك ويجهدهم ، فلما حجت الملكة المصلحة السيدة زبيدة أمرت بإحضار المهندسين والعمّال وأن يقدروا كلفة العمل وما يتطلبه من المال فبلغ مبلغاً كبيراً استثقله خازنها ، فقالت كلمتها الخالدة: (اصرف ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً)! فلم تزل حتى تم لها ما أرادت ووصل الماء إلى مكة من مسافة اثني عشر ميلاً في أرض وعرة المسالك. ولا زال منذ عهدها إلى اليوم. ولها أعمال أخرى لا تقل عما تقدم فخراً ومنفعة ؛ فقد ابتنت المساجد الكبيرة الواسعة في أطراف بغداد ليتعبد فيها المسلمون ، فابتنت مسجداً قبالة دار الخلافة

يسمى مسجد زبيدة ، وآخر في أراضيها وأملاكها الخاصة المعروفة بقطيعة أم جعفر ، وثالثاً بين باب خراسان ودار الرقيق ، ورابعاً البيت الذي ولد فيه الرسول بمكة ويسمى دار ابن يوسف ، وكانت إلى كل هذا توزع العطايا والهبات على الفقراء والمحتاجين والأيامى ، كما كانت لا تتردد في مساعدة ذوي الحاجة من كبار رجال الدولة والمملكة. ولقد كانت أما رؤوماً تحنو على ابنها الوحيد محمد الأمين وتعني به عناية كبرى وتحبه حباً جماً ، فمن ذلك ما رواه خلف الأحمر وكان قد دعاه الرشيد لتدريس ابنه الأمين يقول: جاءتني جارية يوماً برسالة من أم جعفر (زبيدة) ، تعزم عليّ بالكف عن معاملته بالشدة في تعليمه وتأديبه وأن أجعل له وقتاً لاستجمام بدنه ، فقلت: الأمير قد عظم قدره وبعد صيته ، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد لا يحتملان التقصير ولا يقبل منه الخطل ولا يرضى منه الزلل في النطق والجهل بالشرائع والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة! فقالت: صدقت غير أنها والدة لا تملك نفسها ولا تقدر على كف إشفاقها. وعلى ذكر ابنها الأمين ، فإنه لم يكن بين خلفاء الإسلام من كان أبوه وأمه من بني هاشم غير علي بن أبي طالب وابنه الحسن والأمين بن الرشيد! وكان لها قصور عديدة جميلة تتناسب مع مكانة الملكة الشابة ، منها قصر السلام وقصر القرار وغيرها في ضيعاتها وأملاكها الواسعة. وكانت على جانب كبير من الكرم والسخاء فيقول المسعودي: (كتبت مرة تسأل أبا يوسف (رئيس القضاة في بغداد) تستفتيه في مسألة فأفتاها بما أوجبت الشريعة وكانت الفتوى مما يوافق مرادها ، فأكرمته بحق من فضة فيه ألوان من الطيب (الروائح) وجام ذهب فيه دراهم وجام فضة فيه دنانير وغلمان وتخت فيه ثياب وحمار وبغل. . . الخ). وذكر بعض المؤرخين أن لزبيدة يداً كبرى في نكبة البرامكة ، فقد كانت تخشى من جعفر البرمكي على ابنها الأمين ، وكان يقوم بأمر المأمون في ولاية العهد. ولكن في وصيتها التاريخية لقائد جيش الأمين علي بن عيسى حين خرج بجيشه يريد محاربة المأمون وأسره ، ففي تلك الوصية الخالدة تظهر النفس الكبيرة التي تتنزه عن الدنايا والقسوة الأحقاد وقد قالت له: (يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي فإنني على عبد الله (المأمون) مستعطفة مشفقة لما يحده عليه من مكروه وأذى! وإنما ولدي ملك نافس أخاه في السلطان ، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ، ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله إذا ركب وإذا شتمك فاحتمل). وكانت على جانب كبير من الآداب والأخلاق كما كانت أديبة بارعة وشاعرة حساسة).هـ. ويضاف إلى ذلك كله أنها كانت شاعرة مجيدة ، فلقد وقعتُ على قصائد لها في كتب المغازي والسير والتراجم ، فألفيتها شاعرة عملاقة! فحاولتُ أن أصوغ رسالة (زبيدة العبّاسية) شعراً. في استعطاف المأمون لأن يرجع إلى سالف عهده من المعاملة الرقيقة الطيبة! وأن يراعي مكانها ومكانتها! وإنه لشرفٌ كبير لي أن أصوغ شعراً كلاماً قالته دُرة الإسلام والمسلمين وتاج المحسنين والمحسنات وفخر المؤمنين والمؤمنات وقمر بني العباس الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور – رحم الله الجميع -! وأعلم يقيناً أن شعري هذا سيبقى بعدي - كما بقي شعرها بعدها - متحدثاً عن مناقبها وسؤددها!)

ألا إنني أهدي إليكَ تحيتي ... وأعرضُ ما عندي ، وأشرحُ قِصتي

وشكوايَ – بعد الله – أرفعُها إلى ... هُمامٍ يُواسيني ، يُحققُ مُنيتي

ألا إنه حقاً تسامى اعتزازهُ ... فأمسى أبياً بافتخار وعِزة

وبالمجـــد وافانـــا ، وغطـــى ديارنـــا فقـــد خصّـــه المـــولى بـــأرقى مكانـــة!

رعـــى الله أوطانـــاً حَكمـــتَ ربوعَهـــا ووفقـــك المـــولى لنصـــر الشـــريعة

أعرنـــي ســـماعاً تســـتمي فيـــه قصـــتي فـــإني افتقـــدتُ اليـــومَ أهـــلاً لنصـــرتي

ألا يـــا ولـــيَ الأمـــر فينـــا وردْأنـــا تفضّـــلْ علـــى ثكلـــى اســـتعانتْ بمُخبـــت

تبثـــك نجواهـــا ، وتُزجـــي احترامَهـــا وإنـــك يـــا (مـــأمونُ) صـــاحبُ نخـــوة!

تـــذكرْ (عظـــيمَ القـــدر) لـــو كـــان بيننـــا لجلـــى غِشـــاواتٍ تُبـــيّن حُجّتـــي!

حبـــاني مِـــن المجـــد التليـــد أصـــوله وضـــحّى كثيـــراً كـــي يـــرى نـــورَ هيبتـــي

وعلمنـــي أنْ لا أعـــيش ذليلـــة ومَـــن كـــان يقـــوى أن يُســـبّب ذلتـــي؟!

وهـــل مَلِـــكُ الـــدنيا يُهَنّـــك عِرضُـــه؟ ومَـــن ذا الـــذي يُـــزري بجـــاه (زبيـــدة)؟

وهـــل كـــان مثلـــي يُســـتهان برأيهـــا؟ ومَـــن ذا الـــذي يقـــوى علـــى ردّ كِلمتـــي؟!

وهـــل كـــان مثلـــي تُســـتباحُ رخيصـــة؟ ومَـــن ذا الـــذي يغتـــال فـــي النـــاس بســـمتي؟

لـــذاقوا جميعـــاً مِـــن لظـــى الشـــر حِصّـــة ومِـــن كيـــد أنثـــى حِصـــة بعـــد حصـــة!

فـــإن لـــم أكـــنْ أمّـــاً لأزكـــى خليفـــةٍ فـــزوجُ أب لـــي واجبـــي بعـــد حُرمتـــي!

وإلا فـــإني مـــن رعيتـــك التـــي ستُســـألُ عنهـــا يـــوم بعـــثٍ وحســـرة

ســـلامٌ - مـــن المـــولى - عليـــك ورحمـــة وأجعـــلُ هـــذا فصـــلَ قـــولي وخِتمتـــي!

هارون المفترى عليه

(إنه الخليفة هارون الرشيد أمير المؤمنين العباسي ملك الدنيا الذي حلا لكثير من الكُتاب والروائيين السفهاء الجهلاء سدنة الباطل وأعوان التحريف أن يُظهروه على أنه خمّار زمّار سِكّير طبّال عربيد. كما زين الشيطان لكثير من المرتزقة - حارقي البخور وقارعي الطبول ونافخي المزامير وقارئي الكفوف وناظري الطالع من الدجاجلة المبطلين – أن يتخرصوا عنه بالباطل ويحيكون عنه الافتراءات تلو الافتراءات والأباطيل تلو الأباطيل والأكاذيب تلو الأكاذيب ، ليشوهوا صورته الناصعة وسيرته العطرة! فلم يكن هارون الرشيد - أيها الضالون المضلون – زير نساء ولم يكن عربيداً ولا سِكيراً تافهاً مثلكم! وهو البرئ من هذا كله. ومن يُراجع دواوين السير والتراجم والتاريخ يجد هارون الحقيقي المتعبد الخاشع البر برعيته الرحيم بها. يذكر الإمام الحافظ السيوطي في تاريخه عن الرشيد الكثير. ومن ذلك: •• كان يُصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات لا يتركها إلا لعِلة. ويتصدق من حُر ماله كل يوم بألف دينار. •• كان يحب العلم وأهله ويُعَظم حُرُمات الإسلام. ويُبْغض المِراء في الدين والكلام في ضرب النص. •• وكان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه سيما إذا وُعظ. •• ولما مات ابن المبارك جلس للعزاء وأمر الأعيان أن يعزوه في ابن المبارك. •• وكان يحج عاماً ويجاهد عاماً. وغير ذلك الكثير ، فإن أخبار الرشيد يطول شرحها. في (ملتقى أهل الحديث) عثرتُ على بعض الجواهر عن الرشيد أذكر منها: (هارون الرشيد من عظماء أمتنا الذين طأطأ الروم رؤوسهم له وأحنوا هاماتهم رهبة منه ، ذلك الرجل الذي حاول أعداء تاريخنا وأذنابهم أن يُصوّروه بصورة شارب الخمر الماجن ، صاحب الجواري الحِسان والليالي الحمراء ، العسوف الظلوم ، مع أنه كان من أعظم خلفاء الدولة العباسية جهاداً وغزواً واهتماماً بالعلم والعلماء ، وبالرغم من هذا كله أشاعوا عنه الأكاذيب ، وأنه لا همّ له سوى الجواري والخمر والسُكْر ، ونسجوا في ذلك القصص الخرافية والحكايات الواهية. قال ابن خلكان عنه في كتابه وفيات الأعيان: "كان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك ، ذا حج وجهادٍ وغزو وشجاعةٍ ورأي". فمَن هارون الرشيد؟ إنه أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي. كان مولده بالري حين كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة ، وأمه أم ولد تسمى الخيزران وهي أم الهادي ، عُرف بالشجاعة والقوة ، وقاد الحملات في عهد أبيه ، ولم يتجاوز العشرين. وَلِيَ الخلافة بعهدٍ معقودٍ له بعد الهادي من أبيهما المَهدي في ليلة السبت السادس عشر من ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعد الهادي ، وكان يُكنى أبا موسى فتكنى بأبي جعفر. ولقد ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: [وحكى بعض أصحابه أنه كان إذا حجّ أحجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحج في كل سنة ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة]. وقد أحصى المسعودي سنوات حجه بالناس فكانت: 170 ، 173 ، 174 ، 175 ، 176 ، 177 ، 178 ، 179 ، 181 ، 186 ، 188هـ. وقال الذهبي في التاريخ: [سنة تسع وسبعين ومئة وفيها اعتمر الرشيد في رمضان ودام على إحرامه إلى أن حج ومشى من بيوته إلى عرفات]. وقال أبو الفدا في المختصر: [ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومئة وفيها حج الرشيد وأحرم من بغداد]. وقال الغزالي في فضائح الباطنية: وقد حُكي عن إبراهيم بن عبد الله الخراساني أنه قال: (حججتُ مع أبي سنة حج الرشيد ، فإذا نحن بالرشيد وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء ، وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ويقول: يا رب أنت أنت وأنا أنا ، أنا العَوّاد إلى الذنب ، وأنت العَوّاد إلى المغفرة ، اغفر لي. قال منصور بن عمار: ما رأيت أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة الفضيل بن

عِياض والرشيد وآخر).هـ. ورُويَ أن ابن السماك دخل على الرشيد يوماً فاستسقى ، فأتيَ بكوز ، فلما أخذه قال: على رسلك يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي! قال: اشرب هنأك الله ، فلما شربها قال: أسألك لو مُنعتَ خروجها من بدنك بماذا كنت تشترى خروجها؟ قال: بجميع ملكي! قال: إن ملكاً قيمته شربة ماء وبولة لجدير أن لا يُنافس فيه! فبكى الرشيد بكاءً شديداً. وقال ابن الجوزي: قال الرشيد لشيبان: عِظني! قال: لأن تصحب من يُخوفك حتى يُدركك الأمنُ خيرٌ لك من أن تصحب من يُؤمنك حتى يُدركك الخوف. فقال الرشيد: فسّر لي هذا! قال: من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصحُ لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم! فبكى الرشيد حتى رحمه مَن حوله. وكان الرشيد يحب العلماء ، ويعظم حُرُمات الدين ، ويبغض الجدال والكلام ، وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله: (ما أعلم أن لمَلِك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله). قال أبو معاوية الضرير: (ما ذكرتُ النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي الرشيد ، إلا قال: صلى الله على سيدي ، ورويتُ له حديثه ، وددتُ أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا ثم أقتل فبكى حتى انتحب). وعن خرزاذ العابد قال: (حدّث أبو معاوية الرشيد بحديث احتج آدم وموسى ، فقال رجل شريف: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في الحديث! فما زال أبو معاوية يُسكنه ويقول: بادرة منه يا أمير المؤمنين حتى سكن). وأخرج ابن عساكر عن ابن علية قال: (أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أريح العِباد منك. قال فأين أنت من ألف حديثٍ وضعتُها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلها ما فيها حرفٌ نطق به؟ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً). وكان العلماء يبادلونه التقدير ، فلقد روي عن الفضيل بن عِياض أنه قال: (ما من نفس تموت أشد عليّ موتاً من أمير المؤمنين هارون ، ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره) ، قال: فكبر ذلك علينا فلما مات هارون وظهرت الفتن وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكلم. وفي سنة سبع وثمانين ومائة جاء للرشيد كتاب من ملك الروم نقفور بنقض الهدنة التي كانت عقدتْ بين المسلمين وبين الملكة ريني ملكة الروم وصورة الكتاب [من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُخ ، وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها ، وذلك لضعف النساء وحُمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردُدْ ما حصل قِبَلك من أموالها ، وإلا فالسيف بيننا وبينك] فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى ما تمكن أحد أن ينظر إلى وجهه فضلاً أن يُخاطبه ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأي على الوزير ، فدعا الرشيد بدواةٍ وكتب على ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأتُ كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ، ثم سار ليومه فلم يزل حتى نزل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحاً مبيناً ، فطلب نقفور الموادعة ، والتزم بخراج يحمله كل سنة. وأسند الصولي عن يعقوب بن جعفر قال: خرج الرشيد في السنة التي ولي الخلافة فيها حتى غزا أطراف الروم ، وانصرف في شعبان ، فحج بالناس آخر السنة ، وفرّق بالحرمين مالاً كثيراً ، وكان رأى النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في النوم ، فقال له: إن هذا الأمر صائرٌ إليك في هذا الشهر فاغز وحُج ووسّع على أهل الحرمين ، ففعل هذا كله. وقد مات الرشيد أثناء غزوه الروم! قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: مات الرشيد في الغزو بطوس من خراسان. ودفن بها في ثالث من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية وله خمس وأربعون سنة).هـ. وكتبت الأستاذة سارة حسام عن الرشيد ، وهي تقتبس عن

(موقع إسلام ويب) ما نصه: (هارون الرشيد يعد الشخصية الأكثر جدلاً في تاريخ ملوك المسلمين بعد "الحاكم بأمر بالله" ، فتارة تذكر كتب التاريخ أنه من أكثر خلفاء الدولة العباسية جهاداً وغزواً واهتماماً بالعلم والعلماء! وتارة يزعمون أنه المارق الذى جعل شغله الشاغل الجواري والخمر والطرب. في ذكرى وفاته يوم 24 مارس من عام 809هـ لزم علينا استعادة تاريخ ذلك الخليفة الإسلامي والوقوف علي أهم فتوحاته وغزواته. لقد كانت أولى المعارك التي خرج فيها هارون الرشيد في عام 165هـ ضد الروم وحقق فيها الرشيد نصراً ساحقاً جعل والده يعده ولياً ثانياً للعهد بعد أخيه موسى الهادي. لقد كان تولي الرشيد للخلافة بداية لعصر جديد قوي ومزدهر في تاريخ الدولة العباسية ، فلقد كانت الدولة مترامية الأطراف متعددة الثقافات والعادات والأصول مما جعلها عُرضة لظهور الفتن والمؤامرات ، والثورات ، فتمكن الرشيد من الإمساك بمقاليد الحكم بيدٍ من حديد ، كما تمكّن من فرض سيطرته وحكمه على جميع الأنحاء المتفرقة من البلاد. ولم يكتفِ "الرشيد" بهذا ، بل سعى بكامل طاقته لأن يجعل منها دولة متقدمة في جميع المجالات ، فشهد عصره نهضة شاملة وارتقاءً هائلاً بالدولة! مما أثبت أن الرشيد لم يكن رجلاً متجهاً نحو اللعب واللهو بل كان قائداً ، وحاكماً يتمتع بعقل وفكر. وقد ذكرتْ كتبُ التاريخ أن الخليفة كان ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة وله نظر جيد في الأدب والفقه ، كما اتسم الرشيد بالورع والتقى ، ولقد شهد عهد هارون الرشيد نهضة شاملة كاملة بكافة قطاعات الدولة حيث زادت الأموال الداخلة إلى خزانة الدولة مما عم بالرخاء والازدهار على كافة أركانها ، هذا بالإضافة للتقدم في العلوم والفنون وغيرها ، فشهد عصر الرشيد نهضة معمارية أيضاً فبنيت المساجد والقصور ، وحفرت الترع والأنهار ، وامتد الرخاء إلى بغداد حيث نالت حظها من الرخاء والازدهار ، فاتسعت رقعتها وبنيت بها المساجد والقصور. فضلاً عن هذا شهدت الدولة الإسلامية نهضة علمية واسعة ، فكانت الدولة وقتها هي الملجأ الأول الذي يفد إليها العلماء من فقهاء ولغويين وغيرهم من كل حدب وصوب ، فكانوا يتبادلون العلوم ويلقنون الطلاب علومهم المختلفة. كما يرجع الفضل لهارون الرشيد في إنشاء "بيت الحكمة" وهو أشبه بمكتبة ضخمة جمعت فيها العديد من الكتب من مختلف البلدان كالهند وفارس وغيرها فكانت تضم قاعات للكتب وأخرى للمحاضرات وغيرها للناسخين والمترجمين. ولم يقتصر دور الرشيد على كونه حاكما فقط مهتما بالشئون الداخلية للبلاد والغزوات بل امتدت علاقاته للعديد من البلدان فقام بتوطيد العلاقات بين الدول فكان يستقبل الوفود على الرحب والسعة ويرسلهم إلى بلادهم محملين بأغلى وأثمن الهدايا ، مما دفع العديد من الممالك لملاقاته من أجل بناء علاقات قوية مع الدولة الإسلامية وحاكمها. وبالرغم من اهتمام الرشيد بالنهضة والعلم ، إلا أنه كان لخلافته بُعدٌ آخر عامر بالغزوات ، فقيل عنه: يغزو عاماً ويحج عاماً ، فتم في عصره العديد من الغزوات ، وكان أهم تلك الغزوات فتح مدينة هرقلة ، الواصلة ما بين بحر الروم وبحر القلزم. فيما خاض الرشيد العديد من الحروب الضارية مع الروم سواء قبل توليه الخلافة أو بعدها ، والتي كلل فيها بالفوز والنصر وعمل على تأمين البلاد ضد هجماتهم ، كما أعاد بناء البلاد التي قد دمرت في الحروب ، وولى عليها أمهر القادة ، وعمل على تزكية جيشه بأسطول ضخم يدعم مع الجيش حروبه ضد الروم ، ونظراً للانتصارات المتوالية التي حققها الرشيد مع الروم ، فقد طالب الروم بعقد هدنة مع الجيوش الإسلامية! وبالفعل عقدت ريني الملكة الرومية صلحاً مع هارون الرشيد وذلك مقابل دفع جزية سنوية للمسلمين ، وظلت هذه المعاهد قائمة إلى أن توّج نقفور إمبراطوراً على الروم بدلاً من أمه الإمبراطورة السابقة ريني عام 186هـ ، فقام بنقض المعاهدة وحاربه الرشيد وانتصر عليه ، ثم عاد فنقض الموادعة التي طلبها فغزاه الرشيد وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً! وفي سنة تسع وسبعين ومائة اعتمر الرشيد في

رمضان ودام على إحرامه إلى أن حج ومشى من مكة إلى عرفات ، وفي سنة 181 هـ فتح حصن الصفصاف عنوة).هـ. ولقد كان الرشيد حكيماً بليغاً يُتقن صياغة الحكمة المناسبة في الموقف المناسب لها! ولا تزال كتب السير والأدب والتراجم تحمل بين طيات أوراقها عشرات الحكم الهارونية البليغة الصائبة! ومن الأقوال الخالدة التي تمثلها الرشيد وقالها: – قوله للسحابة: في أي مكان شئتِ أمطري فسيُحمل إليّ خراجك. – وهو القائل: النفس تطمع والأسباب عاجزة ** والنفس تهلك بين اليأس والطمع. - من شاور كثر صوابه. – نِعم وزير إنعام الرأي الحسن. – كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخلة البصرة. – الجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام. – الشرف يمنع صاحبه من الدناءة! وهذه قصة بُهلول والملك حيث يحكى أن بُهلولا كان رجلاً مجنوناً في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد. ومن طرائف بُهلول أنه مر عليه الرشيد يوماً وهو جالسٌ على إحدى المقابر فقال له هارون معنفاً: يا بُهلول يا مجنون متى تعقل؟ فركض بهلول وصعد إلى أعلى شجرةٍ ثم نادى على هارون بأعلى صوته: "يا هارون يا مجنون متى تعقل؟ فأتى هارون تحت الشجرة وهو على صهوة حصانه وقال له: أنا المجنون أم أنت الذي يجلس على المقابر؟ ولما حملوا هارون الرشيد إلى قبره ليراه. فنظر هارون إلى القبر وبكى ، ثم التفت إلى الناس من حوله وقال: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ} ، ثم رفع رأسه إلى السماء وبكى وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.).هـ. وكتب الأستاذ عبد الأعلى المصري عن الرشيد فقال ما نصه: (هارون الرشيد الخليفة العادل العابد المجاهد! لقد أثير على الخليفة العادل العابد المجاهد هارون الرشيد شبهتان تطعن في عدالته هما: * شربه للخمر. * سماعه للقِيان والمعازف وانغماسه في اللهو. وقبل أن نشرع في رد الشبهتين ، نذكر مَن هو هارون الرشيد: قال الخطيب في تاريخ بغداد (14/16):"عن عمرو بن بَحر، قال: اجتمع للرشيد ما لَمْ يَجتمع لأحد من جد وهزل ، وزراؤه البرامكة لَم يُر مثلهم سخاءً وسروراً ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية وحاجبه الفضل بن الربيع أكيس الناس وأشدهم تعاظماً ، ومُغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما ، وزوجته أم جعفر أرغب الناس في خير وأسرعهم إلى كل برٍّ ، وهي أسرع الناس في معروف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف).هـ. وإليك ردّ هاتين الشبهتين: * ردُّ الشبهة الأولى: شربه للخمر: قال الذهبي في "السير" (290/9): "قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: أُرَاهُ كَانَ يَشْرَبُ النَّبِيذَ المُخْتَلَفَ فِيْهِ لاَ الخَمْرَ المُتَّفَقَ عَلَى حُرْمَتِهَا". وقال محمد الخضري في "محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية" (ص210): "واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه". * وأمَّا الشبهة الثانية: وهي سماعه للقِيان والمعازف وانغماسه في اللهو ، حيث جاء في "الاكتفاء في أخبار الخلفاء" (1403/3) في ترجمة هارون أنه كان: "مُحبًا للندمان ، وسماع القيان ، واستحباب القيان ، وهو أول خليفة هتك الستار". وقال الذهبي في "السير" (290/9): "وَمَحَاسِنُهُ كَثِيْرَةٌ ، وَلَهُ أَخْبَارٌ شَائِعَةٌ فِي اللَّهوِ وَاللَّذَّاتِ وَالغِنَاءِ ، سامحه اللهُ تعالى". وقال محمد الخضري في "محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية" (ص210): "وكان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب ، ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين من بغداد ممن لم يأت بعده مثلهم ، كما يرى ذلك من اطلع على كتاب الموسوم بـ (الأغاني) لأبي فرج الأصبهاني". * والردُّ على هذه الشبهة مع الأولى كذلك من وجهين: * الوجه الأول: أن هذه الطعون مفتراة على هارون الرشيد من قبَل الرافضة والشعوبية ، كما قال صالح بن عبد الله الغامدي – محقِّق كتاب "الاكتفاء في سيرة الخلفاء"-: "وأعتقد أن كل ما صرَّح به المؤلف من ثلب وعيب في الرشيد – رحمه الله – لا يصلح ، وإنما

هو من طعون أعدائه من الرافضة والشعوبية وغيرهم ، بقصد تشويه سيرته الحسنة ، يحملهم على ذلك الحسد والغيرة ، والحقد والضغينة التي امتلأت بها قلوبهم على الإسلام وأهله ، خصوصًا على من تقلَّد ذِروة سنام الأمة وزمام الخلافة هارون الرشيد ، الذي كان من أنبل الخلفاء العباسيين ، وأحشمهم ، وأمثلهم عفة وطهارة ، وأحسنهم سيرة". * الوجه الثاني: إن سيرة هارون الرشيد في حكمه وعبادته وجهاده تناقض كونه منغمسًا في شرب الخمر والغناء والقيان واللَّهو ، ذلك أنه عُرِف بالعدل وكثرة الغزو والحج والصدقة ونوافل الصلوات والزهد وخشية الله إذا ذُكّر به ، كما في النقولات والآثار التالية: قال الذهبي في (287/9): "وَكَانَ مِنْ أَنبَلِ الخُلَفَاءِ ، وَأَحشَمِ المُلُوْكِ ، ذَا حَجٍّ ، وَجِهَادٍ ، وَغَزْوٍ ، وَشَجَاعَةٍ ، وَرَأْيٍ". وقال: "حَجَّ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَلَهُ فُتُوحَاتٌ وَمَوَاقِفُ مَشْهُوْدَةٌ ، وَمِنْهَا فَتحُ مَدِيْنَةِ هِرَقْلَةَ ، وَمَاتَ غَازِيًا بِخُرَاسَانَ ، وَقَبْرُهُ بِمَدِيْنَةِ طُوْسَ ، عَاشَ خَمْسًا وَأَرْبَعِيْنَ سَنَةً ، وَصَلَّى عَلَيْهِ وَلَدُهُ صَالِحٌ ، تُوُفِّيَ: فِي ثَالِثِ جُمَادَى الآخِرَةِ ، سَنَةَ ثَلاَثٍ وَتِسْعِيْنَ وَمائَةٍ". وقال ابن الكردبوس في "الاكتفاء في أخبارالخلفاء" (1403/3): "نقش خاتمه: استرشدت بالله" ، ثم قال - بعد جزمه بدعوى انغماسه في الغناء واللهو وشرب النبيذ -: "وكان مع ذلك رجَّاعًا إلى دين الله. وكان مدمنًا للجهاد والحج ، حجَّ ثماني حجج ، مشى في إحداهما الى مكة راجلاً ، وغزا ثماني غزوات". قلتُ: واعترافُ مؤلف الاكتفاء بهذه الحقائق كان كافيًا في إبطال الفِرى التي قدّم لها بين يديها! وقال الخطيب البغدادي – رحمه الله - في "تاريخ مدينة السلام" (10-9/16): " أَخْبَرَنَا ابن رزق قَالَ: أَخْبَرَنَا عثمان بن أحمد الدقاق قَالَ: حَدَّثَنَا محمد بن أحمد بن البراء قال: الرشيد هارون بن المهدي وكنيته أبو جعفر ، ولد بالري ، وكان يحج سنة ، ويغزو سنة. وقال ابن ظافر الأزدي (ت 613) في "أخبار الدول المنقطعة" (ص239): "ولما ورد عليه كتاب صاحب الثغور ، وذكر له فيه خروج طاغية الروم ، وقع على كتابه: أنا في الأثر ، ومن الله الظفر ، ووقع أيضًا وقد ورد كتاب ثاني منه في المعنى: {وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار} ووقع على رقعة رجل يتظلم من عمرو بن مسعدة: يا عمرو أعمر نعمة الله عندك بالعدل فإن الجور يهدمها". قلت: ومن تعظيمه للشرع والعلم وعدله أنه جدّد العمل بالشروط العمرية ، كما قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (654/28) عند حديثه عن الشروط العمرية على نصارى الشام: "وَهَذِهِ الشُّرُوطُ مَا زَالَ يُجَدِّدُهَا عَلَيْهِمْ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا جَدَّدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي خِلَافَتِهِ وَبَالَغَ فِي اتِّبَاعِ سُنَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ كَانَ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالْقِيَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَنْزِلَةِ مَيَّزَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الْأَئِمَّةِ! وَجَدَّدَهَا هَارُونُ الرَّشِيدُ وَجَعْفَرٌ الْمُتَوَكِّلُ وَغَيْرُهُمَا ، وَأَمَرُوا بِهَدْمِ الْكَنَائِسِ الَّتِي يَنْبَغِي هَدْمُهَا كَالْكَنَائِسِ الَّتِي بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلِّهَا". وقال كما مستدرك على الفتاوى (250/3): "وروى الإمام أحمد عن الحسن البصري أنه قال: من السنة أن تهدم الكنائس التي في الأمصار القديمة والحديثة ، وكذلك هارون الرشيد في خلافته أمر بهدم ما كان في سواد بغداد". وقال تلميذ شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية في "أحكام أهل الذمّة" (465/1): "وَأَمَّا هَارُونُ الرَّشِيدُ فَإِنَّهُ لَمَّا قَلَّدَ الْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى أَعْمَالَ خُرَاسَانَ ، وَجَعْفَرًا أَخَاهُ دِيوَانَ الْخَرَاجِ ، أَمَرَهُمَا بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، فَعُمِّرَتِ الْمَسَاجِدُ وَالْجَوَامِعُ وَالصَّهَارِيجُ وَالسِّقَايَاتُ ، وَجُعِلَ فِي الْمَكَاتِبِ مَكَاتِبُ لِلْيَتَامَى ، وَصَرَفَ الذِّمَّةَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَاسْتَعْمَلَ الْمُسْلِمِينَ عِوَضًا مِنْهُمْ ، وَغَيَّرَ زِيَّهُمْ وَلِبَاسَهُمْ وَخَرَّبَ الْكَنَائِسَ ، وَأَفْتَاهُ بِذَلِكَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ". قلت: وكان شديدًا على الزنادقة وأهل البدع والأهواء ، كما كما في الآثار التالية: قال عبد القادر بن حبيب الله السندي في "تعليقات سنية على البحوث العلمية": "والشاهد في حديث أبي معاوية الضرير والرجل الذي سأل أين لقي موسى ملك الموت وشفع أبو معاوية للرجل عند الرشيد ، هو أن هارون الرشيد رحمه الله تعالى المتوفى سنة 193هـ بمدينة طوس

لم يكن من المحدثين ، ولم يكن قد اشتغل بالرواية الحديثية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح قد ولد آنذاك ، وقد عرف وعلم هارون الرشيد عن صحة هذا الحديث الذي استفسر عنه ذاك الرجل القرشي فغضب عليه الرشيد غضبًا شديدًا ، وحكم عليه أنه زنديق". وقال مرعي بن يوسف الكرمي كما في أقاويل الثقات: "وَلما كَانَ فِي حُدُود المئة الثَّانِيَة انتشرت هَذِه الْمقَالة الَّتِي كَانَ السّلف يسمونها مقَالَة الْجَهْمِية بِسَبَب بشر المريسي وطبقته وَكَانَ الْأَئِمَّة مثل مَالك وسُفْيَان وَابْن الْمُبَارك وَأبي يُوسُف وَالشَّافِعِيّ وَأحمد وَإِسْحَاق والفضيل بن عِيَاض وَبشر الحافي يبالغون فِي ذمّ الْكَلَام وَفِي ذمّ بشر المريسي هَذَا وتضليله حَتَّى إِن هَارُون الرشيد قَالَ يَوْمًا بَلغنِي أَن بشرًا المريسي يَقُول الْقُرْآن مَخْلُوق وَلله عَليّ إِن أَظْفرنِي بِهِ لأقتلنه قتلة مَا قتلتها أحدا فَأَقَامَ بشر متواريا أَيَّام الرشيد نَحوًا من عشْرين سنة". وقال السيوطي في "تاريخ الخلفاء" (ص457/ط. دار المنهاج): "وكان يحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء في الدين ، والكلام في معارضة النص". قلت: ومن مواقفه – رحمه الله - في توقير العلم والعلماء والانصياع لنصائحهم ما يلي: * وأخرج الخطيب في تاريخ بغداد (14/16): "أَخْبَرَنَا أبو علي مُحَمَّد بن الحسين الجازري قَالَ: حَدَّثَنَا المعافى بن زكريا قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن الحسن بن دريد قَالَ: حَدَّثَنَا أبو حاتم عن الأصمعي،قال: دخلت على هارون الرشيد ومَجْلسه حافل ، فقال: يا أصمعي ما أغفلك عنا وأجفاك لِحضرتنا؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين ما ألاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك ، قال: فأمرني بالجلوس ، فجلست وسكت عني فَلمَّا تفرق الناس إلا أقلهم نَهضت للقيام ، فأشار إليَّ أن أجلس ، فجلست حتى خَلا المجلس فلم يبق غيري وغيره ومن بين يديه من الغلمان ، فقال لي: يا أبا سعيد ، ما ألاقتني؟ قلت: أمسكتني يا أمير المؤمنين! فقال: أحسنت ، وهكذا فكن: وقرنا في الملأ ، وعلَّمنا في الخلاء ، وأمر لي بِخمسة آلاف دينار". وقال الخطيب أيضًا في (9/16): "أَخْبَرَنَا أبو العلاء محمد بن علي بن يعقوب القاضي قَالَ: أَخْبَرَنَا عبد الله بن محمد المزني بواسط قَالَ: حَدَّثَنَا أبو طاهر المري عبد الله بن محمد بن مرة بالبصرة قَالَ: حَدَّثَنَا حسن الأزدي قال: سَمعت علي ابن المديني يقول: سمعت أبا معاوية يقول: أكلت مع هارون الرشيد أمير المؤمنين طعامًا يومًا من الأيام ، فصب على يدي رجل لا أعرفه ، فقال هارون الرشيد: يا أبا معاوية ، تدري من يصب على يديك؟ قلت: لا ، قال: أنا ، قلت: أنت يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم ، إجلالًا للعلم". وقال أبو بكر أحمد بن مروان الدِّينَوَري في (183/2): "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ الْقُرَشِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَصْمَعِيَّ يَقُولُ: كُنْتُ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ وَعِنْدَهُ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي فَذَكَرَ أَبُو يُوسُفَ حَدِيثَ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ مِنَ الْغَايَةِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ فَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ هُوَ الْغَايَةَ ، إِنَّمَا هُوَ الْغَابَةُ. قَالَ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا ، مَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ عَاقِلٌ مِثْلُكَ". وقال ابن ظافر الأزدي (ت 613) في "أخبار الدول المنقطعة" (ص239): "وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه ، وزيارته العلماء في مواضعهم كمالك بن أنس وسفيان بن عيينة ، وعبدالرزاق بن همام المحدث ، والفضيل بن عياض وغيرهم ، وفي أيامه توفي مالك بن أنس سنة تسع وسبعين ومائة وله تسعون سنة وصلى عليه ابن أبي ذئب! وفي أيامه أيضًا مات محمد بن الحسن الفقيه ، وعلي بن حمزة الكسائي ، وحين دخل الرشيد الري قال: دفنا العلم بالري...".اهـ. وقال ابن ظافر الأزدي (ت 613) في "أخبار الدول المنقطعة" (ص239): "وكان يعادله إلى مكة في المحل القاضي أبو يوسف..." ثم قال: "وكان الرشيد مضلِّعًا من العلم والأدب والشعر".اهـ. وقال أبو بكر أحمد بن مروان الدِّينَوَري في "المجالسة وجواهر العلم" في (229/3): "حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ الْمُخْتَارِ ، نَا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ قَالَ: أَرَادَ هَارُونُ الرَّشِيدُ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا الْقَضَاءَ ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي لَا أُحْسِنُ الْقَضَاءَ ولَا أَنَا فَقِيهٌ. فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: فِيكَ ثَلَاثُ خِلَالٍ: لَكَ شَرَفٌ وَالشَّرَفُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ الدَّنَاءَةِ

وَلَكَ حِلْمٌ وَالْحِلْمُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْعَجَلَةِ وَمَنْ لَمْ يُعَجِّلْ قَلَّ خَطَؤُهُ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ تُشَاوِرُ فِي أُمُورِكَ وَمَنْ شَاوَرَ كَثُرَ صَوَابُهُ ، وَأَمَّا الْفِقْهُ فَنَضُمُّ إِلَيْكَ مَنْ تَتَفَقَّهُ بِهِ. قَالَ يَحْيَى: فَوُلِّيَ ؛ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مَطْعَناً". قلت: وكان هارون كذلك يعتني بعلوم الطب كما جاء في "تاريخ مختصر الدول" (ص227): "ومن أطباء الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وخدم الرشيد ، ومَن بعده إلى أيام المتوكل ، وكان معظَّمًا ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة ، وكان يعقد مجلسًا للنظر ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة ، وكان يدرِّس ويجتمع إليه تلاميذ كثيرون". قلت: وله أيضًا أخبار في الزهد وخشية الله عز وجل تنافي كونه – كما افتُري عليه - يقضي وقته في الغناء وسماع القيان واللهو المحرم. قال أبو بكر أحمد بن مروان الدِّينَوَري في "المجالسة وجواهر العلم" (376/1): "حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ قُتَيْبَةَ ، نَا الرِّيَاشِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَصْمَعِيَّ يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَهُوَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ: أَخْذُ الْأَظْفَارِ يَوْمَ الْخَمِيسِ مِنَ السُّنَّةِ ، وَبَلَغَنِي أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَنْفِي الْفَقْرَ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَتَخْشَى أَنْتَ أَيْضًا الْفَقْرَ؟ ! فَقَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ! وَهَلْ أَحَدٌ أَخْشَى لِلْفَقْرِ مِنِّي؟!". وقال في (295/4): "حَدَّثَنَا أَحْمَدُ ، نَا المحدث إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْحَرْبِيُّ ، نَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ قَالَ: دَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ فَقَالَ لَهُ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ. فَقَالَ: مَا أَعْجَبَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَحْنُ فِيهِ ؛ كَيْفَ غَلَبَ عَلَيْنَا حُبُّ الدُّنْيَا؟! وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا مَا نصير إِلَيْهِ كيف غفلنا عَنْهُ ، عَجَبًا لِصَغِيرٍ حَقِيرٍ إِلَى فَنَاءٍ يَصِيرُ ، غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ طَوِيلٍ دَائِمٍ غَيْرِ زَائِلٍ!". وقال في (427/4): "حَدَّثَنَا أَحْمَدُ ، حدثنا ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَمُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى قَالا: نَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ عَمِّهِ الأَصْمَعِيِّ قَالَ: بَعَثَ إِلَيَّ هَارُونُ الرَّشِيدُ وَقَدْ زَخْرَفَ مَجَالِسَهُ وَبَالَغَ فيها وفي بنائها ، ووَضَعَ فِيهَا طَعَامًا كَثِيرًا. وقال أبو طاهر السِّلَفي كما في "الطيوريات" (645/2): "عُبيد اللَّهِ حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عُبيد الله ابن عمر القَوَارِيريّ قال: "لما لقِيَ هارونُ الرَّشيد الفُضيلَ بنَ عِياض قال له الفُضيل: يا حَسَنَ الوجهِ ، أنتَ المسؤولُ عن هذه الأمة ، حدثنا ليثٌ عن مجاهد {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} قال: الوَصْل الَّذي كان بينهم في الدنيا ، قال: فجعل هارونُ يَبْكي ويَتَشَهَّق" ، وهذا إسناد صحيح. وقال الذهبي في "السير" (287/9-288): "قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ مَرَّةً ابْنُ السَّمَّاكِ الوَاعِظُ ، فَبَالَغَ فِي إِجْلاَلِهِ ، فَقَالَ:تَوَاضُعُكَ فِي شَرَفِكَ أَشْرَفُ مِنْ شَرَفِكَ... ، ثُمَّ وَعَظَهُ ، فَأَبكَاهُ ، وَوَعَظَهُ الفُضَيْلُ مَرَّةً حَتَّى شَهِقَ فِي بُكَائِهِ ، وَكَانَ يَقْتَفِي آثَارَ جَدِّهِ إِلاَّ فِي الحِرْصِ". قلت: بل اعترف بكون هارون الرشيد مفترى عليه أحد الكتَّاب في صحيفة "الأهرام المسائي المصرية" عدد (9262) (الاثنين 3 من ذو الحجة 1437 هـ 5 سبتمبر2016م) حيث قال: "هارون الرشيد ذلك البطل المسلم والخليفة المتواضع الذي ظلمه المستشرقون فافتروا عليه بالكثير من الأكاذيب التي صدّقها العوام ، وكثرت الأعمال الدرامية المليئة بهذه الأكاذيب ، وكأنها قد انقلبت إلي حقائق! والذي لا يعرفه الكثيرون أن هارون الرشيد من أكثر خلفاء الازدهار الإسلامي أعمالا مجيدة وعبادة كثيرة! ففي عهده كانت الدولة تمتد من الصين غربا إلي المغرب في الغرب ، فكانت من أكبر وأعظم الدول التي عرفها التاريخ! لقد كان الرشيد أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحجا". وسئل الشيخ صالح الفوزان كما في موقعه الرسمي-: "ذكرتْ بعض كتب التاريخ ولا سيما - كتاب ألف ليلة وليلة - بأن خليفة المسلمين هارون الرشيد لا يعرف إلا اللهو وشرب الخمر فهل هذا صحيح؟ فأجاب حفظه الله: "هذا كذب وافتراء ودس في تاريخ الإسلام ، وكتاب ألف ليلة وليلة كتاب ساقط لا يُعتمد عليه ولا ينبغي للمسلم أن يضيع وقته في مطالعته ، وهارون الرشيد معروفٌ بالصلاح والاستقامة والجد وحسن السياسة في رعيته ، وأنه كان يحج عامًا ويغزو عامًا ، وهذه الفرية التي ألصقتْ به في هذا الكتاب لا يُلتفت إليها ، ولا ينبغي للمسلم أن يقرأ

من الكتب إلا ما فيه الفائدة ؛ ككتب التاريخ الموثوقة وكتب التفسير والحديث والفقه وكتب العقيدة التي يعرف بها المسلم أمر دينه ؛ أما الكتب الساقطة فلا ينبغي للمسلم ولا سيما طالب العلم أن يضيع وقته فيها".اهـ. قلت: فهذا ما تيَّسر جمعه في الذبِّ عن هذا الخليفة العادل العابد المجاهد ، ولا يعني هذا أنه كان معصومًا ، بل هو بشر من البشر ، قد يقع في مخالفة متأوّلاً ، وقد تصدر منه الهفوات ، لكن لا ترتقي هذه الهفوات إلى أن يُطعَن بها في عدالته وأن يُتَّهم بالفسق والفجور).هـ. ومن هنا رحت أقول لمن يتطاولون على الرشيد بقصةٍ أو بتمثيليةٍ أو بمسلسل أو بقصيدةٍ أو بمقالة: أيها الناس رويداً رويداً ، فليس هارون كما تزعمون. أم أنه الاستسلام لآراء الغرب الحاقد والاستشراق المغرض؟! لقد حقق هارون الرشيد نهضة علميّة وأدبيّة في عصره ؛ حيث قرّب الشعراء وأهل العلم والأدباء من مجالسه. وطوّر النشاط التجاري ، وكذلك العلاقات السياسيّة بين دولة الخلافة العباسيّة وممالك أوروبا ؛ وأهدى هارون الهدايا القيّمة والمميّزة إلى الإمبراطور (شارمان). وفي أثناء توجّهه شرقًا لقيادة جيش لإخماد ثورة من الثّورات غافلت هارون الرّشيد المنيّة ليتوفّي سنة 809 م الموافق 192 هـ في مدينة طوس (مشهد الإيرانية حالياً. وأعتقد أنه وبعد هذه المقدمة الطويلة التي كان لا بد من لإيضاح الحقيقة ولبيان الحق ، قد وضح تماماً أن هارون خليفة مفترى عليه! ولا يشعر بالمظلومين مثل المظلوم! ولأني شاعر مظلوم مهضوم أدافع عن الخليفة المظلوم ملك الدنيا هارون الرشيد!)

كفـــاكم - لخيـــر الرجـــال - احتقـــارا ... فكـــم أغـــرَتِ التُرّهـــاتُ السُّـــكارى!

وكـــم – بالأباطيـــل - ضـــلت فِنـــامٌ! ... وكـــم جلـــب الزيـــفُ - للصِـــيد - عـــارا!

وكـــم - بـــالأراجيف - ضـــاعتْ حقـــوقٌ! ... وكـــم أوقـــد الـــزورُ - للشُـــمّ - نـــارا!

وكـــم - بالأضـــاليل - داجَـــى ســـفيةٌ! ... وأجّـــجَ - فـــي المُـــرجفين - السُـــعارا!

وكـــم – بالأكاذيـــب - راجـــتْ ظنـــونٌ ... وباتـــت - لمـــن يجتبيهـــا - شِـــعارا!

وكـــم – بالأغـــاليط - زلـــت فهـــومٌ ... قـــد انحـــدرتْ – للضـــلال - انحـــدارا!

وكـــم – بالســـفاهات - لاحـــى جهـــولٌ ... ليُلحـــق – بالصـــالحين - الشـــنارا!

وكـــم - بالحماقـــات - بـــارى ظلـــومٌ ... فـــزاد أمـــورُ البرايـــا تبـــارا!

وكـــم - بالتخـــاريف - شـــطت عقـــولٌ ... قـــد اشـــتهرتْ – بـــالجنون - اشـــتهارا!

وكـــم نســـج الغِـــش ثـــوبَ جبـــانٌ ... قـــد اغتـــرّ – بالسفســـطات - اغتـــرارا!

وكـــم طمـــسَ الحـــقَ غِـــرٌ غشـــومٌ ... توشّـــحَ بُـــرْدَ الـــدفاع اســـتتارا!

ولـــــم يظفـــــروا بالـــــذي أمّلـــــوهُ ... لأن المهـــــيمن يحمـــــي الخِيـــــارا

ويَهـــــزمُ أهـــــلَ الأباطيـــــل ، قطعـــــاً ... ويَـــــرزقُ أهـــــلَ الضـــــلال الخســـــارا

وآيـــــاتُ ربـــــي بـــــذا شـــــاهداتٌ ... ليعتبـــــر العـــــالمون اعتبـــــارا

ولـــــن يُعجـــــز اللهَ كيـــــدُ البرايـــــا ... وكيـــــدُ اليهـــــود ، وكيـــــدُ النصـــــارى

وهـــــارونُ ممـــــا افتـــــرَوْهُ بـــــريٌّ ... وإن لنـــــا – بالرشـــــيد - الفخـــــارا

تَنقصَـــــه البُلـــــهُ أهـــــلُ المخـــــازي ... فكـــــلّ أعـــــدّ المُـــــدى والشِـــــفارا

لـــــيطعن – بالكيـــــد - ليثـــــاً هصـــــوراً ... ويـــــنفخ - فـــــي الخـــــافقين - الأوارا

ويهتـــــكَ عِـــــرض الخليفـــــة جهـــــراً ... ويُتـــــرعَ كـــــأسَ التشـــــفي مَـــــرارا

ويغتـــــالَ سُـــــمعة عبـــــدٍ تقـــــي ... عَيانـــــاً بيانـــــاً ، جَهـــــاراً نهـــــارا

وينفُـــــثَ سُـــــم الأفـــــاعي انتقامـــــاً ... ويَـــــزْوَرّ - خلـــــف التحـــــدي - ازوِرارا

ويجهـــــرَ - بالســـــوء - دون احتـــــرامٍ ... ويُلحـــــقَ – بـــــالعبقري - الصَـــــغارا

وهـــــارونُ لـــــيس كمـــــا صـــــوّروهُ ... نـــــديمَ الكـــــؤوس عشـــــيقَ العـــــذارى!

فلـــــم يـــــكُ قـــــط صـــــريعَ الغـــــواني ... ولـــــم يهـــــوَ عُـــــوداً ، ولـــــم يهـــــو طـــــارا

ولـــــم يشـــــرب الخمـــــر ، حاشـــــا ، وكـــــلا ... ولـــــم يلـــــبس المـــــاسَ يومـــــاً سُـــــوارا

ولـــــم يجعـــــل الحُكـــــم مُلكـــــاً عضـــــوداً ... ولـــــم ينتصـــــرْ – للفســـــاد - انتصـــــارا

ولـــــم يجعـــــل العُمـــــر كهـــــفَ الجـــــواري ... ولـــــم يُـــــدمن المســـــتنيرُ القِمـــــارا

ولـــــم يـــــكُ يصـــــبو لـــــذل الرعايـــــا ... لينكســـــروا – للعتـــــيّ - اضـــــطرارا

ولـــــم يـــــكُ يهـــــوى الغِنـــــا والبَغايـــــا ... ومـــــا كـــــان قـــــط يُغنـــــي جهـــــارا

ألا إنـــــه عـــــاش عبـــــداً شـــــكوراً ... يحـــــب الرشـــــاد ، ويرعـــــى الـــــذمارا

فعامـــــاً يحـــــجّ لمحـــــو الخطايـــــا ... ويعتـــــذر الفـــــذ عنهـــــا اعتـــــذارا

وعامـــاً يجاهـــد فـــي ســـاح حـــرب وتقـــتحم الخيـــل فيهـــا الخبـــارا

أقـــام الشـــريعة لـــم يـــألُ جهـــداً وصـــحّحَ – للمـــؤمنين - المســـارا

وكـــان يَـــرقّ إذا مـــسّ وعظـــاً وبعـــدُ تفـــيضُ الـــدموعُ بحـــارا

وكـــان يُقـــرّب منـــه اليتـــامى ويَحـــزن إمـــا رآهـــم حيـــارى

وكـــان يُجيـــرُ الـــذي ضـــاق ذرعـــاً وأمّـــل - عنـــد الرشـــيد - الجـــوارا

وكـــان يُجـــلّ التقـــاة النشـــامى ويختـــارُ أهـــلَ الرشـــاد اختيـــارا

وكـــان يُعِـــز الـــذي حـــاز علمـــاً وبـــين البرايـــا يـــراه منـــارا

فرفقـــاً بهـــارونَ يـــا مـــن أثـــرتم عليـــه - بغيـــر الـــدليل - الغبـــارا

أراكـــم أســـأتم ، لـــذا فارحمونـــا مـــن الترّهّـــات ، تـــذرّ العَـــوارا

(مسك الختام)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيد الخلق أجمعين ، الحمد لله الذي جعلنا أمة وسطا ، الحمد لله الذي جعلنا أمة الخير وجعل الخير فيها إلى يوم الدين ، الحمد لله الذي رزقنا الخيرية والوسطية وجعل في أمة الإسلام من يقوم بهذا العمل ابتغاء لمرضاة الله ورسوله. إن عمل الخير وتقديم يد العون للمحتاجين والتصدق على الفقراء والمساكين والمساعدة للآخرين ، أمر فطري ، والإنسان يشعر براحة نفسية كلما أقدم على فعل يتفق وفطرته. من ذلك ما روي أن الله تعالى يقول في حديث قدسي "طُوبَى لمن أجريت الخير على يديه ، وويل لمن أجريت الشر على يديه"0 ها نحن قد وصلنا إلى ختام هذه السيرة الذاتية للأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – فيها التي تتحدى الواقع. وكنا قد بدأنا هذه السيرة متحرين الدقة في ترتيب الأحداث والاستيثاق منها وإعدادها إعدادا يليق بمقامها . وعمدنا إلى أسلوب السؤال والاستفسار من أغلب وأصدق من عاشوا معها قصة الطموح ورافقوها فيها. ولم نعتمد التدشين منهجاً ولا الإفراط في المدح أسلوباً! لأن النبي صلى الله عليه وسلم (أُحثوا في وجوه المداحين التراب). ورفض الرسول أن يمتدحه أصحابه ويكون ذلك منهم ديدناً ومنهجاً وأسلوبية فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله). ولكن من باب إنزال الناس منازلهم والاعتراف لأصحاب الفضل بفضلهم كتبنا عن الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله –. وهي كلمات لا توفيها حقها ولكنه شرف المحاولة على كل حال. وحاولنا جاهدين أن لا نوغل في المبالغات التي أغلبها لا أساس له من الصحة. وذلك لأن هذا منهج المرتزقة الذين يكتبون على قدر ما يأخذون! إن الكتابة النزيهة تجد طريقها مباشرة إلى القلب والوجدان والروح. بينما الكلمات المعسولة تجد طريقها إلى العين والأذن فقط وتمجها القلوب والأرواح.

حديـــث الـــروح لـــلأرواح يســـري وتسمعـــه المشاعـــر والقلـــوبُ

ومن هنا آثرنا الكتابة بصدق بعيداً عن المبالغة. وحاولنا جاهدين أن تكون الكتابة موضوعية قدر المستطاع وتكون مشتملة على الآية والحديث والحكمة والمأثور والموقف والشعر. وذلك حتى لا تكون مملة رتيبة لا متعة فيها وتناولنا الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – لا من حيث أنها أميرة ربيت في بيت الخلافة والحكم وما يتبع ذلك من لوازم وأمور. لا بل تناولنا الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – الإنسانة الطموحة التي كرست فعلاً جُل حياتها وربيع شبابها من أجل عدد من القضايا الحيوية التي تحمل هموم هذه الأمة مثل (قضية المرأة المسلمة وتحديها للواقع وخروجها من دائرة التقوقع داخل البيت ، بل البذل والعمل الموافق لشريعة الله كتاباً وسنة والموافق للتقاليد والأعراف العربية والمستجيب لهموم دار الإسلام والوقوف على المؤامرات الذي تحول ضده لتجعله وطناً متخلفاً عن الشرع الحنيف مصادماً لمسيرة الحضارة). وأيضاً (قضية الفقراء والمساكين في الداخل والخارج والآفات الثلاث الفقر والجوع والجهل) ، (وقضية العمل التطوعي والخيري وكيفية الرقي بهما قلباً وقالباً في محاولة لقطف الثمرات الطيبة للعمل الخيري) (وقضية الأسرة والأمومة والطفولة في محاولة لتفعيل دور الأسرة والنهوض بها من مرحلة الطعام والشراب إلى مرحلة التربية والتوجيه وزراعة القيم لصناعة الرجال الذي يطورون المستقبل). وتحت عنوان: (الزوجة المجهولة لهارون الرشيد) كتب الأستاذ أحمد صبحى منصور ما نصه: (هي زوجة مجهولة لهارون الرشيد ، أول من تزوج ، وولدت له أول ولد له ، (أحمد بن هارون الرشيد)

الذي أورد ابن الجوزى ترجمته في تاريخ "المنتظم" وذكره ابن كثير"في "البداية والنهاية" ، وكلاهما منحها سطوراً في التاريخ. ولكننا نرى أنها تستحق إشادة أعظم وجهدا أكبر في رسم ملامحها من بين سطور التاريخ. لقد كان هارون في ريعان الصبا والشباب في ذلك الوقت في خلافه أبيه المهدي ، وكان أبوه يدخره لولاية العهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادي وكانت أمهما الخيزران تتمنى أن يسبق الرشيد أخاه الأكبر في ولاية العهد. ولذلك أوعزت لزوجها المهدي أن يزوج الرشيد ابنة عمه زبيدة بنت جعفر ليزداد شرفاً بأن يكون أول ولى عهد يتزوج أميره عباسية هاشمية. وفوجئ الشاب هارون الرشيد بذلك المشروع السياسي للزواج حين استدعاه أبوه الخليفة المهدي وعرضه عليه ، ولم يستطع الرفض وكتم مشاعره ، وكان معنى ذلك أن يضحى ببطلة قصتنا زوجته السرية التي عقد عليها خفيه عن أبيه والتي ولدت له أول ابن له وهو أحمد بن الرشيد).هـ. وقدمنا الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في نص أدبي متجرد فيه من المصداقية الشيء الكثير حتى يعرفها الناس في الداخل والخارج كرائدة من رائدات الفكر والعمل التطوعي وثائرة من أجل تحرير المسلم والمسلمة من الجهل والتخلف. لتكون مسلمة مؤمنة حرة متقدمة متخلقة بأخلاق الإسلام. ومتأدبة بآداب وتقاليد وأعراف العرب. تلك الآداب والتقاليد والأعراف والسلوم المطابقة لكتاب الله وسنة رسوله. وأوردنا أربع قصائد من تأليف الشاعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم (الشاعر المصري) كاتب هذه الترجمة ومدونها ومترجمها إلى الإنجليزية عن الأميرة زبيدة بنت جعفر وعن زوجها هارون الرشيد - رحمها الله –. والقصائد الأربع في ديوانه: (السليمانيات – المجلد الخامس). وسجلنا بعض نفحات الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – عن ماضي العرب والمسلمين ووصفنا السبيل لإرجاعه. وتناولنا الكثير من فلسفة الأميرة زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – وآرائها وتصوراتها بشيء من التفضيل. وما كان من حق وخير في هذه الكلمات فمن الله – سبحانه وتعالى – وحده ، وما خالف الحق فيها فمن نفسي والهوى والشيطان ، والله – تعالى - منه بريء ، كما وأنني لأعتذر عن بعض الأخبار المستفيضة تلك التي تكرر ذكرها في هذه السيرة والمسيرة! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفهـرس	العام للسيرة والمسيرة في ترجمة الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور	رحمها الله
مسلسل	عنوان	الصفحة

1	الإهداء	9
2	المقدمة	11
3	الافتتاحية	19
4	ما هي السيرة الذاتية؟	21
5	لماذا هذه الترجمة؟	36
6	المولد والنشأة	44
7	الخلفية التاريخية لعصر الأميرة زبيدة بنت جعفر	52
8	زبيدة الأديبة والشاعرة المتمكنة من الشعر	56
9	زبيدة بين الأمين والمأمون	61
10	زبيدة والحركة الأدبية والعلمية في زمانها	63
11	زبيدة رائدة العمل الخيري والتطوعي في العصر العباسي	66
12	زبيدة بنت جعفر ربة الجود والكرم	75
13	زبيدة بنت جعفر زوجة لهارون الرشيد	79
14	زبيدة بنت جعفر الإنسانة المشفقة	87
15	زبيدة بنت جعفروبناء المساجد وحفر الآبار في الصحاري والطرق	97
16	طموح زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في غرس الشجر	99
17	طموح زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في الإنفاق في أوجه الخير	101
18	طموح زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – في إطعام الطعام وسقي الماء	103
19	زبيدة بنت جعفر - رحمها الله – تكسو الفقراء في الأعياد والمناسبات	105
20	زبيدة بنت جعفر طموح يتحدى الواقع	111
21	الشعر يحيي زبيدة بنت جعفر	121
22	استعطاف فوق الوصف	132
23	هارون المفترى عليه	135
24	مسك الختام	145
25	الفهرس	146

نبذة عن الشاعر

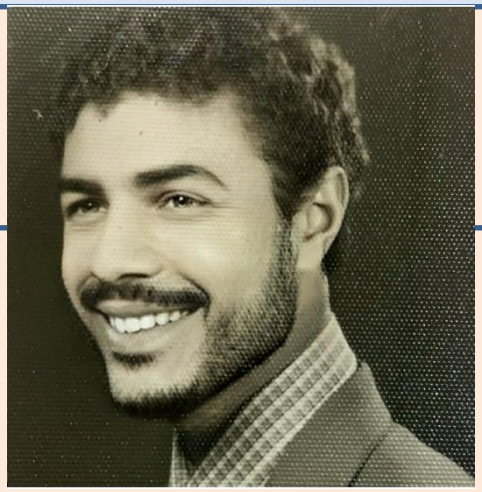

(الشاعر / أحمد علي سليمان عبد الرحيم ، ولد في جمهورية مصر العربية - محافظة بورسعيد - تقاطع شارعي روس وأسوان ، في يوم 15 / 10 / 1963م. تخرّج في كلية الآداب – قسم اللغة الإنجليزية - جامعة المنصورة - مايو عام 1985م. والشاعر بدوي صَعيديٌ قح أباً وجداً وأعماماً من بيت خليفة - الكولة - مركز أخميم - محافظة سوهاج. يدعو في أدبه إلى القيم والأخلاق! معلم لغة إنجليزية - لم يُقدمه للناس أحد! وإنما قدمه أدبه وشعره ونثره ونقده بتوفيق الله – سبحانه وتعالى -!

ويمكننا إجمال الكتب والدواوين في هذه القائمة:

أولاً: دواوين الشعر

1 – نهاية الطريق: (ديوان شعر).
2 – عزيز النفس: (ديوان شعر).
3 - سويعات الغروب: (ديوان شعر).
4 – القوقعة الدامية: (ديوان شعر).
5 - ترنيمة على جدار الحب: (ديوان شعر).
6 – الأمل الفواح: (ديوان شعر).
7 – من وحي الذكريات (1): (ديوان شعر).
8 – الصعايدة وصلوا: (ديوان شعر).
9 – ذل الجمال: (ديوان شعر).
10 – ماسحة الأحذية: (ديوان شعر).
11 – دموع التصبر: (ديوان شعر).
12 – عتاب وشكوى: (ديوان شعر).
13 – فأعِضُّوه ولا تكنوا: (ديوان شعر).
14 – الشعر مسبحتي وتغريدتي: (ديوان شعر).
15 – غادة اليمن: (ديوان شعر).
16 – عزة الخير: (ديوان شعر).
17 – منار الخير: (ديوان شعر).
18 – غربة وحَربة وكُربة: (ديوان شعر).
19 – الطبيبتان: (ديوان شعر).
20 – عجبتُ من قدرة الله تعالى: (ديوان شعر).
21 – أعلام الأرض المقدسة: (ديوان شعر).
22 – كالقابض على الجمر: (ديوان شعر).
23 – من وحي الذكريات (2): (ديوان شعر).
24 – خانك الغيث: (ديوان شعر).
25 – الشعر رحمٌ بين أهله: (ديوان شعر).

ثانياً: الكتب الأدبية

1 - قراءة أسلوبية في شعر الصحابي الجليل المخضرم: حسان بن ثابت الأنصاري (رضي الله تعالى عنه).
2 – قراءة أسلوبية في شعر أحد أغربة الجاهلية: عنترة بن شداد العبسي.
3 - السيرة والمسيرة (دراسة نقدية لحياة التابعية الأميرة: زبيدة بنت جعفر بن المنصور) (رحمها الله).
4 - ترجمة الشاعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم.
5 – ثلاثمائة سؤال وجواب في سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم -!
6 – إن من الشعر حكمة! (مجموعة من الأبيات الشعرية لآخرين تأثرتُ بها في حياتي العملية)

ثالثاً: قصائد ذات شأن

1 – الشاعر ليس نبياً ليكون شعره وحياً!
2 – القاتل البطيء (التدخين)
3 – بين شوقي وحافظ!
4 – ثاني اثنين إذ هما في الغار
5 – عُمَير بن وهب الجمحي – رضي الله عنه -.
6 – لو كان له رجال! (سيرة الحاجب المنصور)
7 – من أجل زوجي!
8 – هشام الشريف (القاضي المصري الرحيم)
9 – فرانك كابريو (القاضي الأمريكي الرحيم)
10 – يا ليل الصب متى غده! (معارضة للقيرواني)
11 - يزيد بن معاوية (ما له وما عليه)
12 – رباعيات الخيام اليمنية (معارضة لعمر الخيام)
13 – ابتسم! (معارضة لإيلياء أبو ماضي)
14 – إبراهيم مصطفى صديقاً وصهراً
15 – أبو غياث المكي – رحمه الله –
16 – أتيناكم! أتيناكم!
17 – أحمد الجدع مؤرخاً وشاعراً ونحوياً وناقداً
18 – أستاذي قال لي! (عريف الكُتاب – رحمه الله -)
19 – قراءة في أوراق الماضي (القصيدة الوحيدة من شعر التفعيلة)
20 – أسماء الله الحسنى
21 – الآن طاب الموت (السلطان سليمان القانوني)
22 – التلون أخو النفاق من الرضاعة
23 – موقع (الديوان) منتجع الشعراء
24 – (الزاهية) تحدثنا عن نفسها
25 – أبجديات شعرية
26 – الشعر رحِمٌ بين أهله
27 – الله يرحمُ مُزنة
28 – رسالة شعرية إلى أم يوسف
29 – امتَهنوا فما امتُهنوا! (علماء السلف رحمهمُ الله)
30 – تراني عندما أرى لحيتك!
31 – لا فضّ فوك يا دكتور بدر العتيبي!
32 – بُردة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –
33 – بردة عائشة بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنهما –
34 – بردة عثمان بن عفان – رضي الله عنه –
35 – بردة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –

36 – بردة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –
37 – بردة فاطمة بنت محمد – رضي الله عنها –
38 - بكائية إسماعيل علي سليم (فقيد التربية والتعليم)
39 – نعم الميّت ، ونعمت المِيتة! (رثاء فقيد الأزهر الشريف)
40 – تحية رقيقة إليك يا غدير!
41 – تحية أهل الشعر في جروب (أهل الشعر)
42 – تغير الحال أم الخال؟!
43 – تلميذي البار شكراً!
44 – تيس يرث نعجة! (جيء به محللاً فورثها)
45 – ثلاثة أقمار وأنت رابعتهن! (رؤيا عائشة)
46 – جاز المعلم وفه التبجيلا! (معارضة لشوقي)
47 – حادي القلوب (ظفر النتيفات)
48 – حبيبتي أقبلتْ! (معارضة لجاءت معذبتي لابن الخطيب)
49 – حرامية الشعر!
50 – حنين القلب (رثاء الشيخ عبد الباسط عبد الصمد)
51 – حنين بقلبي (معارضة للعشماوي)
52 – خانك الغيث (معارضة للسان الدين بن الخطيب)
53 – رثاء الدكتور الشربيني أبو طالب (معارضة لشوقي)
54 – رثاء الحاجة فاطمة (أم زكريا مجاهد)
55 – رسالة إلى دائنة!
56 – رضيعة الحاوية (رماها أبوها رضيعة فنفعته في كبره)
57 – رفقاً بنفسكِ يا صاحبة الدموع (عائشة – رضي الله عنها -)
58 – رفيدة بنت سعد الأسلمية – رضي الله عنها –
59 – سلطان المجنوني (رائد القصة الهادفة)
60 – سمية بنت خياط – رضي الله عنها –
61 – سنسافر أنا والكتب (عبد الرشيد صوفي)
62 – ضحية تعتب على قاتلها (بعد استشراء ظاهرة قتل البنات)
63 – طبت حياً وميتاً يا أبتاه!
64 – طبت حياً وميتاً يا رسول الله!
65 – طبيب الغلابة (الدكتور محمد المشالي – رحمه الله -)
66 – ظلم الشقيقتين (كفلهما صغيرتين وخذلتاه في الكبر)
67 – عاشقٌ عزيز النفس (معارضة لقصيدة نزار قباني: يا من هواه)
68 – موقع (عالم الأدب) مأوى الشعراء
69 – عجبتُ للنذل
70 – عجبت من قدرة الله تعالى! (معارضة لقصيدة: عجبتُ لا تنتهي)

71 – غادة اليمن (معارضة لغادة اليابان لحافظ)
72 – وربما حار الدليل!
73 – يا جارة الوادي اليمنية (1 & 2) (معارضة لشوقي)
74 – لصوص القريض
75 – لقاؤنا في المحكمة
76 - لوعة الرحيل
77 - مسألة كرامة (تعريب تبيني صدق لحامد زيد)
78 – كفى تبرجاً وقبحاً (معارضة لقصيدة: أفوق الركبتين للخوري)
79 – مصابيح الدجى (علماء السلف – رحمهمُ الله -)
80 – مكتبة نور مأوى الأدباء والعلماء والشعراء
81 – منار الخير (هدية لجمعية حماية اللغة العربية)
82 – ميلاد أمة بميلاد نبيها (معارضة لقصيدة شوقي: ولد الهدى)
83 – هذا بعض ما أعيش! (معارضة لقصيدة الأميري: أين الضجيج؟)
84 – الأطلال اليمنية (1 & 2) (معارضة لقصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي)
85 – الكائنات الفضائية!

رابعاً: المجموعات الشعرية

1 – الغربة سلبيات وإيجابيات
2 – إلى هؤلاء أتكلم!
3 - آمال وأحوال
4 – أمتي الغائبة الحاضرة
5 – أنات محموم وآهات مكلوم
6 – أوبريت هيا إلى العمل (أوبريت غنائي للأطفال)
7 – تحية شعرية والرد عليها
8 – رمضان شهر الخير والبركة
9 – عندما لا نجد إلا الصمت
10 – يا أماه ويا أختاه كفا الدمع!
11 – بيني وبينك!
12 – تجاذبات مع الشعر والشعراء
13 – دموع الرثاء وبكاء الحُداء (1 & 2)
14 – رجالٌ لعب بهمُ الشيطان
15 – رسائل سليمانية شعرية
16 – شخصيات في حياتي! (1 & 2)
17 – شرخ في جدار الحضارة
18 – شريكة العمر هذي تحاياك! (أم عبد الله)
19 – ضدان لا يجتمعان: الشهامة والنذالة (1 & 2)
20 – عندما يُثمر العِتاب

21 – فمثله كمثل الكلب!
22 – قصائد لها قصص مؤثرة (1 : 10)
23 – كل شعر صديق شاعره
24 – مساجلات سليمانية عشماوية
25 – مراودة ومعاندة (بين نذل وزوجة أخيه المسافر)
26 – الأميرة زبيدة بنت جعفر بن المنصور – رحمها الله –
27 – الزاهية تحدثنا عن نفسها (مسرحية شعرية من عشرة فصول)
28 – الشهادة خيرٌ من النفوق!
29 – الصبر تِرياق العلل والداءات
30 – الصعيد مهد المجد والسعد
31 – الضاد بين عدو وصديق
32 – العيد السعيد جائزة الله تعالى
33 – الغربة دُربة على الطريق
34 – الغيرة غير القاتلة
35 - القصيدة ابنتي
36 – اللغة العربية وصراع اللغات
37 – اللقيط بريءٌ لا ذنب له!
38 – المال والجمال والمآل
39 – المشاكل الزوجية توابل الحياة (1 & 2)
40 – المعلم صانع الأجيال
41 – الوحدة بر الأمان (مسرحية من فصل واحد)
42 – اليُتْم غنمٌ لا غرم
43 – أمومة وأمومة
44 – أهازيج بين الشعر والشاعر
45 – أهكذا تكون الصداقة يا قوم؟!
46 – أهكذا يُعامَل الشقيقُ يا هؤلاء؟!
47 – بين الفتنة والبطنة!
48 – بين هندٍ وزيد!
49 – جيران وجيران!
50 – رب ارحمهما كما ربياني صغيرا! (شاعر يرثي أبويه)
51 – عزة الخير (أم عبد الله)
52 – فداك أبي وأمي ونفسي يا رسول الله!
53 - قصائدي القصيرة المشوقة (1 & 2)
54 – مدائح إلهية شعرية

55 – اليمن في شعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم
56 – البُردات الشعرية السليمانية
57 – عيون الدواوين السليمانية
58 – معارضات سليمانية شوقية (معارضاتي لشوقي)
59 – المعارضات الشعرية الكاملة (معارضاتي لبعض الشعراء)
60 - مقدمات وإهداءات شعرية
61 – من أزاهير الكتب
62 – من الأجوبة المُسكتة المُفحمة
63 – من أناشيد الأفراح
64 – نحويات شعرية
65 – نساء صَقلتهن العقيدة
66 – نساءٌ لعب بهن الشيطان
67 – وتبقى الحقيقة كما هي!
68 - وصايا شعرية!
69 – أم المؤمنين عائشة في شعر أحمد علي سليمان
70 – إحقاقاً للحق وإظهاراً للحقيقة!
71 – الأندلس في شعر أحمد علي سليمان
72 – الحجاج في شعر أحمد علي سليمان
73 – الدنيا في شعر أحمد علي سليمان
74 – الصحابة في شعر أحمد علي سليمان
75 – العثمانيون في شعر أحمد علي سليمان
76 – المنشدون في شعر أحمد علي سليمان
77 – علماء السلف في شعر أحمد علي سليمان
78 - علماء الخلف في شعر أحمد علي سليمان
79 – رسائل شعرية لمن يهمه الأمر
80 – ماذا قال لي شعري؟ وبم أجبته؟
81 – مواقع متفردة لهمم مغردة!

خامساً: الكتب الإنجليزية

1. Proofreading Drills (1-12)
2. Reading Drills (1-50)
3. Reading Quizzes (1-111)

4 – Airborn (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

5 - Allied with Green (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

6 - Conversation Skills

7 - Correction Exercise (1-100)

8 - Frederick Douglass (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

9 - Grammar Tasks (1-77)

10 - Harriet Tubman (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

11. Kensuke' s Kingdom (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

12. Punctuation Tasks (1-56)

13. Reorder Quizzes (1-34)

14. Two Legs or One (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

15. Writing Practices (1-76)

16. Eleanor Roosevelt (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

17. Roughing It (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

18. Raymond's Run – Toni Bambara

19. Clean Sweep (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

20. The Treasures of Lemon Brown (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

21. O' Captain! My Captain! (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

22. The Ransom of Red Chief (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

In addition to hundreds of social essays to enrich the students backgrounds in English and make them love English! & 77 Translation Passages!